قُدْوَةُ العالمينَ مُحَمَّد ﷺ

* الكتاب: قُدّوَةُ العالمينَ محمد ﷺ

* الكاتب: مدحت رضا ماهر

* مراجعة لغوية: عزيز عثمان

* تصميم الغلاف: شيماء أبو طالب

* إخراج داخلي: سليل الفراعنـة

* رقم الإيداع: 3678 / 2022

* الترقيم الدولي: 5--16-6968-977-978

المدير العام: عزيز عثمان

لمراسلة الدار: daralmuntadaa@gmail.com

واتس آب: 01005186476

صفحة الدار على موقع فيسبوك: دار المنتدى للنشر والتوزيع

صدر عن دار المنتدى

بالتعاون مع دار المثقف

9 789776 968165

جميع الحقوق محفوظة لدار المنتدىٰ للنشر والتوزيع

كل ما ورد في هذا العمل مسئولية مؤلفه، من حيث الآراء والأفكار والمعتقدات، وكونه أصيلاً له غير منقول، وأية خلافات قانونية بهذا الشأن لا تتحملها دار النشر.

قُدْوَةُ العَالَمِينَ

محمد ﷺ

الجزء الأول

العقيدة بين التطور والتحريف

(من بدء الخليقة إلى عام الفيل)

مدحت رضا ماهر

صدر عن دار المثقف للنشر والتوزيع
بالتعاون مع دار المنتدى للنشر والتوزيع

الفهرس

مقدمة الكاتب

التاريخ المقارن

علىٰ الإنسان أن يعمل علىٰ تحري الدقة في تاريخه درءاً ودفعاً للضرر العاجل والآجل، والتاريخ يقترب شأنه من شأن قراءة الطالع إن كان حدسا وتوقعا، ويعلو شأنه إن كان مسجلاً ومنقحاً، عندئذ يصبح التاريخ ميراثاً للإنسانية وهدىٰ لها، والتاريخ هو في حد ذاته مجموعة من الأحداث المتعاقبة، أماالأحداث- وإن لم تعنينا لذاتها-لا يكون لها شأن إلا عندما تكون تقييماً للأعمال أو تعريفاً لقدرات الناس، وإن لم يكن للتاريخ مردود في الإستفادة منه لحاضر أولمستقبل فسرده ليس إلا إضاعةً لوقت وتبديداً لجهد.

إن هان التاريخ علىٰ البشر؛ هان الخلل في موازين الإنسانية، فتضل الإنسانية بسبب التاريخ المهان، والتاريخ حينما يكتب فلزاما علىٰ كاتبه أن يعتبر العديد من الإعتبارات التي أدت بمجموعة من الأحداث المتتالية والمتراصه أن تصنع تاريخا.

إن كل العلوم الإنسانية والميتافيزيقية والتجريبيه معنية في حدوث الحدث ومسببةً له، والتاريخ ينبغي أن يحكم أيضا بالتاريخ، وللإنسان أن يضع كل الإعتبارات السابقة في حسبانه وهو يطلق الأحكام، فانعكاس الأحكام وإنقلابها من نقيض الىٰ نقيضه يؤدي بالأنسانية الىٰ الخلل، هذه القيم يجب أن تحتفظ بحقائقها ولا تبتذل أو تمتهن لأن الإبتذال والإمتهان يخرجان بها عن الحقيقة، فوضع الذم موضع الحمد، والكذب موضع الصدق، والخديعة موضع الأخلاص، والعهر موضع الشرف هو أفدح مصاب تصاب به الإنسانية، هو مصاب في عرضها ومستقبلها، ولعل أوجب واجب علىٰ الأنسان أن يتجنب هذا المصير.

إن كان تاريخ الفرد هو مجموعة من الأحدث منذ مولده حتىٰ وفاته، وكانت تواريخ مجموعة الأفراد وأحداثهم تشكل بتفاعلها تاريخا لهذه الجماعة - خاصة إن كانوا في موقع المسؤليه المؤثرة علىٰ مجريات الأمور- فتاريخ الجماعات وتفاعلاتها بعضها البعض تشكل التاريخ الإنساني، وإن كان الأمر علىٰ هذا النحو، فهذه الجزئيات لايمكن فصلها ولا يصح فصلها بعضها عن بعض وبناء عليه فالتاريخ حتىٰ يقرأ صحيحا ينبغي أن يلم هذه الأشتات مكوناً علماً لم يطرق بعد، ألا وهو التاريخ المقارن.

إن أول ما يحفل به التاريخ هو الزمن فزمن الحدث حرىٰ بأن يعطيه إما السبق والاعتبار أو الإهمال والاستهانه، فالإنجاز الذي يحققه عداء باوليمبياد زمن الإغريق قد لا يغري بالاعتبار في اوليمبياد القرن الحادي والعشرين بعد تطور أساليب الرعاية والتدريب والخبرات، إلا أنه إنجازُ لا مسبوق مقارنة بالزمن الذي حدث فيه، وهناك اختراعات قد لا يعطيها فاقدي الألباب أهمية كاختراع الكتابة، فأغلب الصبية اليوم ممن تجاوزوا العاشرة من العمر يجيدونها، ولئن كان القياس بمعايير القرن الحادي والعشرين لهان هذا الاختراع، إلا أنه اختراع ممدوح إذا ماوضع في الاعتبار أن أولئك الذين قاموا به وأنجزوه قد أنجزوه في زمن كان نظرائهم من البشر لم يتوصلوا إلىٰ اختراع الكلام كوسيلة اتصال من الأصل.

ولعل ثاني مؤثر علىٰ التاريخ هو جغرافيتة. فموقع الأحداث يعطيها كذلك السبق والاعتبار والأهمية، فسيول تهطل علىٰ جزيرة غير مأهولة أو زلزال يضربها حتما هي أحداث لا يمكن ذكرها أو تذكرها، في حين أن حدوث الحدث ذاته في أرض مأهولة، أو تتوسط طرقـًا تجاريةً مثلاً، حري بالتسجيل والتأثير والتأثر معا، أما مصادر ثروة هذه البقعة فلها من التأثير علىٰ التاريخ الإنساني أيما تأثير، وربما كان العالم الجديد (أو الذي كان جديدا) أوضح مثال علىٰ هذا، فثروات القارات الثلاث المكتشفة في القرن السادس عشر قد أثرت علىٰ مجريات التاريخ كله بعد كشفها عن طريق شعوب تحمل طبيعتها في علم الأجناس من الخصوصية ما جعل لتلك الثروات التأثير الفادح والذي ميز حضارة علىٰ غيرها وأرجح كفة علىٰ كفةٍ في ميزانِ التاريخ الإنساني، هذا علىٰ الرغم من أن تلك القارات كانت مأهولة لكن بسكان لم تحمل جيناتهم ما يعطيهم ميزة الريادة أو السبق والاعتبار، لا في اعتبارات تعدادهم أو جيناتهم أو طبيعتهم السيكولوجية

وعليه فالعامل المؤثر الثالث هو عامل علم أجناس الشعوب (الإنثروبولوجيا) الذين يتأثرون بالزمن والمكان للأحداث التاريخية.

كل ماسبق الإشارة إليه هو فحسب إشارات لأهمية توافر وتضافر عوامل أو عناصر التاريخ الحضاري للإنسان في ذاك الزمن وذلك المكان، ومع هذا الجنس من البشر، وإن كان هذا يصلح في بحث يختص بالتاريخ المطلق فما يعنينا في بحثنا الآن يتحدث عما هو خاص بالتاريخ المقارن، فلئن كان هذا البحث أيضا يعنىٰ بما تعنيه العناصر ألمؤثره علىٰ التاريخ المطلق، فهو بالتأكيد في علم التاريخ المقارن الذي نحن بصدَدِه الآن، يجب أن

يوضع في الاعتبارفكما قلنا مسبقا أن اختراع الكتابة بالنسبة لزمنه كان قفزه حضارية مقارنه بالأقوام المعاصرة له، فالأحداث عند أمة ما أيضا إن تم تأريخها، ومن ثم مقارنتها بالأحداث عند الأمم الأخرىٰ في أزمانها سوف تعطىٰ لنا بعداً أوأبعاداً أخرىٰ للمقارنةِ وربط الأحداث.

وعلية فلئن كانت أزمنة التاريخ، وجغرافية أصحابه وموروثات أجناسهم، ومعرفتهم التراكمية السابقة وغيرها من العناصر، هو ما يحفل به التاريخ ويقيم به،

فمقارنة زمن تاريخ القوم بتاريخ معاصريهم هو العنصر الرابع الأكثر أهمية واحتفالا، وهو ما نسميه بالتاريخ المقارن.

مدحت رضا ماهر

مقدمة الكتاب

ليس هناك من لا يستطيع – وهو قابع في مكانه – أن ينظر إلىٰ الشمس في عليائها، لكن ليس منا من يستطيع أن يمعن النظر إليها لفترة طويلة، فللنظر إليها وللتحديق فيها، أصول قد نبعت من محاذيرِ جمة وأخطارعلىٰ الأبصار محدقة، خاصة إن كان الناظر إليها، يريد أن يعرف كنهها ومكنونها، أما الاستمتاع بالدفئ النابع منها والضوء الصادر عنها فحسب، فهو أمر ميسور ومتاح، يمارسه كل الناس، مهما بلغت عقولهم وضمائرهم من الصغر، حتىٰ الدواب والنباتات والحشرات، تتمتع بما تمنحه الشمس من فضائل للمخلوقات، وبالنسبة إلىٰ أولئك الذين يبحثون فيها، فهم الذين إنما يعرضون أنفسهم للكثيرمن العنت، والإرهاق والمخاطرة، وهم إنما يفعلون ذلك من أجل رفعة البشرية، مهما كلفهم ذلك من أمر، تلك هي ضريبة من يبحثون في الكمال وعنه، والمغرمون بالحقيقة في نضال لا ينقطع.

الباحث عن الحقيقة يحتاج إلىٰ مجموعة من المبادئ البحثية، والمصادر البحثية كذلك أما عن المبادئ البحثية –فهىٰ الشق الأصعب لأنها موكولة للضمير– فهي الحيادية، والتجرد، والتقمص، وهىٰ مبادئ شاقة ومضنية لصاحب البحث، خاصة إن كان مؤمنا صادق الإيمان إيماناً مسبقاً بالنتيجة النهائية التي يريدها لبحثه قبل أن يشرع فيه، وعليه فإنه ليشق علىٰ المرء أن يكون محايدا في وجهة نظرة عن شخصية أحبها أيما حب، أويكون متجردا من مشاعره الفياضة أثناء هذا البحث، وألا يكون إلا متقمصاً لذلك الذي يبحث عنه إن جاز له أو جرؤ علىٰ ذلك، فالتقمص هنا سيصير للشخصية التي يحبها وللشخصية التي يبغضها سواء بسواء.

ربما كان التجرد مدخلا مناسبا للحيادية مع الفكر المسبق، فإن كان لا يصح أن تبحث في سيرة رسول الله (صلىٰ الله عليه وسلم) وأنت منحاز ومحب له، فلا يصح أيضا أن تحمل معتقدات ومبادئ إيمانية بالرسالة التي كلفه الله بها عز وجل دون أن تجرد نفسك منها أثناء البحث ومن أجله، ولئن كان الأمر كذلك، فلسوف ترىٰ أثناء بحثك، أعداء لله ولرسوله وللدعوة أيضا، من خصوم قد لا يكونوا بالغي السوء أو هم كذلك، فإما كانت لديهم مصالح تتعارض مع الدعوة، أو معتقد مغاير يشعرون تجاهه بالحب والتقديس، أو قيم وعادات حاكمة لا تتناسب مع ما دعىٰ إليه رسول الله وعليه فينبغي علىٰ الباحث تقمص تلك الأنماط البشرية ووضع ذاته محل ذات هذا الخصم بتجرد فيفكرمثله كي يكون

الحكم عليه حكما موضوعيا ومجرداً، وهي مهمة مضنية، شاقة، مرهقة، ومحفوفة بالمخاطر- خاصة علىٰ مؤمن- إلا أنها واجبة.

أما بالنسبة للمصادر البحثية فهي - وعلىٰ كثرتها - تمثل معضلة للباحث العاقل لأنها موكولة للعقل والتجربة والاستقراء وهي طريقة عقليه عزفنا عنها بعد أن كانت إنجازا ظاهرا للمسلمين، وتنقسم المصادر البحثية إلىٰ علمي السيرة والحديث، ولست أدرىٰ أمنحة تلك المصادر للباحث أم هي محنة له، فسيرة رسول الله (صلىٰ الله عليه وسلم) كسائر سير العظماء، قد أضيف إليها مما ليس منها أو فيها، إما عن حب وهوىٰ وانحياز وتطوع بحسن القصد، وإما عن حقد وخبث وتخطيط بسوء القصد مما أدىٰ إلىٰ وصولها إلىٰ أيدينا وبها العديد من علامات الاستفهام والتحير وربما التحيز ضد أو مع الدعوة الإسلامية وشخص الرسول ذاته، وذات الشئ ينطبق علىٰ علم الحديث ولقد قال أحد الوضاعون للحديث (وهو عبد الله بن لهيع المتوفي عام ١٧٤ هجريا) - بعد توبته- وكان من الزنادقة "نحن كنا إذا رأينا رأيا جعلناه حديثا" إلا أننا - ولحسن الحظ - نملك الكثير مما ضمنه وضمه الوحي الإلهي والذي أكد لنا المولىٰ عز وجل حفظه " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"

الإمام الغزالي رحمه الله قد جرد نفسه من جميع الآراء حتىٰ الصائبة منها - من وجهة نظره - ثم رتب ووازن، قرب وباعد، عرض الأدلة والبراهين كلها بعد تهذيبها وتحليلها متبعا أساليب التجربة والاستقراء وهوالأسلوب العلمي والطريقة العقلية التي عرفها المسلمون وعُرفوا بها قديما ثم عزفوا عنها.

والإمام محمد عبده حاول جاهدا إدحاض مزاعم المتعصبين من أبناء الشرق الإسلامي في نفس الوقت الذي تصدىٰ فيه لآراء المستشرقين الغربيين المتعصبة ضد الإسلام، إلا أنه قد اتهم فورا من أبناء الشرق بالزندقة والإلحاد والكفر أيضا، فأضعف ذلك من حجيتة في نفوس شباب المسلمين النابهين من ناحية، وأيضا أمام خصوم الإسلام من ناحية أخرىٰ، فالمسلمون النابهون، قد شعروا وكأن الزندقة في نظر الإسلام، هي حكم العقل والمنطق، وأن الإلحاد قرين الاجتهاد وأن ألإيمان قرين الجمود والخرافة والتخلف، وفي المقابل أيضــًا، شعر خصوم الإسلام أنهم علىٰ حق وليس الإسلام ولا الرسول صلىٰ الله عليه وسلم علىٰ شيء، وبهذا رجحت كفتهم في زمن خطر ومستمر حتىٰ الآن، وجزعت

نفوس النابهين من العالم الإسلامي، فانصرفوا يقرأون كتب الغرب، يلتمسون منها الحقيقة المفتقدة عندهم حسبما ظنوا، لما وجدوا فيها ما يبحثون عنه من حداثة وعقل ومنطق وحسن بيان وتصرف ولو كان ظاهريا.

كتب السيرة كمصادر تاريخية:

بالنسبة إلىٰ السيرة فالمعروف عن العرب – سواء قبل الإسلام أو بعده مباشرة – هو انعدام التسجيل التاريخي، إذ لم تكن لديهم إلا الأخبار المتواترة شفاهة، ومما توارثوه جيلا بعد جيل، والمحصورة قبل الإسلام في مفاخر الأجداد ومعلقات الشعراء وسيرهم بمبالغاتها وحروبهم الطاحنة بنوادرها، كحرب داحس والغبراء والبسوس وغيرها، إلا أن البيت الحرام وبكل تأكيد قد حظي بنصيب وافر من من تواتر الأقاصيص التي كانت مقدسة لديهم سواء في بنائها أو بالنسبة للقاطنين الأول فيها، كما سنرىٰ فيما بعد، كما لم تهمل القصص المتواترة أخبار اليمن وممالكها وخراب سد مأرب والهجرات المرتبطة بها والأمم القريبة منها والمؤثرة فيها كالحبشة وفارس، وبظهور الإسلام، ظهر مورد تاريخىٰ ثرىٰ بأحداثه ونتائجه، وفىٰ هذا الوقت فحسب كان جليا الإحتياج الىٰ ترتيب الأحداث التاريخية حسب حدوثها إلىٰ الحد الذىٰ حدا بأمير المؤمنين عمربن الخطاب رضىٰ الله عنه إلىٰ إستشارة علىٰ بن أبىٰ طالب كرم الله وجهه في تأريخ الأحداث واتفق آن ذاك علىٰ جعل هجرة الرسول صلىٰ الله عليه وسلم هىٰ بدء التأريخ بحيث تقاس الأحداث بما قبل الهجرة وما بعدها لكن دون التدوين أىٰ مجرد السرد الشفاهىٰ للأحداث فلقد عرف عن النبىٰ صلوات الله عليه وسلم نهيه عن تدوين الأحاديث فكان تدوين التاريخ منهىٰ عنه بالقياس وحسبنا أنه لم يتوارد لأحد التفكير فيه من الأساس إلا أن الأحداث الجسام سرعان ما أخذت تتوالىٰ ولأسباب عديدة بدأ أول تدوين للأحداث

- في عصر معاوية بن أبىٰ سفيان بن حرب الذىٰ استدعىٰ عبيد بن شريه من صنعاء وأوكل إليه مهمة تدوين التاريخ فكتب كتاب الملوك وأخبار الماضين (هو مصدر تاريخىٰ لا ينزه عن الغرض في بعض مواضعه بعد تولىٰ معاوية الخلافة)
- ثم كتب الفقيه المحدث عروة بن الزبير بن العوام عام ٩٢ هجريا (هو ابن الصحابىٰ الجليل الزبير بن العوام وأحد أوائل المؤمنين والمشارك في الفتنة الكبرىٰ)

- كما كتب في الحقبة نفسها أبان بن عثمان بن عفان المتوفى عام ١٠٥ هجريا (وهو بن عثمان بن عفان رضى الله عنه الخليفة الشهيد).
- ثم وهب بن منبه المتوفى عام ١١٠ هجريا. (وكان يهوديا وأسلم)
- فعاصم بن قتادة -المتوفى عام ١٢٤ هجريا.
- فعبد الله بن أبى بكر بن حزم- المتوفى عام ١٣٥ هجريا.

وقد أصابت يد المنون صحف هؤلاء سوى صحيفة عروة بن الزبير التى كانت مرجعا رئيسيا لمؤرخين قد أكثروا من الأخذ عنها كإبن إسحاق والواقدى والطبرى ولم يبق من صحيفة "وهب بن منبه"إلا قطعة واحدة محفوظة في مدينة هيدلبرج بألمانيا ،وإذا نظرنا إلى سن هؤلاء وقت الرسالة الإسلامية لعلمنا أنهم إما لم يولدوا أصلا وقت البعثة أوكانوا أحداثا لا يدرون ما يدورحولهم إلاعن طريق السماع والتواتروالتأثر والملاحظ هنا أن أغلب تلك السير كانت قد كتبت في عهد الدولة الأموية ثم اختفت كما أسلفنا ماعدا ما ذكرناومن بعد ذلك ظهرت كتب جديدة للسيرة النبوية الشريفة في عهد الدولة العباسية ومن ثم، أرادت تطويع السيرة للسياسة، فظهرت طبقة أخرى من المؤرخين أبرزهم:

- موسى بن عقبة المتوفى عام ١٤١ هجريا
- معمر بن راشد المتوفى عام ١٥٠ هجريا
- ومحمد بن إسحق المتوفى عام ١٥٢ هجريا (وكان قد كتبها في أوائل العصر العباسى بناء على طلب الخيفة العباسى أبو جعفر المنصور لولدة المهدى فجاءت مطولة جدا فانتهت إلى خزانة أمير المؤمنين).
- و البكائى تلميذ بن إسحق والمتوفى عام ١٨٣ هجريا.
- وشيخ بن هشام المتوفى عام ١٨٣ هجريا.
- و الواقدى صاحب المغازى المتوفى عام ٢٠٧ هجريا.
- السيرة النبوية لعبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى ٢١٥ هجريا.
- و محمد بن سعد صاحب الطبقات الكبرى المتوفى عام ٢٣٠ هجريا.
- جامع الترمذى أبو عيسى الترمذى ٢٦٠ هجريا

عندما تناول عبد الملك بن هشام السيرة التىٰ وضعها محمد بن إسحق - وقد كان تلميذة - عنىٰ بتهذيبها بالأختصار والنقد ، متوخيا الدقة والموضوعية قدر إمكانه وأضاف إضافات لبيان بعض الأخطاء وشرح كلمات غامضة وحذف ما ليس من أخبار الرسول صلىٰ الله عليه وسلم ولا نزل منه من القرآن شيئ وما قد يسوء، كما حذف من الشعر ما لم يثبت ولكن زاد ما رآه ضروريا لتنتهىٰ السيرة لما وصلت إلينا الآن بين أيدينا وعرفت بسيرة بن هشام ولا تنسب إلا إليه وفىٰ رأينا، أن ما زاده ورآه ضروريا إنما هو خاص برؤية عصره ولا تلزمنا رؤياه ولنا أن نحذف مانراه كما حذف.

وقد كتبت العديد من السير خلال القرن الثالث الهجرىٰ وبعدة، وكان أشهر الرواة لأولئك المؤرخين (أبىٰ مخلف بن لوط بن يحيىٰ) وهو المعروف براوىٰ الأباطيل، واستمرت هذه البحوث القيمة إلىٰ يومنا هذا (القرن الخامس عشر الهجرىٰ) وقد يرىٰ المرء مئات من الكتب قد كتبت في العصر الحديث (عصر التنوير) صادرة من المسلمين في أغلب البلدان العربية والإسلامية فيها من المنطق والحرص والتدقيق ما يثلج الصدور- نوعا ما- إلا أن أغلبها مايزال، إما يحوىٰ علىٰ بعض الخرافات أوأنه يتجاوزالحد المسموح به في المنطق والبحث، فيعزو أحدهم-علىٰ سبيل المثال لا الحصر- العصف المأكول في سورة الفيل إلىٰ مرض الجدرىٰ كما ذكر الدكتورمحمد حسين هيكل باشا في كتابه حياة محمد، مستندا إلىٰ إستنتاجات المستشرقين (موير) ورؤياهم، وهنا ينبغىٰ أن تكون لنا وقفة في شأن رؤية المستشرقين، فالأضواء الآتية إلينا من الماضىٰ تكشف لنا حاضرنا ومستقبلنا، وكل ما علينا في هذا المضمار هو أن ننقىٰ تلك الأضواء الآتية إلينا من الماضىٰ ولا نعتمها، حتىٰ لا يختلط الأمر علينا بين ما هو مدنس وما هو مقدس، ولئن كنا هنا - وفىٰ هذه الظروف- نشكو من معاناتنا من كتاب مسلمين مخلصين في أغلب الظن، نتحرىٰ الدقة فيما كتبوا وما ذهبوا إليه والجدل المتوقع من موقفنا هذا من كتاب قدماء ومحدثين أجلاء- نجلهم ونعرف قدرهم - فالأمرإذن أولىٰ بنا عند قبول أو رفض ما افترىٰ به علينا وعلىٰ رسولنا الأكرم من أولئك المستشرقين يصبح واضحا، وهم المعروفون بانتفاء الأمانه في أحكامهم إجمالا فالأمرالملحوظ من أغراض الإستشراق والدراسة، هواصطياد وافتراء الأخطاء من خلال إسرائيليات ساقها يهود الجزيرة العربية وأوضحهم عبد الله بن سبأ وغيره، أولأكاذيب التىٰ ساقها بعض الموالىٰ من الفرس والروم خاصة ما هو معروف حدوثه تاريخيا في زمن الدوله العباسيه الأولىٰ وهىٰ في أوج قوتها ثم الدوله العباسية الثانية

وهي علىٰ وشك السقوط، تلك الحالة التىٰ استمرت قرونا والتىٰ أعطتها فسحة من الزمن الكافىٰ والرقابة المعدومة أكبرالفرص لهذا التشويه، أماعن المبالغات المنوه عنها في هذا البحث من الكتاب المسلمين، فقد حدثت - في أرجح التوقعات - عن حب لرسول الله فأضاف من يرىٰ ما يرىٰ وفىٰ ظنة الدفاع أو الإنحياز للإسلام، كإلصاق المعجزات المفتراة ربما حتىٰ لا يزايد عليهم أهل الكتاب من معاصريهم بما حوت سيرة أنبياء الله من نوح أو إبراهيم أو داود أو سليمان أو موسىٰ أوعيسىٰ عليهم السلام من معجزات، والرد سهل وميسور علىٰ المدافعين عن المعجزات المفتراه علىٰ رسول الله.

الرد الأول هو أن الله تعالىٰ إن كان قد أمد الرسول الكريم بمعجزة أثناء الدعوة لذكرت ضمن آيات القرآن الكريم، والثابت أنه لم يذكر في القرآن إلا معجزة إنشقاق القمر في قوله تعالىٰ من سور القمر آيه (١)"اقتربت الساعة وانشق القمر"ورغم ذلك الحدث الجلىٰ لم يؤمن من رأوه ينشق ولم تكن مشيئة الله لهم أن يؤمنوا بمعجزة حسية، وهو أكبر دليل علىٰ أن الله تعالىٰ لم يشأ إلا للإيمان العقلىٰ أن يسود، ويقول الله تعالىٰ في الآية رقم (١١١)من سورة الأنعام "ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتىٰ وحشرنا عليهم كل شيئ قبلا ما كانو ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون"، أما الإسراء (وهي فتنة للناس بنص القرآن وليست معجزة لهم والمعجزة كانت في تصديقها استنادا علىٰ معجزة أخلاق الرسول) فهىٰ خاصة بالرسول عليه السلام كما سيأتي وكانت بمثابة رعاية إلهية لرسول الله بعد رحلته للطائف، ووفاة أبا طالب وخديجة.

أما الرد الثانىٰ فهو إن كان ألأنبياء من نوح حتىٰ عيسىٰ عليهم السلام، قد أمدهم الله بمختلف الآيات واستخدموها جميعا في إثبات نبوتهم، فالمعجزات التىٰ أتوا بها أمام الناس قد دفعت بعض الناس دفعا إلىٰ الإيمان بالرسالة، ولقد كانت البشرية وحتىٰ هذه اللحظات لا تزال تعيش فيما يعرف بالطفولة الحضارية أو البشريةأو الإيمانية والطفولة الحضارية والبشرية في علم النفس الإجتماعىٰ لها سمات تقترب كثيرا من الطفولة التىٰ نعرفها في علم النفس الفردىٰ، وهىٰ تتميز بالتحيز والأستمساك بالمحسوس والمرئىٰ كسبيل إلىٰ فهمه، أماالنضوج الحضارىٰ أو البشرىٰ أوالإيمانىٰ فيتميز بالتحيزوالأستمساك بموجبات العقل والتفكر والضميروحالة من رقىٰ الضمير الإنساني.

وما كان لنبوة واحدة وفي زمن واحد، أن تؤدىٰ رسالة التوحيد وتفرغ منها في عمر رجل واحد وجيل واحد وإنما هىٰ نبوة بعدها نبوات، حتىٰ نبىٰ الرسالة الواحدة لا يملك أن ينزل عليه الله التنزيل دفعة واحدة، بل علىٰ دفعات تُهضم الواحدة فيتلوها الله بأخرىٰ، فيتم التدرج في التشريع بالتدرج في التنزيل، هادئا ورصينا بلا صدمات تنفر المؤمنين من فكرة الدعوة والحالة الإيمانية لبنىٰ البشر لا يمكنها أن تتحقق إلا بالتدريج، وعليه فالعدد الهائل لأنبياء الله، يمهد كل منهم للآخر الذىٰ يأتىٰ من بعده، والملحوظ أيضا أن كل نبىٰ يخلفه نبىٰ آخر، يذكر قومه بما أرساه النبىٰ الذىٰ قبله، فيكون الرد أنهم إنما يتبعون ما ألفوا عليه آباءهم، وأن ما يذكره نبيهم الذىٰ يعاصرونه ليس إلا (أساطير الأولين).

والرد الثالث هو أن استيعاب المعجزة من البشر لا يمكن أن يعد دليل علىٰ حدوثها م عدمه، فهناك فرق من أن تتنافىٰ المعجزة مع العقل ومع عجز العقل عن استيعابها، ليس هذا فحسب وإنما كانت المعجزات التىٰ تحدث في زمن ما لمجموعة محظوظة - تزامن تواجدها وقت حدوث المعجزة - سرعان ما يتم تناقلها لأولئك الذين يعاصرونهم إلا أنهم غابوا عنها لحظة الحدوث، فيتم تناقلها لمن عاصر الحدث ولم يره أو يتواجد وقت الحدوث، فينتشر الإيمان بإجماع رواة حاضرىٰ الحدث، ثم تظل الأجيال من بعد هؤلاء تتناقل المعجزة بالتفاصيل أوبالأضافات البشرية المعهودة، حتىٰ يصل الأمر بعدها بأجيال الىٰ أعتبار المعجزات وكأنها أكاذيب، فتعود مقولة (أساطير الأولين) مرة أخرىٰ حتىٰ يرسل الله عز وجل من الآيات مع أنبياء آخرين ما يجدد الإيمان في نفوس بنىٰ البشر، إلا أن إستجابة بنو البشر للحالة الإيمانية كانت- ومع مرور الأحقاب والتجارب البشرية- قد نضجت إلىٰ الحد الذىٰ جعل إدراك الغيب متوارثا لدرجة كافية تسمح باستقبال الرسول الخاتم بالدين الخاتم وبآيات تختلف عن الآيات التىٰ أيد الله بها الأنبياء من قبله أكثرعددا وأبلغ تأثيرا وتتميز بأبدية البقاء والإعجاز اللفظىٰ والعلمىٰ فإن كان الله تعالىٰ علىٰ سبيل المثال، قد أمد نبيه موسىٰ (عليه السلام) بتسع آيات من آيات كبرىٰ، دفعت بنىٰ إسرائيل دفعا للإيمان بالله وصارت بعد مئات السنين تتهم من المرجفين بأنها (أساطير الأولين)، فقد أمد الله سبحانه وتعالىٰ محمدا (صلىٰ الله عليه وسلم) بستة آلاف ومائتين وست وثلاثين آيه عقلية وغيبية، مستمرإعجازها وباقية إلىٰ يوم الدين تدفع معاصري الدعوة إلىٰ الإيمان حين النزول، وتؤكد إيمان المؤمنين بعد مئات السنين، بل وتدفع غير المؤمنين للإيمان إذا ما تدبروا آيات القرآن خاصة إن كانوا علىٰ درجة عقلية تسمح لهم بالتأمل

والتدبير وفي القرآن الكريم إذ يقول الله عز وجل "وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه، أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولىٰ [سورة طه – الآيات ١٣٣&١٣٤] ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله، لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزىٰ"*والفيلسوف الفرنسىٰ روجيه جارودي هو أحد الأمثلة، من الذين آمنوا بالإسلام من خلال دراسة القرآن وإن لم يكن المثل الوحيد، والقرآن هنا معجزة باقية لا يملك أولو الألباب إلا أن يؤمنوا به أو علىٰ أقل تقدير أن يقفوا عاجزين أمام آيات الله وإلا أن يتحيروا، فتؤيده الأبحاث العلمية التىٰ ماتنفك تثبت إعجازه يوما بعد يوم، ورسولنا الأكرم وديننا الخاتم ليس بحاجة إلىٰ التأكيد علىٰ صدق الرسالة بتطويع القرآن إلىٰ الجديد المكتشف من العلوم بل بالصبرعلىٰ العلم الإنسانىٰ حتىٰ يرتقىٰ لمنزلة المساعدة علىٰ فهم العلم الرباني، وليس بمعجزات مفتراه، تضر حتما ويستحيل عليها أن تنفع، وعلينا أيضا أن نتذكر كيف آمن سحرة فرعون لما لقفت عصا موسىٰ ما صنعوا، في حين كابر فرعون وهامان، وعلينا أن نذكر "سراقة بن جعشم " فبرغم ما ذكر في الأثر عما اعتبر معجزة الله فيه وفىٰ جواده، ولم يؤمن أيضا من شاهدوا إنشقاق القمر لم يؤمنوا، والله جلت حكمتة إنما أراد أن تثبت الرسالة في دينه الخاتم بالدليل والحجة البينة علىٰ لغات كل العصور، أما إلصاق الخوارق والمعجزات المفتراه، فتضر جوهر الرسالة بدلا من نفعها، ولقد إستخدم المستشرقون هذة المفتريات من كل المصادر المذكورة سابقا وأضافوا أكثر منها، بغية التشكيك وهدم الدين من الأساس، وأساس الدين هوالعقول والألباب وأيضا أخلاق رسول الله لهذا الدين، فدس أحاديث كاذبة علىٰ ما قالة عليه الصلاة والسلام هو جهد ظالم، توطئة للتنفير منه عليه الصلاة والسلام وخلق التناقض والبلبلة، والأمر ينسحب كذلك علىٰ تاريخه وسيرته، التىٰ لا يهنأ لهم بالا حتىٰ يعمدوا فيهما إلىٰ التشويه، حتىٰ (القرآن الكريم) وفىٰ بعض تفسيرات الأقدمين والمحدثين، أسباب النزول في بعض المواضع أيضا لم تسلم من تشويه، ولعل مفتريات قصة الغرانيق هىٰ أحد نتائج هذه التشويهات والتىٰ ضمنها – للأسف الشديد– بعض كتاب السير الأقدمين أمثال إبن سعد في طبقاته الكبرىٰ عن عبد الله بن حنطب الذي لم يدرك النبي ولم يعرض لها بن سعد بنقد، أما إبن إسحق فرفضها معللا أنها من وضع الزنادقة، وإبن كثير في "البداية والنهاية" ذكر أنه أضرب عن ذكرها (صفحا) لئلا يسمعها من لا يضعها في موضعها، ثم زاد أن (أصل القصة صحيح) – ثم وللأسف – ذكر حديثا عن البخارىٰ في أمرها مردفا، " انفرد به بخارىٰ دون مسلم" وذكرها الطبري في رواية عن

(محمد بن كعب القرظي) وهو سليل كعب القرظي من يهود بني قريظة فهو لم يكن قد ولد بعد والغريب أنه من يثرب والحادثة المفتراه كانت في مكة والأدهىٰ أنه من أصل يهودي !!أما كتاب السيرة من المحدثين فقل من فندها التفنيد الجازم، والبعض قد ذكرها إقرارا كأمر واقع، أو عجزوا عن دحضها وتفنيدها، ولا يسعنا الآن إلا أن نذكر القارئ بآيات بينات من القرآن الكريم من سورة الإسراء أرقام (٧٣، ٧٤، و٧٥) فيفند الكتاب الكريم كل تلك المزاعم موجها الكلمات للرسول وهذا نصها: "وإن كادوا ليفتنونك عن الذىٰ أوحينا إليك لتفترىٰ علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا* ولولآ أن ثبّتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا *إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا" والآيات الكريمة، لا تحتاج إلىٰ ضليع في اللغة ولا إلىٰ عقل أريب لتأويل الكلمات، ففي صدر الآية الأولىٰ (وإن كادوا) التي تفيد عدم الحدوث، كذلك في صدر الآية الثانية تأكيد آخر باستحالة ذلك لأن الله عز وجل نفىٰ الحدوث بالتثبيت من الله في قوله تعالىٰ (لولا أن ثبتناك) ثم تعقبها (لقد كدت) وتفيد بدورها عدم الحدوث ثم تأتىٰ كلمة (تركن إليهم) وهىٰ تدل حتىٰ علىٰ عدم إحتمال الحدوث، ثم تأتىٰ (شيئا قليلا) كىٰ تظهر قلة الإرتكان، ثم تأتىٰ الآية الأخيرة لإظهار رد الفعل الإلهىٰ حتىٰ تجاه الأنبياء في حالات الإفتراء علىٰ الله وفىٰ نبرة حاسمة، ولقد إنتشر اهتمام الأولون بعلوم المنطق والفلسفة، ولئن كان الأمر كذلك فأىٰ مبتدئ لهذه العلوم قد درس أن الإحتمال حالة تقع بين اليقين والإستحالة، وفىٰ هذا الموضع تأتىٰ الآية (٧٤) من النص الشريف لتبعد الإحتمال أميالا إلىٰ الإستحالة أما فيما يختص بالحدث نفسه وسورة النجم المعنية بالحدث فلقد قرأ رسول الله من بداية السورة (والنجم إذا هوىٰ *ما ضل صاحبكم وما غوىٰ *وما ينطق عن الهوىٰ) فكيف يلقي الشيطان في روعه ما ينطقه عن هواه فيستجيب، اليس في ذلك تناقض، ولقد كان الحدث مختلق برمته وماكان ينبغىٰ أن تصمد هذة الأكذوبة لوأحسن الرواة الرواية كما سنحاول قدراستطاعتنا أن نفعل في هذا البحث وفىٰ موضعه بإذن الله وبآيات القرآن الكريم ولقد إنكوىٰ المؤمنون في العصر الوسيط والحديث من المستشرقين وهم يسلقون رسول الله بألسنتهم الحداد منذ القرن السابع الميلادىٰ في بدء الدعوة وحتىٰ يومنا هذا وربما كان آخرهم البابا الحالىٰ للفاتيكان بنديكت السادس عشر، وقناة فضائية تبشيرية لا تهنأ حياة القس المبشر فيها إلا بإصطياد الغريب من الكتابات في كتب الأقدمين إنتفاءا للأمانة، لكن الله يطمئن رسوله بقوله سبحانه (إنا كفيناك المستهزئين).

وشأن مؤمنوا هذا العصر الذىٰ نعيشه، هو شأن المؤمنون الأولون الذين عانوا من مشركىٰ عصر الرسالة، وشأن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم شأن جميع الأنبياء والرسل في المعاناة من المكذبين، يستندون إلىٰ الآيات (٥٢&٥٣) من سورة الحج التي تنص علىٰ (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنىٰ القىٰ الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم * ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد) والآيات أيضا شديدة الوضوح فالله ينسخ ما يلقي الشيطان ثم يحكم آياته، فالفتنة ملازمة للإيمان فينكشف بها الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم.

والكذب في التاريخ لا معنىٰ للإنشغال به والإشتغال فيه، ذلك لأن وضع الأكاذيب هو عمل لا يعجز عنه أدنىٰ من خلق الله، ولئن إنشغلنا بالرد علىٰ تلك الأكاذيب ضاعت الحقيقة بين مؤيد ومعارض، ودرء الكذب لا يأتىٰ ونحن نكتب سيرة رسول الله بالدفاع والتكذيب بل بالنبذ والتجاهل، يقول الله تعالىٰ في محكم آياته من سورة الأنعام (آيه ١١٢) "ولتصغىٰ إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون"

سبب آخر أكثر وضوحا وإيلاما من انتفاء الأمانة ويعرف بالغرض والهوىٰ وهو ناتج من الإستهانة، والإستهانة في حد ذاتها تجعل الغرض والهوىٰ لديهم أكثر إيلاما خاصة أننا - نحن أنفسنا - المسئولون عن هذه الإستهانة بنا وبالإسلام، فبعيد إنتهاء الحروب الصليبية إكتشفت أوروبا الصليبية مزايا الإسلام والمسلمين، فبعد مخالطتهم تعلموا منهم أن لا وجود في الإسلام - أىٰ في أتباع دين من هزمهم - رجالا يدعون أىٰ حقوق إلهية بدعوىٰ الدين وفطنوا إلىٰ إستغلال رهبانهم لهم بدعوىٰ ضريبة العشور للكنيسة وظلت هذه المقارنات ماثلة في أذهانهم حتىٰ ثاروا علىٰ الكنيسة إلا أنهم لم يعتنقوا الإسلام عنادا - ربما لأنفسهم - ووجدوا المسلمين يعتنون بالتطهر الجسدىٰ، والروحىٰ ووجدوا بلادهم تعانىٰ من التخلف العلمي والأوبئة والطاعون والفساد بسبب القذارة الشخصية وقذارة البيئة، وكذلك قذارة العقول والتعاملات، فاقتدوا بالمسلمين في النظافة دون أن يقتدوا بهم في دينهم أيضا تكبرا وحقدا، ففي الأندلس كان أعضاء محاكم التفتيش يشتمون رائحة الناس فمن وجد نظيفا معطرا فهو مسلم يخفىٰ إسلامه لإقتدائه برسول الله - وقد كان الاغتسال غريبا عليهم فحتىٰ ملوكهم كانوا لا يعرفون الغسل إلا مرة في السنة في يوم عيد يسمونه يوم الغسل - فيقومون بإلقاء القبض عليه إما لقتله أو لطرده من البلاد إن رفض التعميد (راجع

كتاب تاريخ الحضارة لول ديورانت)، وكذلك صار الإسلام مثلهم الأعلىٰ، ومن ثم يقتدون به، كأسلوب للحياة والرقي، لكن دون إعتناقهم للدين وتعلموا أن الإسلام يحث علىٰ العمل وإتقانه، فاقتدوا به، دون إقتداءهم بالرسول الذىٰ حث المسلمين علىٰ إتقان العمل، ناكرين فضله حقدا، وبمرور القرون تفوقوا علىٰ المسلمين واحتلوا بلاد أصحاب هذا الدين فعطلوا شريعتهم بدعوىٰ التحضر وأشعروهم بالدونية، فظهر من المسلمين ضعاف النفوس من أمثال سلمان رشدىٰ الذىٰ آثر أن يبيع دينه للإستمتاع بعطاياهم، واستشرىٰ الفساد بين المسلمين وعجزوا عجزا تاما حتىٰ الآن عن ركب الحضارة، أما هم فقد نفذت أغراضهم وأهواءهم وليس سلمان رشدىٰ والذىٰ منحته ملكة بريطانيا عام ٢٠٠٧م لقب الفارس هو الآفة الوحيدة، بل تطورت الأحداث في بلد واحد وفىٰ عام واحد، إلىٰ الحد الذىٰ حدا بإبنة أحد أبطال وشهداء الجيش المصرىٰ في غزة عام ١٩٥٦ إلىٰ الذهاب لإسرائيل وسط حملة إعلامية صهيونية والإعتذار للإسرائيليين عن بطولة والدها دفاعا عن وطنه- وليس هذا فحسب- بل والارتداد عن دينها لجنىٰ ثمار البلاهة في موطنها الجديد الولايات المتحدة الأمريكية وآخر يعمل في وكالة الطاقة الذرية في مصريعمد إلىٰ التطوع للتجسس لصالح إسرائيل الغريب أن إسمه محمدا، بدعوىٰ تمكينه من الدراسات العليا والطامة الكبرىٰ في طالب أزهرىٰ شاذ جنسيا يقع في غرام ضابط من الموساد، فيتجسس علىٰ وطنه بدعوىٰ العشق الشاذ، هذه الأحداث حدثت في عام٢٠٠٧م أليست نواقيس أخطارلأغراض هؤلاء وأهوائهم إنما نجمت عن إنعدام القدوة والعقيدة بسبب تقاعسنا عن حصر وتحديث مصادرنا البحثية وشجعتهم أجهزة مخابرات أعدائهم لنفس السبب وهو الغرض والهوىٰ.

ولقد هالني أن استند الكثير من الكتاب في بدايات القرن العشرين، إلىٰ كتاب (اليهود في بلاد العرب) والغريب أن كاتب الكتاب معروفة أغراضه وأهواءه من اسمه ألا وهو (إسرائيل ولفنسون) ومهما كانت الأعذار بسبق الكتاب لقيام دولة إسرائيل إلا أن الفطنة تحتم عدم إعتماد روايات هؤلاء وقد عانىٰ الرسول منهم ولا زلنا نعانىٰ وسنظل إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها وليس ولفنسون وحده صاحب الغرض والهوىٰ بل كل من بحث ولم يكن أمينا.

سبب أوضح من كل ما سبق وربما كان جزءا منه مذكور في مقدمة الكاتب وهو منهجىٰ في كتابة التاريخ وهو يدخل ضمن العناصر المذكورة سلفا في منهاج التاريخ المقارن

فليس من المنطق بأىٰ حال من الأحوال أن يكتب كاتبا من بيئة وثقافة ما ، سواء سمىٰ نفسه مستشرقا أو غيره، عن نبىٰ وموطنه يبعد عن الكاتب آلاف الأميال وزمنه يتباعد عنه عشرات القرون دونما بذل أىٰ جهد في دراسة مقارنات البيئة والزمن وعوامل التاريخ والجغرافية او علم أجناس (إنثروبولوجيا) القوم الذين أتىٰ منهم من يبحث أو يكتب عنه أو مقارنة بين هذا النبي بالأنبياء قبله ناهيكم الحكم عليه وإنما فقط إستنادا علىٰ معلومات سطحية وكاذبة، فالكتابة هنا تصبح مسخا، وإشفاء لغليل أو تنفيس عن أحقاد وليس من المنتظر أن يقوم المستشرقون في أبحاثهم عن الإسلام أو عن رسول الله بدقة البحث حتىٰ لو أرادوا للأسباب التالية:

- أولا لجهلهم باللغة العربية وأسرارها وتذوق مكنون الألفاظ وإن أحاطوا بعلومها وفىٰ علم المنطق يعتبر هذا من العوامل الموضوعية لخطأ التفكير، فدائرة المعارف البريطانية في ترجمة حياة رسول الله أن تسميته (بالأمين) مأخوذ من اسم أمه آمنة فدائرة المعارف البريطانية أثبتت بما لا يدع مجالا للشك ودلت علىٰ الجهل وعدم الموضوعية فإسم آمنه يدل علىٰ الأمان، أما الأمين فيدل علىٰ الأمانة، والمجتمع العربي لا يسمىٰ الرجل أو يكنيه أويلقبه باسم أمه، كما أنهم قد دلوا علىٰ عدم الألمام بالفرق بين الإسم والكنية واللقب وماذا أفتت في شأن (الصادق)، وغيرذلك فجملة (سبحان الله)، لا يقدر أحد من المسلمين إعطاء ترجمة لها لا بالعربية ولا بأىٰ لغة أخرىٰ وإنما نشعر بمكنونها بالإحساس الكامن فيها وفينا ولعل أشهر الحوادث التىٰ تدل علىٰ عجز الغرب عامة عن فهم الكلمات والتعبيرات في البيئة العربية تظهر في حادث سقوط الطائرة المصرية عام ٢٠٠١ بالمحيط الأطلنطي، حيث حوىٰ الصندوق الأسود للطائرة كلمة " توكلت علىٰ الله" والتىٰ إعتبرها المحللون من جهابذة اللغة العربية والمخابراتية عندهم ،دليل علىٰ رغبة قائد الطائرة علىٰ القيام بعمل إستشهادىٰ في حين أن المسلم يتفوه بهذه الجملة في الغالب قبل القيام بأىٰ عمل وبالتالىٰ تدل هذه الواقعة إما علىٰ جهلهم – برغم إدعاءاتهم العلمية – بطبيعة الشخصية العربية والإسلامية من معاصريهم بوجه عام، وهواحتمال بعيد، أو يدل بوضوح علىٰ إنتفاء الأمانة وكذلك علىٰ الغرض والهوىٰ توطئة لإتهام المسلمين والإسلام

- ثم يقعون في الأخطاء في التفكير مرة أخرىٰ ولكن هذه المرة للعوامل الذاتية والتىٰ تشمل العاطفة والإنفعال بتأثرهم بالنصرانية الكاثوليكية (التىٰ وضعها بولس"شاؤول"وهو ليس من حواريي المسيح) والبروتوستانتية (والتىٰ وضعها الراهب الألمانىٰ اليهودىٰ الأصل مارتن لوثر كنج) اللائىٰ ينظرن الىٰ الأديان المخالفة لهم نظرة شك وريبة وبخاصة الإسلام لما كان من جهاد المسلمين من القرن السابع الميلادىٰ حتىٰ إنتهاء الحروب الصليبية وإنتصار الإسلام وقتها لايزال في منظورهم ثأرا، لم تبرأ منه كنائس الغرب بعد.
- إخضاعهم لمعتقداتهم للنقد الهدام والنضال ضد تسلط كنائسهم، ويندرج هذا أيضا تحت مسمىٰ الأخطاء الذاتية أيضا، فالتعصب والتطرف الفكرىٰ جعلاهم يدخلون في عملية البحث في الأديان- والإسلام علىٰ وجه الخصوص - من هذا المنطلق المتعنت والحاقد وإن كان العلم لا يعرف التعنت، فالحقد لن يعرف الحقيقة.

كتب الأحاديث كمصادر تاريخيه موثوق بها:

ينطبق هذا علىٰ أقوال وأفعال رسول الله وليس علىٰ الأحاديث الموضوعة فهىٰ أداة السيرالمغلوطة، يروىٰ عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال "لا تكتبوا شيئا عنىٰ غير القرآن، ومن كتب عنىٰ شيئا غير القرآن فليمحه " ولقد كانت الأحاديث متداولة علىٰ ألسنة المؤمنين منذ عهد رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، ثم كثر الرواة من بعد وفاته، وأغلبهم كانوا شديدىٰ الإلتصاق به صلىٰ الله عليه وسلم، وكان رسول الله قد اهتم بتعليم المسلمين القراءة والكتابة في مسجد رسول الله ولم تكن رواية الأحاديث عن رسول الله هي الصفة الغالبة علىٰ الصحابة المقربين من رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم - كما يقول لنا د.علىٰ جمعة مفتي جمهورية مصر العربية بجريدة الأهرام يوم ١٠/ ١١/ ٢٠٠٨ ميلادية - بل التزم كبار الصحابة المقربين من رسول الله الإقلال من رواية الأحاديث، ومنهم أبوبكر الصديق والزبير بن العوام وأبو عبيدة بن الجراح والعباس بن عبد المطلب، وكان بعضهم يكاد لا يروي شيئا مثل سعيد بن زيد بن عمرو بن النفيل أحد العشرة المبشرين بالجنة لخشيتهم من وقوع الخطأ في الرواية فيتبوأوا مقعدهم من النار وقد كان لرسول الله ٧٥٥٤ صحابيا ويذكر أن الرواة منهم الذين بلغتنا مروياتهم ألف وثمانمائة منهم علىٰ وجه التقريب، سبعة منهم قد رووا أكثر من ألف حديث إلا أن أشهر الرواة عنه واكثرهم رواية كان عبد الرحمن بن صخر الدوسي اليماني (أبو هريرة) المتوفي عام ٥٩ هجريا، وكان يجيد

فنّ الإصغاء وكانت ذاكرته تجيد الحفظ والاختزان وكانت له جرأة في السؤال وحباً في العلم، إلا أنه كان قد قدم علىٰ رسول الله سنة سبع للهجرة وهو في خيبر فأسلم، وكانت تلك السنوات الثلاث بالنسبة له عمرا واحدا، سنوات ممتلئة بالصالح من القول، وكان متفرغا للإصغاء، فلا أرض تشغله ولا تجارة يمارسها - ومن أجل هذا- راح يحدث ويحدث لا يصده عن الحديث أحد، حتىٰ قال له عمر بن الخطاب رضىٰ الله عنه أثناء خلافته "لتتركن الحديث عن رسول الله، أو لألحقنك بأرض دوس"، فلما جاء عصر الوضاعين، الذين تخصصوا في الكذب علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، اتخذوا أبا هريرة غرضا، مستغلين أسوأ استغلال سمعته العريضة في الرواية وكلما لفقوا حديثا يقولون أبو هريرة،

- وأبو هريرة روىٰ له الإمام أحمد بن حنبل ٣٩٥٧ حديثا في مسنده (إذ نجحوا في دس حوالي ٩٢٪) ولكن له في الصحيحين خمسمائة وسبعة عشر (٥١٧) حديثا فقط ويتفقان علىٰ ثلاثمائة وستة وعشرين حديثا فقط (٣٢٦)أي مانسبته ٨.٢٥٪ مما روي عنه.

- أما الصحابي الجليل عبد الله بن عمر بن الخطاب المتوفي عام ٧٣ هجريا فروي عنه الفين وستمائة وثلاثين حديثا منهم مائتين واثنين وسبعين (٢٧٢) أخرجهما الشيخان بخاري ومسلم واتفقا علىٰ مائة وستين حديثا (أي بما نسبته ١٠.٣٥٪)، فحتىٰ هو رضوان الله عليه قد دسوا له قرابة (٩٠٪).

- والصحابي الجليل أنس بن مالك بن نضر بن ضمضم الأنصاري المتوفي عام ٩٣ هجريا وقد أهدته أمه إلىٰ رسول الله ليقوم علىٰ خدمته فبقي معه طيلة السنوات العشر، فروي عنه ألفين ومائتين وستة وثمانين حديثا، أخرج له الشيخان ثلاثمائة وثمانية عشر (٣١٨) حديثا واتفقا علىٰ مائة وثمانية وستين (١٦٨) حديثا، أي مانسبته (٧.٣٦٪)، وبذا تبلغ نسبة المدسوس أكثر من (٩٢٪).

- والصحابي سعد بن مالك بن سنان الأنصاري (أبو سعيد الخدري) والمتوفي عام ٧٤ هجريا فبلغ ماروي عنه ألفا ومائة وسبعين حديثا (١١٧٠) وأخرج له الشيخان مائة وأحد عشر حديثا، واتفقا علىٰ ثلاثة وأربعين منهم (أي بنسبة ٣.٧٪) وبذا تبلغ نسبة المدسوس أكثر من (٩٦.٣٪).

أراد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضىٰ الله عنه أثناء خلافته أن يتدارك الحال ويكتب السنن، فاستفتىٰ أصحاب النبي، وأشار عليه الصحابة أن يكتبها، وطفق يستخير الله عز وجل شهرا في هذا الأمر، ثم أصبح عمر يوما وقد عزم ألا يفعل قائلا"إني كنت أريد أن أكتب السنن وإنىٰ والله لا أشوب كتاب الله بشيئ أبدا " ،وليته فعلها وقتئذ، وظلت الأحاديث بعد ذلك متداولة علىٰ الألسن إلا أنها توالدت وكثرت حينما بلغ إختلاف المسلمين حدا دعا الدعاة فيهم إلىٰ إختلاق الآلاف المؤلفة من الأحاديث والروايات ولما قتل سيدنا عثمان رضىٰ الله عنه كثرت الأحاديث الموضوعة إلىٰ حد أنكره سيدنا علىٰ كرم الله وجهه حينما ولىٰ الخلافة، وقال كلمته المعرفة أن الحديث الصحيح إلىٰ المدسوس كالشعرة البيضاء في جلد ثورهار، ولما إستتب الأمر للأمويين، عمد المحدثون المتصلون ببنىٰ أمية إلىٰ أن يضعفوا ما روىٰ عن علىٰ رضىٰ الله عنه، في حين- وكرد فعل- زاد أنصار أهل البيت في الأحاديث ينسبون بعضها إلىٰ أم المؤمنين عائشة رضىٰ الله عنها لتشويهها والبعض الآخر للإمام علىٰ بن أبىٰ طالب رضىٰ الله عنه، هذا بالإضافة إلىٰ ما شارك به الزنادقة والخوارج وبعد ذلك استتب الامرللعباسيين وقد اندست يد العبث أكثر وأكثرفىٰ كتابة الأحاديث، والدس لم يقف عند الحديث بل امتد إلىٰ السيرة بل وتفاسيرالقرآن ممن تظاهروا بالإسلام من اليهود أو النصارىٰ والصابئين والزرادشت والمانويين ناهيكم عن الدس علىٰ الخلفاء الراشدين وغيرهم أخبارا لا تتفق مع سيرهم وأخلاقهم في هجوم ضار ومخطط، حتىٰ صدق كثير من المسلمين الكثير من هذه الأكاذيب وبنوا عليها تفسيراتهم ومواقفهم، كل هذا علما بأن بين أيدينا كتاب الله عز وجل الذىٰ حذرنا من أهل الكتاب ومن تناولهم أمور ديننا ففىٰ سورة المائدة الآية رقم (٦٨) يقول الله تعالىٰ في محكم آياته "قل ياأهل الكتاب لستم علىٰ شيئ حتىٰ تقيموا التوراة والإنجيل وماأنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس علىٰ القوم الكافرين "

وكان الإمام مالك بن أنس أحد الأئمة الخمسة (الشافعىٰ - مالك - بن حنبل - وسفيان الثورىٰ- أبو حنيفة) قد قام بالجهد الأول في كتابة الحديث وتنقيته مما علق به فوضع كتاب (الموطأ) والذىٰ جمع فيه بعد التدقيق حوالىٰ أربعة آلاف حديث من قرابة الستمائة ألف حديث منتشر بين عامة الناس آن ذاك وله مقولة تظهر الإحترام والتوقير ويدل علىٰ معرفته بجلال الله وعظمة الرسول وهىٰ"العلم نور يجعله الله حيث يشاء وليس بكثرة الرواة "، ورغم ذلك فقد حاول أبو جعفر المنصور منعه من رواية حديث بعينه في طلاق

المكره، ثم دس عليه من يسأله، فروىٰ علىٰ الملأ " ليس علىٰ المستكره طلاق" فضربه بالسياط، لكن مالك لم يترك رواية ذلك الحديث مرات ومرات ولما استخلف الرشيد أعجب به، فأعطاه عطايا وقال له " ينبغىٰ أن تخرج معنا (يقصد أن يخرج معه من المدينة المنورة) فإنىٰ عزمت أن أحمل الناس علىٰ الموطأ كما حمل عثمان بن عفان رضىٰ الله عنه الناس علىٰ القرآن" فأبىٰ مالك أن يخرج من المدينة، وليته فعل.

إن ما سبق كله لا يعنىٰ إنكارا للحديث فلا سيرة بدون حديث صاحب السيرة وسنته فأنا أستشهد به في هذا الكتاب ولكننىٰ أتمنىٰ من الله عز وجل أن يوفق ولاه أمورنا من زعماء المسلمين والمراكز البحثية الإسلامية في توحيد الجهود لتنقيته مما علق به بقصد أو دون قصد، فأعداء الأمة متربصون.

القرآن الكريم كأفضل مصدر تاريخى:

لا شك أن القرآن الكريم هو المرجع الأصدق للسيرة النبوية الشريفة فالقرآن الكريم قد لازم صدوره حياة رسول الله النبوية في التنزيل عقب الأحداث المتوالية وقد كان في أغلبه ينزل عليه في أول الأمر بالدعوة إلىٰ الله وبالأحكام المطلقة والشاملة إلا أن الأمر

قد إحتاج من آن لآخر الرد علىٰ مفتريات المشركين وتساؤلات المؤمنين عن طريق جبريل عليه السلام ولقد رافقت الآيات كل الأحداث التىٰ أتت أثناء حياة الرسول الكريم سواء في الفترة المكية أو في الفترة المدنية بيثرب وعلىٰ الباحث أن يتخذها منارا أصليا

لا لبس فيه - لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - وهو يهتدىٰ به في بحثه ويدقق علىٰ ضوء الآيات ما ورد في كتب السنة وكتب الحديث من الروايات، فكل ما يتعلق بسيرة رسول الله يجب أن يعرض علىٰ القرآن، فما وافقه يكون حقا، وما لم يوافقه فليس بحق، كما أن إعمال العقل ضروري في هذا الشأن وبالتالىٰ تفاسير القرآن العديدة والتىٰ ينبغىٰ الإستعانة بها والإنتقاء منها بحذر، هناك أيضا مراجع كانت قد تحدثت عن الناسخ من القرآن والمنسوخ منه (كالناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم) برواية أبىٰ بكر محمد

بن أحمد الأدفوي النحوي و (الناسخ والمنسوخ) لإبن سلامة، وكذلك (أسباب النزول) للواحدىٰ وأيضا كتاب (لباب النقول في أسباب النزول) لجلال الدين السيوطىٰ وبعضهم قد كتب بدءا من القرن السابع الهجرىٰ والآخر حتىٰ القرن الثانىٰ عشر منه والكتاب كلهم غير متهمون بالتقصير، إلا أنهم جميعا بشر مثلنا وتحتمل أفكارهم وانتقاآتهم

المناقشة والتحليل والرفض أوالإستحسان وهى أبحاث قد نحت النحو السابق الذكر من كتب السيرة التاريخية للإسلام (فتره حياة الرسول صلى الله عليه وسلم) من ذكر كل الروايات ما كان منها صحيحا وما كان منها مخطئا، وكذلك تاريخ المسلمين (ما بعد حياة الرسول بدءا من أبى بكر الصديق رضى الله عنه حتى اليوم) وبنفس الكيفية وليس على الباحث إلا التدقيق والإلتزام بالحقائق، ونعلم جميعا أنه حتى التاريخ الحديث التى تتم أحداثه أمام أعيننا، يزور أيما تزوير- للأهواء القومية تاره وللأهواء الشخصية تارات أخرى - وأمام أعيننا أيضا ورغم أنوفنا والملحوظ من الكتب القديمة أنها لا تسرد الرواية الواحدة لبلوغ الغاية المرجوة كما في الأبحاث الحديثة بل يظل القارئ يبحث في فهارسها حتى يصل لرؤية ما، وفى الغالب لا يصل إلى شيء إلا إن كان باحثا متفرغا للأمر وبذلك ينتفى الغرض من الكتابة من الأصل، حيث أن إعلام المسلمين من العامة عن تاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم هو الأصل والغرض ومنتهى المرام خاصة بعد أن إنتشر أنصاف المتعلمين من خطباء المساجد والذين يعملون بدأب شديد يحسدون عليه في لصق الخرافات والبلاهات- بحسن نية على الأرجح - بسيرة رسول الله الأكرم فتجزع نفوس النابهين من شبان المسلمين وهم جلوس بالمساجد من فداحة الخرافات والترهات فيلجئون - كدأب وموضة هذه الأيام إلى الشبكات الألكترونيه - (الأنترنت) ينهلون أخطار التشكيك في الدين من أوسع الأبواب، ثم نأتى بعدها ونقرأعن شبان نابهين أو تافهين، وقد غادرونا غير آسفين علينا، إما للضالين أو للمغضوب عليهم أو حتى للكفر بالله والشرك به، والفرية الأخيرة لعبادة لشيطان التى إنتشرت للأسف الشديد في بعض أرجاء بلادنا العربية، ولا يصح لنا ساعتها إلا لوم أنفسنا على تقصيرنا لعلى أطمع في بحثى هذا أن أكتب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أولئك الذين نراهم اليوم أشد الناس عداوة لرسول الله، فلئن أعطوا لأنفسهم فرصة واحدة لمعرفة رسول الله وسواء كانت نظرتهم من منظار حيادى أو حتى من منظار التحدى - لا فرق - المهم لى أن تصل اليهم سيرة حياة رسول الله كما هي بلا زيادة أو نقصان مع المحافظة على أصالة الوسطية، نعالج بها داء الغلو ونحارب تيار الاستهداف للعقيدة ومعتقديها، مشروحا بلغة العصر ومراعيا للخصوصية بلا ذوبان*، وحسبي إن تم هذا سيكون هؤلاء الغرباء عنه - صلى الله عليه وسلم - هم أنصاره وأهله، تماما كما نصره أول أمره الغرباء عن بيئتة التى نشأ فيها (و أعنى

بهم علىٰ سبيل المثال لا الحصر: عداس النصرانىٰ، بحيرة الراهب، النجاشىٰ ملك الحبشه، جبر النصرانىٰ، سلمان الفارسىٰ، وعبد الله بن سلام).

لقد اجتمعت كل الصفات البشرية وقبسات النبوة في شخص رجل واحد لقاءا وثيقا باهرا، وقد جعل الله تعالىٰ رسالته فيه، لأنه قد إصطفىٰ من البشر رجلا فيه أقصىٰ ما في الإنسانية مما يمكن للإنسانية أن تطمع فيه وفىٰ إدراكه من البشر، رفعة وصدقا كمالا وسموا فكان رسول الله نبيلا في فدائه، ساميا في أدائة سموا لا يقدر عليه إلا أولو العزم من الرسل، شاهقـًا في أخلاقه، عليّا في صبره وعزمه، ولسنا ندرىٰ أستطال رسول الله بأخلاقه إلىٰ أعنان السماوات ؟، أم أن السماء هىٰ التىٰ إقتربت منه إحتراما تتوج رأسه بالأخلاق ؟، فحينما أصبح له صحابة يؤمنون برسالته وبه سمعوه يزجرهم عن كل مبالغة في تعظيمه، غضب لقيامهم له حين يقدم عليهم وهم جلوس، فمن من العالمين مثله، وغضب حينما إدعوا أن ظاهرة كسوف الشمس - يوم وفاة إبنه (إبراهيم)- بأنها كسفت حزنا علىٰ إبراهيم، فيسارع رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وبين آهات الأب المكلوم وبين مدامعه الرقراقة، يسارع فيفند الإدعاء ويدحضه قبل أن يتحول الحدث العارض، إلىٰ أسطورة وتأليها من منّا يقدر أن يفهم ويعىٰ ؟ لقد كان رسول الله أمينا علىٰ إيمان الناس وعلىٰ عقولهم وتفكيرهم، وهونفس الموقف الذىٰ وقفه رسول الله عيسىٰ بن مريم عليه السلام حين أيقظ ميت في بايين فتسارع محبوة والمؤمنون به إلىٰ إدعاء ألوهية عيسىٰ عليه السلام، فيقف لهم محذرا من هذا القول، وعلىٰ الرغم من وجود هذا الحدث بنصه في الأناجيل، ألهوه وحتىٰ يومنا هذا، ويسأله الله فيقول سبحانك لو كنت قلته فقد علمته فهي الأمانة وأخلاق الأنبياء، فقد غلا النصارىٰ واليهود في دينهم ويعاتبهم الله في القرآن الكريم بسورة المائدة آيه (٧٧) قائلا "قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلّوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل " فوجب علينا الحذر من أن نقع فيما وقع فيه أهل الكتاب، وعلينا الحفاظ عليه نقيا خالصا كىٰ يؤمن به أولو الألباب ولقد مرت علىٰ الدعوة لدين الحق منذ اليوم، فتن لا عد لها.

الوسطية قد نادىٰ بها مؤخرا عقلاء الأمة وعلىٰ رأسهم الآن العلامة السوداني الداعية الدكتور عصام أحمد البشير ن والسطر المكتوب هو نقل لما يدعو إليه.

لها ولا حصر، وقد بدأ ذلك بنزول الوحىٰ علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ثم الانقطاع عنه، إلا أن صبر رسول الله قد حول الفتنة إلىٰ ثبات للعقيدة، وكل الأحداث بعدها إنما كانت فتنة فتتحول بصبر رسول الله وبصبر ويقين المؤمنين إلىٰ ثبات أكبر للعقيدة، مرورا بأمر الله للرسول أن ينذر عشيرته الأقربين الذين هاجموه، ووفاة عمه وزوجه خديجة، وما حدث من أهل الطائف والإسراء والمعراج، والتي هي معجزة قد خص الله بها الرسول ولم تحدث أمام أحد كي يراها ويشهد بها وتدل علىٰ قدرة الله شأنها كشأن العديد من المعجزات الإلهية التي يخصها الله لعباده، ولا يشترط وجود آخرين ليشهدوا بها كأمر الله في ميلاد يحيىٰ عليه السلام أوكخلق آدم والمسيح عليهما السلام وكإفلات المسيح من مؤامرات اليهود العديدة ومحاولة صلبه كانت معجزة الإسراءمعجزة خاصة فارقة لرسول الله، وكانت (فتنة للناس) بنص القرآن فمعجزة الإسراء ليست في حدوث الحدث فحسب، فالحدث في حده لم يره من البشرإلا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ولكن المعجزة في التصديق واليقين بحدوث ما رواه رسول الله برغم عدم معاينتها بالحواس المملوكة للبشر فهي معجزة إيمان المسلمين بها النابعة من ثقتهم في صدق رسول الله فمعجزته في أخلاقه، وكانت أخلاقه من معجزات الله فيه وكانت أخلاقه هي خوارقه وبها كذلك يرتفع الإنسان بضميره الإيمانىٰ فوق الحواس مبتعدا عن عبادة الطبيعة إلىٰ عبادة ما فوق الطبيعة، فقد كان الإنسان أقل من الطبيعة حينما لم يصدق إلا ما يراه ويلمسه ويسمعه منها كدليل حسي وأصبح فوق الطبيعة حينما آمن دون الإستدلال بالمحسوس، مبتعدا إلىٰ الأبد عن عصر كانت الظواهر الطبيعية تمثل في نفسه في بادئ الأمر مكنون الإله، ولما تطور صار المحسوس يدله علىٰ الإله، فقفزة الإيمان تلك مهدت للإنسان في نضجه الحضاري ألا تعنيه الطبيعة إلا فيما هو واجب عليه كإنسان فصاريتعامل مع الطبيعة بإيجابية سواء في غضبها أورضاها فملكها وسير قوتها واستمرت الفتن كما سنرىٰ حين يأتىٰ ذكرها إلا أن رسول الله والمؤمنين الصادقين قد حولوا الفتن إلىٰ ثبات للعقيدة، ولا تزال الفتن تحيط بنا من كل جانب، فقد ضاعت منا الخطىٰ، في جوانب الحياة وليس أمامنا إلا الثبات والاقتداء بقدوة العالمين.

آمل أن تصبح محاولتىٰ منهاجا - تستكمل المكتبة العربية به - ما أراه جدير بها في هذا الشأن الغالي والحيوي وجدير بأن يتبع، حيث أحرص علىٰ كتابة السيرة العطرة بمنهاج التاريخ المقارن كما ذكرت في مقدمة الكاتب، ليس هذا فحسب بل وستصبح الآيات

القرآنية - وتوقيت النزول للآيات - وسنة الرسول والمنتقىٰ من الأحاديث وكتب التفسيروالفقه هىٰ النهج التسلسلىٰ في السرد وما قد يتوافق معها في التوقيت والموضوع من السيرة والأحاديث الشريفة ،حتىٰ يشعر القارئ، وكأنه يعاصر رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ويحدث كل شيئ أمامه، ويعلم الله أنىٰ لا أريد بمحاولتىٰ تلك إلا وجه الله فلقد قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أنه "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية أو ولد صالح يدعو له أو علم ينتفع به"، و الله الموفق والمعين.

مدحت رضا ماهر

الفصل الأول

نشأة الأديان السماوية السامية

مقدمة

حينما أرسل الله تعالىٰ أول البشر وأول المرسلين، آدم ومعة حواء إلىٰ الأرض، كان عليه السلام يحمل معه التوحيد في وجدانه ، علمه الله الأسماء كلها، ومعنىٰ هذا أنه عليه السلام كان يعلم الدين وموجبات الإيمان.

لله سبحانه وتعالىٰ شرعة أساسها الإختبار فلا يحسبن أحداً أن يترك أن يقول قد آمن دون فتنة، فخلق الله الجنة وبها شجرة محرمة فتنة لآدم، وهو سبحانه يعلم بترصد إبليس لآدم وبذا تكتمل عوامل الفتنة، ووقع آدم عليه السلام في الخطيئة، والخطيئه قد بدأت بمخالفة آدم لأمر الله بلا تفعل استجابته لإغواء إبليس بأكله وزوجه من الشجرة مما أدىٰ إلىٰ الكبد الذي يعيشه نسل آدم لليوم.

بعدها قام أول النسل قابيل بارتكاب أول الأخطاء الدنيوية حينما قتل أخاه هابيل، بهذا القتل زادت نسبة الخطائين علىٰ نسبة التقاة بين نسل رسول الله آدم عليه السلام، ونسي البشر علىٰ مر العصور ملكات الفضيلة التي هي فطرة الإنسان، فأرسل الله لهذا الإنسان الجهول سلسلة من الأنبياء لتذكيره، ولكن الإنسان علىٰ مر العصور قد أضاف وأنقص، نسي وتناسىٰ، حذف ليحرف، خطط ليخلط، مُحتكِما لهواه ومُحكِّما لأطماعه فأرسل الله المزيد والمزيد من الرسل والرسالات يدعون للإسلام والتسليم لأوامر الله بافعل ولا تفعل، حتىٰ جاء موعد آخر المرسلين فكان هو القدوة، أما عن الرسالة فقد أنبأنا الله أنها لن تتبدل، فهو حافظها وحده سبحانه، وضمن هذا الحفظ فقال لنا عز من قائل:

(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون).

يقول لنا الله جل وعلا في الآية ٢١٣ من سورة البقرة

(كان الناس أمة واحدة، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق فيحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم، فهدىٰ الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم).

والدين الذي أنزل الله منذ بدء الخليقة هو الإسلام ولن يقبل الله غيره سبحانه، والإسلام هو التسليم لله وليس الإسلام رسالة خاصة أتىٰ به لأتباع محمد عليه الصلاة

والسلام فرب العالمين ليس رب المسلمين أو العرب بل هو رب العباد جميعا، فالرسل والأنبياء جميعهم مسلمون وكلهم جاءوا يدعون إلىٰ الإسلام وعبادة الله وحده لا شريك له، قال الله تعالىٰ في كتابه العزيز، إلا أن الدعوة التي جاء بها محمد هي الخاتمة للإسلام (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل نه وهو في الآخرة من الخاسرين)

ولقد جاء ذكر الإسلام علىٰ لسان كل أنبياء ورسل الله.

- فنوح عليه السلام قال (وأمرت أن أكون أول المسلمين)
- وعلىٰ لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام (ربنا واجعلنا مسلمين لك)
- وعلىٰ لسان موسىٰ عليه الصلاة والسلام إذ أمر بني إسرائيل (فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين)
- وعلىٰ لسان يوسف عليه السلام (توفني مسلما وألحقني بالصالحين)
- وعلىٰ لسان حواريي عيسىٰ عليه الصلاة والسلام (آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون)
- وعلىٰ لسان بلقيس ملكة سبأ (أسلمت مع سليمان لله رب العالمين)
- وعلىٰ لسان محمد رسول الله (فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن)

وقبل أن نبدأ في الحديث عن نشأة الأديان وجب علينا أن نذكر القارئ بحقد إبليس (وكان من الجن) علىٰ آدم إذ أمره الله بالسجود لآدم، فعلا وأبىٰ واستكبر وفسق عن أمر ربه وفكفر به، فأصبح إبليس ملعونا من الله ووعد جهنم

بعد خسارته الكبيرة جعل نفسه عدواً لآدم حقدا عليه، فطلب من الله جل وعلا – متحديا- أن يمهله ليوم البعث ليقعدن لآدم ونسله علىٰ صراط الله المستقيم.

وفي الجنة بدأ الصراع بين إبليس وآدم، واستكمل علىٰ الأرض بين أبناء إبليس من الشياطين وأبناء آدم من البشر.

الغريب هو أنه كانت ولا تزال لإبليس ونسله من الشياطين أساليب كيدية ضعيفة، ولا سلطان له أو لهم علىٰ أبناء آدم، ولكنه مع نسله كان يتزعم حزبـًا يملك من الدأب ومن الأصرار علىٰ الإضرار بعدوِهِ آدم ونسله، فيعده ويمنيه، ويزين له الشر، ويزله عن أمر الله، فيضله، ويضضله ويوقعه في العداوة والبغضاء ويصده عن سبيل الله وينسيه ويبدي له

السوءات ثم يتمكن منه، فيأمره بالفحشاء والمنكر، حتىٰ أذا ما جاء يوم البعث تخلىٰ عنه، فهو رغم تحديه وكفره يخشىٰ الله، ولكنه يحقق انتقامه.

وتعالوا معنا ننظر كيف نجح في أن يجعل بعض أبناء آدم يتبعون خطوات الشيطان، والغريب أن الشيطان يزين للإنسان سوء عمله فيعلمه من أخلاق الشياطين ما يبعده عن الحق:

(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّىٰ خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ*فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ*فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ*إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ*قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ *قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ* قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ *وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ*قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ *إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ*قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ *إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ)(١).

فمن تحريف الرسالات قد بدأ إبليس، فإن كان إبليس قد رفض السجود لآدم بحجة أن الله قد خلقة من طين في حين أن إبليس من عنصر أفضل في رأيه، فكانت عنصريته هي ما أودت بمكانته عند الله وكانت عنصريته هي البضاعة التي يزين بها قوله لأبناء آدم، فلهذا كانت لبنته وأداته الأولىٰ قعوده لأبناء آدم علىٰ صرط الله المستقيم يدس العنصرية في الدين وموجبات الإيمان، فرأينا من يدعون ألوهيتهم أو بنوتهم لله، ومن يدعون علىٰ أنبياءهم بتلك البنوة تمييزا لدينهم عن باقي الأديان، ورأينا من يدعون أنهم شعب الله المختار دونا عن البشر، ثم عانينا ممن يدعي أن الجنة لن يدخلها سوىٰ أصحاب دين معين ومن يحصرون الخلافة في قوم بعينهم، والبداية دائما كانت من خلال (تحريف الرسالات السماوية) بإدخال العنصرية.

١- أطوار الإدراك:-

اتفق علماء مقارنة الأديان علىٰ تأصل حاجة الانسان إلىٰ الاعتقاد منذ أقدم العصور والأزمنة التاريخية.

(١) سورة ص من الآية ٧١-٨٣.

في فلسفة البروفسير هـ. د. لويس ومن خلال كتابه (تجربتنا الإلهية) يقول أن الحقائق التي يقررها العلم ليست إلا حقائق نسبية، كما يقول أن إدراك الحقيقة المطلقة هو عمل إنساني يعالجه الإنسان بما عنده من وسائل محدودة، ويبلغ ظني أنه طالما أن جميع الحقائق العلمية إنما بدأت بفرض أو فرضيات، فيتم التحقق من هذا الفرض وهذه الفرضيات بالبرهان العقلي، ثم تأكيد التحقق بالبرهان العملي والعلمي، فيقترب مما هو صواب بتطوير ما هو خطأ في الفرض.

إن كانت للإنسان حاجات لإشباع غرائزه، فهو موكول بالبحث باشباعها بما يتعلمه من تراكمه المعرفي، فيتعلم القنص والصيد والزراعة بعدما يتطور لإشباع غريزة الجوع عنده، ولئن أنكرت معدته رداءة المأكول، يقوم بأفراغ ما بداخل جوفه أو معدته أو بتجنب ذلك الطعام أو معالجته بالطهي، وكما أن اشباع معدة الإنسان ضرورية للبقاء والتواصل، فإشباعة الروحي ضروري أيضا للاستقرار والرقي.

علىٰ مر الأجيال بعد آدم واندثار الإيمان بالله بانت حاجات الإنسان إلىٰ إشباع جوعه الروحي، مما دفعه في مبدأ الأمر إلىٰ الاعتقاد في القوىٰ القادرة علىٰ تسيير وتنظيم أمور حياته، فلم تنشأ حاجات الإنسان الروحية من فراغ، وإنما نشأت من غريزة الخوف، وقتل الإنسان للسباع والتماسيح هي أولىٰ خطواته في الثورة علىٰ الخوف، حينها حاول الإنسان إرضاء السباع والتماسيح أو تجنبها، بالعبادة وبتقديم القرابين، ولما واجهه الفشل لم يجد بدا من قتلها وتحويلها لطعام، مهما بدا هذا له خروجا عن مقتضيات الإيمان، فقام بإفراغ ضميره من ذلك المعتقد والإيمان الخاطئ كما كان من قبل يفرغ معدته من رداءة المأكول، ولما واجه أخطار الطبيعة وفشل في مواجهتها، عبدها وقدم لها القرابين في محاولة لإرضاءها.

في بلاد الفرس، عبد الناس النار خوفا من البراكين، وفي مصر عبد الناس النهر خوفا من فيضانه !

إن العقيدة تأتي من الإدراك، والإدراك هو التعايش، والتعايش يحتاج إلىٰ التأقلم بما عرف بالعلم والمعرفة، والعلم ليس إلا تراكم للخبرات الإنسانية والفردية، والكيان الإنساني الصحيح هو الكيان الذي يشعر بالعظمة في ذاته، ولكنه يستهول الكون ويستقبله

بالحيرة والتقديس، فإحساسه بروعة المجهول قد دفعه دفعا إلىٰ البحث عن قوىٰ كبرىٰ تتحلىٰ بالأبدية، والأبدية هي وصل لفكرتها بعد تطور اللغة وأساليب التعبير.

إن كان السبيل الأول للإدراك – في الإنسان الأول والمعاصر – يتحقق من خلال حواس الإدراك الخمسة المعروفة، وطالما أن المعرفة تتحقق بتراكم الخبرات، فلقد تطورت حياة الإنسان المحسوسة والروحية في بادئ الأمر من خلال تراكمها، فوصلت لإدراك ضرورة وجود الإله للعون علىٰ الحياة في بادئ أمرالإدراك، ولقد كان الطور الأول في إدراك البشرية الديني متمثلا في البحث عن طريق يدرأ به المخاطر ولو بالتذلل لقوىٰ الطبيعة والعبادة وتقديم القرابين

بدأ الإنسان في الرقي المتدرج بما نسميه تطور العقل والضمير، وبدأ عنده ما يعرف بالوعي الكوني والحقيقة الكونية، وكل ذلك قد حدث له ومعه كنتيجة منطقية لكون الإنسان قد أضاف وأنقص، نسي وتناسىٰ، حذف ليحرف، خطط ليخلط، مُحتكِما لهواه ومُحكِّما لأطماعه.

تعلم الإنسان أن الوعي الكوني ملكة قابلة للترقي والاتساع، فالحواس لا يمكنها وحدها تحديد كل مدركات ثقافة العقل والضمير.

الحواس لا تتساوي عند مخلوقات الله، لأن الصقور مثلا، ترىٰ أبعد مما يرىٰ الإنسان، وهناك حيوانات حاسة الشم لديها تفوق ما لدىٰ الإنسان بمراحل، وتلتقط بعض الحيوانات الأصوات علىٰ ترددات يعجز الإنسان عن التقاطها، وعليه فإن مجال الوعي الكوني والإدراك الكوني أوسع من مجال الحواس، فهناك حقائق لا تدركها الحواس الجسمية بل تدركها الحواس النفسية وحدها.

يقول لنا عباس محمود العقاد

"لا يوجد عاقل لا يدرك التفاوت في الإدراك الحسي والنفسي، فالفارق بين المجردين والموهوبين هو الفارق بين الأذن الموسيقية التي تميز الألحان وآذان السواد من البشر التي تحسبها صوتا واحداً، وهناك ممتازين يبلغ بهم الوعي أقصاه ولا يسهل تفسير حالاتهم بعوارض الجنون فهم في الغالب من أعظم الرجال وأقدرهم علىٰ إحداث التغيير وحمل الرسالات الكونية والإنسانية"[٢].

(٢) مقتطفات من كتاب (الله –كتاب في نشأة العقيدة الإلهية) لعباس محمود العقاد.

ومن الغبن الإستسهال ووصفهم بالجنون كدرب من دروب الكسل العقلي.

إن حقائق الكون الكبرىٰ أشق علىٰ الإنسان من الحقائق التي يعالجها البشر بالعلم فحتىٰ الإنسان الأول إن جهل ماهية الشمس وتكوينها، لا يمكنه أن يتجاهل وجودها.

لقد دأب الإنسان علىٰ أن يحول الدين السماوي إلىٰ الأسطورة كأصل للدين الأرضي، وحينما كان يتناول الدين السماوي كان أيضا يحوله بتدخله الفكري إلىٰ مجموعة من الأساطير، فالدين لا يحتوي علىٰ أساطير ولكن الأسطورة كي تحبك بالضرورة تحتوي علىٰ الدين، وتكمن الضرورة في أن يحول الإنسان الدين السماوي إلىٰ أسطورة هي أن الإنسان في حالة عجزعن التعبيرباللغة الإنسانية البدائية عن وصف الظواهر الطبيعية والكونية، ذلك لأن اللغات البدائية وضعت معان للمحسوس ولكنها عجزت عن وضع معان للمفهوم أو للمستنتج فلسفياً.

٢- منبع الأديان الأرضية:.

هل سبقت الأديان الأرضية الأديان السماوية في رحلة بحث الإنسان عن الله ؟

افترض علماء التاريخ هذا السبق علىٰ اعتبار أن لادليل من الحفريات قد أدي إلىٰ العكس، ولكننا حتىٰ وأن استندنا إلىٰ حقيقة كون آدم عليه السلام نبيا وقد نزل إلىٰ الدنيا بمنهاج رباني لم يلتزم به أبناؤه، فالحجة التي قد نراها من علماء التاريخ هي غياب المستند التاريخي المادي الذي يعتمد عليه الباحث، ومن هنا ينشأ الاعتراض العقلي بعدم قبول الغيب المذكور في الكتب السماوية، ولكننا ذكرنا مرارا وتكرارا إن حقائق الكون الكبرىٰ أشق علىٰ الإنسان من الحقائق التي يعالجها البشر بالعلم.

لقد أثبتت الأحافير تشابه المعتقدات الوثنية فيما يتعلق بقصة الخليقة وآدم وحواء والطوفان والبعث والتوحيد مثلا مع الحقائق المذكورة في الكتب السماوية، فكيف إذاً عرفها الإنسان الأول عبر العصور ما لم يكن لآدم ونوح عليهما السلام وغيرهما من الأنبياء أدواراً في إخبار البشرية بالحقائق المعروفة عن دين الله ؟

فالمعتقدات الوثنية والتىٰ لا نعرف عنها إلا ما وجد بالأحافير، هي معتقدات في الأصل نابعة من السماء، إذ أرسل الله رسلا يبشرون بالدين الحق، إلا أن الإنسان كما ذكرنا

سلفا، أضاف وأنقص، نسي وتناسىٰ، حذف ليحرف، خطط ليخلط، مُحتكِما لهواه ومُحكِّما لأطماعه فضل عن سواء السبيل.

أكاد أجزم أنه لا توجد ديانة -نراها ونحسبها أرضية -إلا وكان لها أصل من السماء ثم نجح الإنسان في تحريفها، ويظل هذا الإعتقاد لدينا حادثـًا في جميع الأديان السماوية، سواء علمنا بنبي أو رسول إلىٰ هذه الأمة أولم نُعلم به، فالله تعالىٰ لم يذكر لنا جميع الأنبياء والرسل، ولكنه سبحانه وتعالىٰ أكد لنا أنه تعالىٰ ما كان يعذب حتىٰ يبعث رسولا

يقول عز من قائل في هذا الشأن بالآيات من ١٦٣ إلىٰ ١٦٤ من سورة النساء:

(إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلىٰ نوح والنبيين من بعده، وأوحينا إلىٰ إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسىٰ وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوود زبورا* ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك، وكلم الله موسىٰ تكليما)

أ - قصة الخليقة:

في العراق وجدت بالخط المسماري نقوشُ منقوشة علىٰ الألواح بمدينة الموصل ونقلوها إلىٰ المتحف البريطاني بلندن ونصها كالتالي:

"كان الأفق الأعلىٰ لا يسمىٰ بعد بالسماء، وكان الأفق الأدنىٰ لا يسمىٰ بالأرض ولما تفتح الهاوية ذراعيها، وكان الماء يغمرها جميعا"

والمصريين القدماء اعتقد المصريون في خيالهم الشعبي بعد تحريف الديانات أن أصل الكون هو السماء (ممثلاً للذكورة) والأرض (ممثلا للأنوثة)، وكانا متصلين ثم انفصلا. تصور الفينيقيون تأثرا بالمصريين - أو عن طريق نبي - أن الأرض والسماء علىٰ شكل ذكر وأنثىٰ (ولكن جعلوا الأرض رجلا والسماء الأنثىٰ) وانفصلا.

في الآية ٣٠ من سورة الأنبياء (ألم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما، وجعلنا من الماء كل شيئ حي أفلا يؤمنون *)

والفتق هو الانفصال، ويتصور الفينيقيون تفاصيل في تقسيم السنة إذ يقولون: "وقسم السنة إلىٰ أربعة فصول، وإلىٰ اثني عشر شهرا" ويقول الله في سورة التوبة بالآية ٣٦:

"إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض"

نقطة أخرىٰ إذ يقول المصدر الفينيقي:

" وصنع للسيارات منازل تشرق فيها وتغرب، لا يصدم بعضها بعضا في الطريق "

ويقول الله في سورة يس الآيات من ٣٨- ٤٠ :

(والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم *والقمر قدرناه منازل حتىٰ عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغىٰ لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) وفي سورة الرحمن –الآية ٥ (الشمس والقمر بحسبان)

فكيف وصلت التفاصيل –وإن كانت مشوهة– ما لم يكن لها أصل سليم من خبر سماوي؟ أما ما بها ويغاير نصوص القرآن فلا يمكن إلا أن يرجع لجهد بشري، قد غاير ما عَلِمَهُ وعَلّمهُ الأنبياء أو الرسل للبشر.

ب - آدم وحواء:

حفريات أخرىٰ في المتحف البريطاني أيضا – ومن نفس العصر – إذ توجد لوحة عليها صورة شجرة جلس إلىٰ جانبها رجل وامرأة، ووراء المرأة حية، وقد بسطا يديهما إلىٰ ثمرتين بأسفل الأغصان !!! وقد اتُهِمت حواء بإغواء آدم _وهو التدخل البشري_ وتعزّزَ هذا الاتهام علىٰ مر العصور إلىٰ أن جاء النص القرآني دون تحريف بتبرئة حواء، والمرأة بوجه عام، فكيف وصلت الأسطورة إن لم يكن لها أصل من هدي الله؟ وكيف تناولها المحرفون؟

<u>في شريعة مانو بالهند:</u>

لم تكن تعرف المرأة حقا مستقلا عن حق أبيها أو زوجها أو ولدها وشهد هذا الزمن بسبب هذا الإفتراء نكران حقها في الحياة المستقلة بل كان مقضيا عليها بالموت حرقا بعد موت زوجها ودامت هذه العادة من عهد الديانة البرهمية إلىٰ القرن السابع عشر.

<u>وعند اليونان وقبائل الفرنك والغاليين من الأوروبيين:</u>

كانت المرأة مسلوبة الحرية والمكانة وكل الحقوق الشرعية بسبب تلك المقولة.

<u>في اليمن ومصر القديمة:</u>

شذ وضع المرأة بإكرامها، وتخويلها حقوقها الشرعية القريبة من حقوق الرجل، فكان لها أن تملك وأن ترث وأن تتولىٰ أمر أسرتها بل وحكم الدولة.

في التوراة:

لم يختلف وضع المرأة، إذ نَحىٰ كُتّاب التوراة نفس المنحىٰ ففي الإصحاح الثالث من سفر التكوين:

(وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية فقالت للمرأة: أحقا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة ؟ فقالت المرأة للحية: من ثمر شجر الجنة نأكل وأما ثمرالشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منها لئلا تموتا، فقالت الحية للمرأة:لن تموتا، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منها تتفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر، فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل، وأكلت وأعطت رجلها معها فأكل فعلما أنهما عريانان فخاطا أوراق التين، إلخ)، إلىٰ أن يخط كتاب هذا السفر ما حكم الله به علىٰ الحية وعلىٰ حواء وآدم فيذكر السفر (فقال الرب الإله للحية:

لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية، الخ)

ثم يلوم حواء _وسبحانه عما يأفكون_ قائلا (تكثيرا أكثر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولادا) وإن كان هذا هو عقاب إمرأة آدم فما ذنب باقي نسل النساء وهل تزر وازرة وزرأخرىٰ؟! وماذا فعلت أنثىٰ القطة مثلا حتىٰ تتألم في الولادة ؟!

(وإلىٰ رجلك يكون اشتياقك)

وهو العكس تماما كما يراه معظم البشر

(وهو يسود عليك)

وهكذا نرىٰ السطحية والأهواء ممن وضعوا هذا السفر في مسألة السيادة.

في كتب العهد الجديد:

حيث جاء في الإصحاح الحادي عشر من كتاب كورنثوس (ولكني أخاف أنه كما خدعت الحية حواء بمكرها هكذا تفسد أذهانكم عن البساطة التي في المسيح) وفي تيموثاوس من الإصحاح الثاني (إن آدم لم يغو، ولكن المرأة أغويت فحصلت في التعدي).

وفي القرون الوسطىٰ شاعت فكرة نجاسة الجسد ونجاسة المرأة وباءت المرأة بلعنات الخطيئة الأولىٰ والخطيئة بوجه عام، فكان الابتعاد عنها حسنة مأثورة لمن لاتغلبه الشهوة والضرورة، في القرن الخامس للميلاد، بحثوا جدياً في طبيعة المرأة وتتساءلوا في مجمع "ماكون " هل هي جثمان بحت؟ أو هي جسد ذو روح يناط بها الخلاص والهلاك ؟ ثم غلب علىٰ آرائهم أنها تخلوا إلىٰ الروح التاجية، ولا استثناء لإحدىٰ بنات حواء من هذه الوصمة غير السيدة العذراء أم المسيح.

في الجزيرة العربية:

هانت المرأة كثيراً، فهي تُوَرّث فتنقل مع المال والماشية كحصة من الميراث من الآباء للذكور من الأبناء، وقد تباع وترهن لسداد الديون! ومن خوف العار يدفن الرجل ابنته وهي رضيعة.

وفي القرآن الكريم القول الفصل:

يقول الله في سورة الأعراف بالآيات ١٩-٢٠

(ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا من الخالدين)

وتكتمل الصورة بالآيات ١٢٠-١٢١ من سورة طه:

(فوسوس الشيطان إليه قال يا آدم هل أدلك علىٰ شجرة الخلد وملك لا يبلىٰ* فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما، وطفقا يخصفان عليها من ورق الجنة فعصىٰ آدم ربه فغوىٰ*)

إذن فقد وسوس الشيطان لهما معا، ثم انفرد بآدم فوسوس إليه فلما أكل، أكلت معه حواء وقد استجاب آدم لإغواء الشيطان وعصي ربه فغوىٰ، وبرأ الله حواء في النص القرآني خلافا لما روجت له تحريفات البشر من إلقاء المسؤلية علىٰ حواء، ولم يكن هذا التحريف إلا لتثبيت فكرة عدم أهلية المرأة، وجعلها مصدر الشر، تحقيقا لمآرب من قام بالتحريف مُحتكِما لهواه ومُحكِّما لأطماعه فضل وضلل عن سواء السبيل.

ج- قابيل وهابيل:

في مصر:

استلهمت الأساطير مما وصلهم من الديانات الإلهية أسطورة صراع الخير والشر، وأشهر تلك الأساطير كانت أسطورة إيزيس وأوزوريس وحورس، فقد اعتقد المصريون في خيالهم الشعبي بعد تحريف الديانات أن أصل الكون هو السماء (ممثلاً للذكورة) والأرض (ممثلا للأنوثة)، وكانا متصلين ثم انفصلا، ولد للزوج والزوجة اثنان من البنين (أوزوريس وست)، وكذلك من البنات اثنتان (إيزيس ونفتيس)، وتزوج أوزوريس من إيزيس وتولىٰ حكم الأرض فسار في الرعية بالعدل، أما ست فتزوج من نفتيس، ولكن غاظه المكانة الرفيعة التي حظي بها أوزوريس، ودبر لأول جريمة قتل في التاريخ، فسولت له نفسه قتل أخيه بخدعة وضعه في تابوت، والقاه في النيل فحمله النيل للبحر المتوسط وحملته الأمواج إلىٰ فينيقيا، فذهبت إيزيس لفينيقيا وبحثت عن التابوت، ولما وجدته أخرجته، وابتهلت فعاد للحياة، ففاجأهما ست بعد عودته للحياة بفترة قصيرة، فيمزق جسد أخيه أوزوريس ويدفن أعضاء جسده في أقاليم مصر الاثنين والأربعين، ولكن إيزيس كانت قد نجحت في أن تستولد منه إبنهما حوريس من روح أبيه !!وأخفت الوليد في الأحراش حتىٰ بلغ سن الشباب وانتقم لأبيه من عمه وانتصر، وتسلم آلهة هليوبوليس عرش مصر لحورس، ويتم تنصيب أوزوريس إلاها للموتىٰ.

تلك هي أسطورة إيزيس وأوزوريس وحورس التي نستشف منها أن ما قاله الله عز وجل في شأن قابيل وهابيل موجودة في السياق بتشويه شعبي، ثم يضاف إليها تفاصيل تجعل من عقيدة التثليث ملحمة أسرية تراجيدية موغلة في الرومانسية، تتغلغل في وجدان البسطاء والحكماء من الشعب علىٰ السواء، ويتم الحريف الديني بعدها بجعل ولد لله.

<u>وفي القرآن الحكيم القول الفصل</u>

{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ

الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}(٣).

د - الطوفان:

- في عهد السومريين (٤٠٠٠ ق م)

أي منذ ما يزيد عن ستة آلاف عام، توجد أسطورة ذاع صيتها عن قصة الطوفان وتنص علىٰ أنه: في يوم غضبت الآلهة علىٰ البشر لكثرة ما يرتكبون من ذنوب، فقررت الآلهة القضاء علىٰ البشر فسلطت طوفان عظيم، غير أن أحد الآلهة !! وهو "أيا" إله الحكمة المشهور بحبه للبشر! أسر إلىٰ أحد الرجال الصالحين بما عقد الآلهة عليه العزم، ونصحه أن يصنع سفينة يحمل فيها نماذج من الأحياء، وما كاد يفعل حتىٰ غمر الماء اليابس، واستمر الحال ستة أيام، وفي اليوم السابع تقهقر الطوفان، واستقرت

السفينة علىٰ جبل، وخرج ذلك الرجل الصالح هو وأسرته من السفينة وقدم القرابين للآلهة، فسرت منه ومنحته الخلود وصار إلاها مثلها!(٤).

- في بابل أيضا (٣٠٠٠ ق م) وفي بعض الأحافير توجد نصوص لأسطورة بألواح تاريخها يرجع إلىٰ أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد، أي أن عمرها لا يقل عن خمسة آلاف عام وتنص هذه الألواح علىٰ لسان أسدباركالتالي:

"ابن بيت واصنع سفينة تحفظ النبات والحيوان، وأخزن البذور وأخزن معها بذور الحياة من كل نوع تحمله السفينة، وليكن طولها ستمائة قدم في ستين عرضا، وتدخل السفينة وتحكم إغلاقها، وتضع في وسطها الحبوب والمتاع والأزواد والخدم والجند، وتضع فيها كذلك أجناس الوحش لتحفظ ذريتها،

" وقال الإله ليلا ! إني سأرسل السماء مدراراً، فادخل إلىٰ جوف السفينة واغلق عليك بابها، وتغطىٰ وجه الأرض وهلك كل من عليها من الأحياء، وفار الماء حتىٰ بلغ السماء، ولم ينتظر أخ أخاه ولم يعرف جار جاره ستة أيام، والريح تعصف والأنواء تطغىٰ، ثم كان اليوم السابع فانقطع المطر، وسكنت العاصفة التي ماجت كموج الزلزال وسكنت العاصفة وانحسر البحر وانتهىٰ الطوفان، وعج البحر بعد ذلك عجيجه، واستحال الناس طينًا

(٣)المائدة ٢٧-٣١.

(٤)كتاب مصر وحضارات العالم القديم ص ١٣٤.

وطفت أجسادهم علىٰ وجه الماء، ثم استوت علىٰ جبل نيراز، وأرسلت أنا الحمامة فذهبت وعادت ولم تجد مقر من تهبط علية، فأرسلت عصفور السمانة فعاد وما هبط علىٰ مكان، وأرسلت الغراب، "

ويصف النص الأحداث حتىٰ يصل لظهور قوس القزح "وهذه القصة ليست مذكورة في الألواح التي ذكرناها فحسب، بل هي موجودة قبل هذا التاريخ الذي يتعدىٰ خمسة آلاف سنة في الألواح البابلية وإن كانت مسبوقة في آثار أغلب الأمم، ولا يدل هذا إلا علىٰ شيوع رسالة نبي الله نوح عليه السلام في أمم الأرض(٥).

نستنتج من هاتين الأسطورتين الآتي:

أن الأسطورة السومرية التي سادت ألف سنة قبل الأسطورة البابلية قد تضمنت موروثات فلكلورية شعبية أدت إلىٰ طغيان الموروثات المحرفة عن حقائق الأحداث، وهي بالتأكيد قد شوهت حقائق القصة الحقيقية للطوفان الذي عايشه أجدادهم والذي حدث في زمن نبي الله نوح عليه السلام وقد عاش عليه السلام لمدة زادت عن الألف عام، ولما تم تصحيح الحقائق عن طريق أحد أنبياء الله، وبعد مرور ألف سنة أويزيد بعد نوح، ظهرت ألواح بابل الأقرب إلىٰ الحقيقة وإن كانت مليئة بالأخطاء والموروثات الفلكلورية والشعبية كدأب بشري، وإن كانت نسبة التدخل البشري أقل، ولا يعني هذا إلا احتياج البشرية إلىٰ تصحيح من الله، من آن لآخر، ويأتي التصحيح من الله علىٰ أيدي الأنبياء والمرسلين ولكن أيدي البشر ونسيان الأنسان لهما التأثير الفادح.

- **وفي القرآن الكريم القول الفصل**

يذكر الله تعالىٰ في سورة هود من الآية ٢٥ حتىٰ ٤٩ القصة كاملة وإن كان نكران القوم لتحذير نوح عليه السلام قد ذكر في سورة نوح ولكننا سنورد ما ذكر في سورة هود فيما يتعلق بالطوفان فحسب كما وردت في سورة هود من الآية ٣٦ حتىٰ ٤٩:

﴿وأوحىٰ إلىٰ نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون* واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون*ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه، قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون* فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم *حتىٰ إذا جاء

(٥)إبراهيم أبو الأنبياء لعباس محمود العقاد ص ١٥٩.

أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن، وما آمن معه إلا قليل * وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها، إن ربي لغفور رحيم *وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادىٰ نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين * قال سآوي إلىٰ جبل يعصمني من الماء، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين *

وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت علىٰ الجودي، وقيل بعداً للقوم الظالمين * ونادىٰ نوح ربه فقال رب إن إبني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين *قال يا نوح إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح، فلا تسألن ما ليس لك به علم، إني أعظك أن تكون من الجاهلين * قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم، وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين * قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلىٰ أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم * تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا، فاصبر، إن العاقبة للمتقين *)

وبهذا نرىٰ ما سبق أن ذكرنا وما زلنا نؤكد عليه، وتؤكد عليه ظواهر المكتشف من الوثائق الأحفورية من التدخل البشري في وضع تعديلات علىٰ النصوص.

وفي سورة الصافات يبلغنا الله جل وعلا في الآيات من ٧٥ حتىٰ ٨٣ أن الله تعالىٰ قد أعاد الخلق فأبقىٰ علىٰ المؤمنين وأغرق الآخرين، ونتج عن الذرية من عاد إلىٰ الكفر من استمسك بالإيمان ومنهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام

(وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ*وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ *وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ *ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴾

هـ - الأضحية والختان:

أقدم دليل في العالم القديم علىٰ فكرة الأضحية البشرية كان في العراق، ثم بعدها ظهر الميل في بلاد الكلدانيين إلىٰ استبدال الأضحية البشرية بأضحية حيوانية تقرباً لله، ولقد وجدت بعض الأختام من الطين عليها صور لآدميين يلبسون قناعا لرأس حيوان، فقد كان

هذا الزي مقدمة للذبح الرمزي لإجراء الشعائر الدينية كما ذكر لنا هوك في كتابه (أصول الشعائر السامية الأولىٰ)

وفي مصر استمرت فكرة الأضحية البشرية لإرضاء النيل متبعة لإلقاء أجمل عذراء للإله حابي (النيل)، وصمدت تلك الشعيرة في كل العهود حتىٰ بعدما اختار المصريون الديانة المسيحية في عهد الدولة الرومانية ولما جاء الفتح الإسلامي وحكم عمرو بن العاص استشار عمر بن الخطاب رضي الله عنهما في تلك العادة الغريبة المسيطرة علىٰ الشعب ورجال الدين المسيحيين في مصر، فأرسل إليه خطاباً موجها للنيل ليلقيه فيه بدلا من الفتاة، فجرىٰ النيل بسخاء وبطلت تلك العادة.

والأضحية هي تقرب لله، وأصل القرابين نجده في تقديم قابيل وهابيل قرابينهما لله، فلما لم يتقبل الله قربان قابيل، تمت جريمة القتل الأولىٰ كما نعلم، ووصول فكرة القربان للأقدمين تدل علىٰ سبق الدين السماوي، وظني أن البشر كانوا يحاولون الغالاة في القرابين إلىٰ حد التضجية بالبشر، وبالأبناء أيضاً.

في سفر الخروج وبعد موسىٰ عليه السلام بقرون وفي الأصحاح الثاني والعشرين حرم علىٰ بني إسرائيل أن يعطوا أبكارأبنائهم قربانا لله، وأكد الإصحاح العشرين من سفر اللاويين بنص علىٰ عقوبة الرجم لمن يعطي ابنه قربانا للرب.

في أقدم العصور كان الفاتح المنتصر يقدم الأسرىٰ كقرابين علىٰ محراب الآلهة كعلامة علىٰ استسلام الأعداء للآلهة، وتطور الأمر إلىٰ بتر أعضاء بعض الأسرىٰ التناسلية، ثم تطورت إلىٰ قطع أغلفة الذكور منهم، ثم تحولت التضحية إلىٰ الختان ذلك باعتباره انتقالا من علامة تسليم لإله المنتصر إلىٰ علامة تسليم للإله الذي يعبدونه.

و – البعث (العالم الآخر):

عرفت الصين فكرة العالم الآخر حيث كان الملوك يدفنون مع حاشيتهم ووزراؤهم ولا يبدو من هيئة جثامينهم أنهم ماتوا رغما عنهم، ولقد تأثر الكلدانيون بالصينيين

في كتاب (وولي) "أور الكلدانيين" يعتقد أن ملوك أور كانوا يتجرعون السم ليخدرهم ويميتهم، لإيمانهم بالانتقال مع ملوك الأرباب إلىٰ حالة في السماء كحالتهم الأرضية.

في بابل ومصر ربما هداهم الله بأنبياء وربما الهمت الشمس بمغيبها إلىٰ الغرب وبظهورها من جديد بعد فترة من الظلام من الشرق بفكرة العالم الآخر المجهول، وقد أكد القمر الذي يستأثر بالليل هذه الرؤية، إلا أنهم أيضا فلسفوا غياب الماء من النهر في فترة التحاريق، ثم فيضه في زمن الفيضان بتعاقب الأحوال في كل ما يرون، إلا أن أكثر ما جعلهم يفكرون في الروح والبعث كان رؤيتهم لموتاهم في الأحلام ومن هنا جاءت عبادة الأسلاف.

اعتقد الهنود والبابليون من الرؤية السابقة أن العالم الآخر هو جزء من هذا العالم، وأن الميت ينتقل للإقامة فيه، ففي الصلوات البابلية لانرىٰ فيها ما يشيرإلىٰ طلب النعيم والخلود في العالم الآخر بل طلب للخيرات الدنيوية وطول العمر والسلامة من الأمراض فحسب ويعتقدون أن الروح تلازم الجسد بعد الموت عالقة فيه إلىٰ أن يبلىٰ رفات الميت، فكان الميت يحرق في الهند، ويترك في بابل للجوارح والوحوش تنهشهم لتستريح الأرواح من عالم الحيرة بين الدنيا والآخرة !

أما في مصر والصين فكانوا ينظرون إلىٰ الأمربأن في العالم الآخر عالم حساب بثواب وعقاب، والميت ينتقل للعالم الآخر للإقامة فيه للخلود به، ففي مصر لم يكن العالم الآخرفي السماء بل في الأرض، حيث يقف الميت أمام محكمة مؤلفة من اثنين وأربعين قاضياً يمثلون أقاليم مصر فقد توصل المصري القديم إلىٰ حفظ الجسد بالتحنيط لتهتدي إليه الروح فيحصنون القبر مختارين الأماكن الجافة، في مقابر تحكي قصة حياة الميت ومنجزاته ويأخذ الميت في سرد أعماله الحسنة ويتبرأمن الآثام، بعدها تضع المحكمة قلبه علىٰ كفة ميزان وريشة تمثل الإله (معات) إله الصدق والحق علىٰ الكفة الأخرىٰ فإن رجحت موازينه دل ذلك علىٰ صدقه فيسير إلىٰ النعيم الأبدي !

كيف وصل المصري القديم إلىٰ هذا ما لم يصله الحق من ربه، فمزجه بالفلوكلور الشعبي ؟

ز- التوحيد في عقيدة المصريين:-

أولا مرحلة التعدد

لما تمكن المصري القديم من التغلب – ولو جزئيا – علىٰ النهر، وعلىٰ الحيوانات الكاسرة، ولما رآها تموت أمامه عمل علىٰ الإبقاء علىٰ تلك الآلهة لارتباطه العاطفي بها،

بعدما رأىٰ أن إلاها أروع وهو الشمس- بعد نضوجه الفكري نسبياً- فقدسها لما فطن إلي أثرها في حياة الكائنات وانتشرهذا التقديس باسم (رع) في بادئ الأمر ثم تعددت المسميات فكانت مرحلة التعدد فالشمس هي (أوزوريس) و (خبرا) و (آمون) و (آتون) في مصر وحدها.

بعد هذا العصر وفي عصر حمورابي ببابل بالعراق نقش علىٰ لوح حجري كبير (لوح حمورابي)٢٨٢ مادة قانونية كتبها الملك حمورابي ونقش أعلىٰ الحجر منظر للملك واقفا يتلقىٰ القوانين من (شماس) القاضي الأعظم إله الشمس الجالس علىٰ عرشه تأثرا بالديانات المصرية

لم يكن شماس هو الإله الوحيد، بل شاركه في طور التعدد الإله نانار (وهو يمثل القمر) والعديد من الكواكب مثل:

عشتار (وهو كوكب الزهرة) إله الحب ، ومردوخ (المريخ) إله الحرب وغيرهم من الآلهة

وظهرت الديانات الوضعية النابعة من دين الله بعد الإضافات من الموروث الذي نشأ عن خلط التراكم المعرفي مع الدين السماوي، فأخذ شكل الفلوكلور الشعبي الذي وضع لنفسه عقيدة للتعايش مع واقعه، ولما كانت مصر القديمة تشعر بعظمتها فشعرت بضرورة تنظيم حياتها بعقيدة دينية تعظم في المصري إحساسه بعظمة الكون وعظمة أسراره علىٰ قدر إحساسه ولحسن الحظ أن جانباً كبيرا من ألوان معتقدات المصري القديم قد وصلت الينا شبه كاملة، ولقد أنتجت كل مرحلة من تاريخ المصريين معتقدات دينية جديدة - عاشت إلىٰ جانب القديمة - فكثرت المعبودات وتعقدت طريقة التعبد مع مرور الوقت، فمن عبادة الأسد وأنثاه لقوة بطشهما إلىٰ عبادة الثعابين، إلىٰ أن توصل المصري القديم في مرحلة الدولة القديمة لعبادة التمساح ولما تغلب عليه بقتله وتحنيطه عبد مصدر التمساح ومصدر الخوف من الفيضان ومصدر الرزق وكان النهر (حابي) هو معبوده، ثم كانت لهم نظرة أكثر رومانسية فعبدوا البقرة واتخذوها رمزا للامومة وأسموها (حوت حور)، وحوت بمعنىٰ الرحمة أما حور فمعناه الملاك، فكانت البقرة ملاك الرحمة، أما أبو قردان فرأوا فيه الرزانة والصبر فعبدوه وأسموه (تو

حوت)[٦]. بمعنىٰ الرحمة الصابرة ثم تحول لعبادة الصقر لقدرته علىٰ الطيران والتحليق في جو السماء لاقترابه من الشمس،

ثانيا مرحلة الترجيح

لم يكن اختيار الشمس كإله بعيدا عن المنطق البدائي، فبها قفز العقل قفزة هائلة من مرحلة التعدد الإلهي لبدايات مرحلة التوحيد، ولم يكن الإيمان بالشمس في مصر وحدها بل وفي بابل وفارس والهند واليابان، أما لماذا فذلك لعلوها في السماء، ولكبر حجمها بالنسبة لباقي الأفلاك، ولارتباطها بالنهار ومن ثم الرؤية كرمز للمعرفة، ولسخونتها فتتفوق علىٰ النار، وفي حالة غروبها يعم الظلام والمجهول، ولعودتها مرة أخرىٰ كرمز للرحمة، وفي انتظامها وفوائدها للزراعة ومسئوليتها عن تعاقب الفصول والأمطار والرياح ولتواجدها في أرجاء العالم كله وملازمتها للإنسان أينما سار !!! دلائل عقلية لا يمكننا تجاهل قبول المنطق البدائي في التمسك بها.

ثالثاً مرحلة التوحيد

لم تعرف أمة سبقت مصر في الإنتقال من الإيمان بالتعدد إلىٰ الإيمان بوحدانية الإله، فبدأت مصر وتبعها الآخرون بتوحيد الإيمان بإله واحد فرضته السلطة المركزية عن طريق الفرعون علىٰ سائر الأقاليم المصرية، وهذا الإله الواحد خلق الأحياء جميعا وخلق هذا الإله معها أربابا آخرين لمساعدته كل في تخصصه !

وتوحيد الإيمان بإله واحد لا إله غيره ونبذ التعدد، فقد دعا (إخناتون) منذ ٤٣٠٠ سنة إلىٰ نبذ آمون إله الشمس وسائر الأرباب والتوجه إلىٰ آتون وحده، فواجه الاعتراض من حاشيته ووزرائه، ودفع الثمن بالقتل والإنقلاب من وزير دفاعه حور محب (أي محبوب الملاك).

إلا أن العالم الآخروالثواب والعقاب قد سبق فكرة التوحيد ولسنا ندري عن كيفية وصول فكرة التوحيد لمصر، أكان نبي الله إدريس كما ذهب البعض الذي يرىٰ أن أبو الهول

---

(٦)توحوت = الرحمة الصابرة – موس = ولد – توحوتموسىٰ (تحتمس) ولد الرحمة الصابرة، وهىٰ أسماء للبشر تعطي معنىٰ لإبن الله تماما كإسم رعمسيس حيث أن رع = الشمس، موسيس = الإبن وبالتالي فإن رعموسيس هو إبن الإله الشمس وهو يدل علىٰ ولع الإنسان بتأليه البشر أو جعل ملوكهم أبناء للرب.

هو تجسيد له، أم أن أبو الهول هو تجسيد لخوفو أم أن إخناتون هو نبي التوحيد في مصر وما وصلنا عنه قد وصل محرفاً جريا علىٰ الطبيعة البشرية المولعة بالتحريف ؟

كدت أزعم أن الديانات الوضعية المصرية تشذ – كما شذت في مكانة المرأة المصرية واليمنية عن نساء العالم – إلا أنني لاحظت في عقيدة المصري القديم إيمانه بالعالم الآخر وبالبعث والتوحيد والذي بدوره لايمكن أن يأتي به المصري دونما دين سماوي أيضا قد تم تشويهه.

انتشر التوحيد بعد إخناتون بدرجات شتىٰ، فعلىٰ سبيل المثال فمن أسماء الملوك في بلاد العرب الجنوبية (مملكة بابل الجنوبية) فإسم ملكها هو (إيل أومي إيل أوم) ومعناه أن الله الوحيد هو الإله الحق!!!ألا يشبه هذا شهادة الوحدانية (لا إله إلا الله) في طورها الأول؟ حتىٰ بين أفراد الشعب كانت الأسماء لها مدلولات في التوحيد مثل:

إيل رب، ومعناه الله هو الرب

وإيل ملك، ومعناه الله هوالملك

وإيل راب، ومعناه الله هو الرئيس

ح- الشريعة والقانون:

في عمود حمورابي المذكور سلفاً وجد المنقبون وعلماء التاريخ واللغات نقوشاً لشريعة حمورابي كاملة، ولسوف نعقب فقط علىٰ شرائع وقوانين حمورابي التي كانت متبعة حتىٰ زمن نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ونسله من بعده، وبعضها كان يُفَعّل وبالتحديد فيما يختص بالأحوال الشخصية، وغيرها.

من أحكام حمورابي في مسائل الزواج تحريم تعدد الزوجات من طبقة واحدة، وتحريم الزواج من الجواري إذا رزقه الله طفلاً من زوجته المكافئة له في طبقته أو من إحدىٰ جواريها، علما باستحباب زواج الرجل من جارية زوجته !

(المادة ١٤٤ : إذا تزوج رجل من كاهنة وأعطته جارية فولدت له الجارية أولادا فلا يجوز له أن يتزوج من سرية)

(المادة ١٤٥ : إذا تزوج رجل من كاهنة ولم تلد له، وأراد أن يتزوج من سرية وأن يؤويها في بيته، فهذه السرية لا تكون مع زوجته في منزلة واحدة ولا يجوز حرمان ابن السرية من ميراث أبيه بعد الإعتراف بنسبه)

(المادة ١٤٦: إذا تزوج رجل من كاهنة وأعطته جارية فولدت له الجارية أولادا وجعلت نفسها في منزلة السيدة لأنها حملت أولادا فلا يجوز للسيدة أن تبيعها بل تقيدها وتبقيها مع الخدم)

(المادة ١٧٠: إذا كان لرجل أولاد من زوجته وكان له أولاد من سريته، وكان قد ناداهم بأبنائي في حياته وعدهم من أبنائه من زوجته، ثم مات فالأبناء من الزوجة ومن السرية يتقاسمون الميراث علىٰ السواء، ولكن من حق أبناء الزوجة القسمة والإقتراع)

وإذا نظرنا لما اتبعه نبي الله إبراهيم لوجدنا التزامه بهذه الشرائع، وما كان ليلتزم بها إلا لو كان يعلم أن شرائع (حمورابي) لها أصل سماوي، فقد بنىٰ عليه السلام بهاجر التي كانت قد أهديت لزوجته سارة من فرعون مصرعقب رحلة نبىٰ الله إبراهيم كما هو معروف - والتىٰ أهدتها بدورها لزوجها إبراهيم كجارية، إلا أن سارة شعرت بالغيرة لكونها عاقرفىٰ ذلك الوقت وبعد أن أنجبت هاجر ابنها إسماعيل ألحت سارة علىٰ نبي الله إبراهيم بإبعادها ونجلها عن فلسطين، وهذا بالفعل ما تم.

ويعقوب عليه السلام الذي ورث النبوة فتزوج في فلسطين من أربع نساء وأعقب منهن إثنىٰ عشرإبنـًا من ليئة: وهي بنت خالة وانجب منها روبين - شمعون - لاوىٰ (ومن نسله موسىٰ عليه السلام) يهوذا - يساكر- زبولون. ومن راحيل: وهي بنت خالة أيضـًا وأنجب منها يوسف - بينامين. أما من زلفة: فهي جارية ليئة وقد بنىٰ بها حينما تأخرت ليئة في الإنجاب فأنجب من جاريتها جاد وجاشير، ومن بلهه: وهي جارية راحيل التي بنىٰ بها فأنجب منها دان ونفتالي.

أما عن المادة ١٧٠ فقد خالفها نسل إسرائيل بإنكار أحقية أبناء إسماعيل في أي ميراث، فهو علىٰ حد قولهم إبن الجارية.

الفصل الثاني

جغرافية موطن

الرسالات السماوية السامية

جغرافية موطن الرسالات السماوية السامية

١- الجزيرة العربية:

قبل الحديث عن تاريخ الرسالة الإسلامية، فلا يمكننا فصلها عن تاريخ الرسالات السماوية على الإجمال.

الجزيرة العربية هي موطن الجنس السامي الذي أوكل الله إليه جل الرسالات السماوية حسب علمنا – وعليه فلابد أن نتناول جغرافية موطن الرسالات، فلا تاريخ بلا دراسة جغرافية مواطن الحدث، ولا قيمة للجغرافيا إن لم تقع بها أحداث تاريخية تستحق الدراسة، فالتاريخ جغرافية ديناميكية متحركة والجغرافية تاريخ إستاتيكي ساكن، وتقع الجزيرة العربية في الطرف الجنوبى الغربى لقارة آسيا، والجزيرة العربية، ترتبط في المكان الجغرافى والمحيط العرقى والسكانى بما حولها من بقاع ملتحمة، أو كانت ملتحمة بها في العصور القديمة، ويحد الجزيرة العربية:

- من الشمال الغربى، بلاد الشام (الأردن وفلسطين ولبنان وسوريا الآن).
- من الشمال الشرقى، بلاد ما بين النهرين (العراق الآن).
- من ناحية الغرب، سواحل البحر الأحمر (بحر القلزم) والممتد من عدن حتى شبه جزيرة سيناء.
- من الجنوب الغربى بحر العرب وخليج عدن الذى يتحكم في مضيق باب المندب والذى يربط بين البحر الأحمر والمحيط الهندى وقد كان هذا المضيق ممرا في العصور الجيولوجية الأولى قبل إتساعه.
- من وسط الجنوب المحيط الهندى.
- من الجنوب الشرقى خليج عمان والذى يتحكم في مضيق هرمز الأكثر إتساعا من باب المندب.
- أما من الشرق فيحدها الخليج العربى (الفارسى).

من هنا يتضح أن جغرافية المكان هى بمثابة الإختيار الإلهى لنزول الرسالة فيها، فهذه البقعة الجغرافية- والتي يبلغ مساحتها مليون وثلاثمائة ألف ميل مربع (٣,٣٦٦,٨٠٠) كم

مربع- لها سمات الإتصال بأهم الحضارات أو الأديان المطلة عليها، أو القريبة منها قربا مباشرا أوغير مباشر، ولم تكن الحضارات المطلة عليها بعيدة عنها بعدا يمنعها تماما من التعرف عليها والعلم بها، ولو من باب الفضول والاعتبار(٧). فقد، كان للجزيرة العربية ميزة الإطلاع علىٰ مختلف الأمم والحضارات دون الذوبان أوحتىٰ التأثر بها أو التأثيرعليها أما التأثر بهذه الأمم بالنفوذ أو الإحتلال فكان مستحيلا *جغرافيا للأسباب التالية:

١. انعدام أية مطامع فيها، بسبب ارتفاع درجات الحرارة فيها والقيظ الذىٰ اشتهرت به وعاش أهلها فيه ، إلىٰ جانب الجدب

٢. ندرة أو إنعدام الموارد الطبيعية المعروفة أو المرغوبة وقتها فلا أنهار ولا أمطار أوأرض يمكن أن تزرع ولا مهارة للسكان فيها لأىٰ صناعة غير صناعة الكلام والشعرورعىٰ الأغنام التىٰ تكفىٰ السكان المحليين بالكاد.

٣. إنعدام تأثير سكانها وقلة عددهم علىٰ المحيط الدولىٰ المعروف آنذاك فلم تكن حياتهم تشجع علىٰ معرفة أخبارهم والتحقق من تفاصيلها.

٤. منعتها من الإختراق العسكرىٰ لإحاطتها بالصحارىٰ والرمال من الشمال كما أسلفنا، وكذلك من الموانع المائية كالبحارو الخلجان والمحيطان من باقىٰ الجهات.

هذه العوامل جعلت الجزيرة العربية كالحصن المنيع، وجعلت أىٰ محاولة للسيطرة عليها من الأمم ذات الحضارات حولها غير مأمونة الجانب، وغير ذات نفع، وهو في منظورنا تدبير إلهىٰ، يهيئ به الله عز وجل تلك البقعة إلىٰ أن يجعل أهلها أحرارا في جميع شئون حياتهم، رغم جوارهم لأكبر وأعتىٰ وأقوىٰ الأمم والإمبراطوريات في ذلك العصر-من ناحية- وأرقىٰ الحضارات في العالم القديم كالحضارة الفرعونية والبابلية والآشورية، وغيرها من الحضارات الفكرية وهىٰ حضارات جنوب البحرالمتوسط والتىٰ هىٰ مهد الحضارات القديمة، فمصر كانت البادئة تلتها مباشرة آشور وفينيقيا وبابل وكلها حضارات إنما أتىٰ صانعوها من الهجرات السامية، وسكنت في بيئة جغرافية أثرت قدراتهم الحضارية.

(٧)يتحدث الكتاب فيما بعد عن اليهودية والمسيحية والحضارات والفارسية والإغريقية والرومانية والفرعونية، ذلك للإلمام بالخلفيات المؤثرة علىٰ الجزيرة العربية من خارجها وقت الرسالة ولغرض المقارنة التاريخية.

لقد حاول علماء الآثار الغربيين إثبات غير هذة الحقائق أملا في جذب الإنتباه إلىٰ الحضارة الصينية وغيرها ولم يكشف التنقيب عما يخالف ما ذهبنا إليه حتىٰ يومنا هذا، أما عرب الجزيرة العربية، فلا يعرفون إلا نظامهم ولا يريدون أن يعرفوا غيره، ولا يدينون بالولاء إلا لزعيم قبيلتهم خاصة، ما خبروه من نتاج نمو حضارة مستقلة في ركن الجزيرة العربية الجنوبىٰ الغربىٰ في اليمن حيث كانت تارة والفارسىٰ تارة أخرىٰ موطن حضارة مستقرة ذات مدائن عامرة ومعابد قوية علىٰ مر الزمان، وكان بنو حمير يحكمونها ووقعت تحت الإحتلال الحبشىٰ تارة والفارسىٰ تارة أخرىٰ.

وكان من المستحيل أيضا علي عرب الجزيرة التأثير علىٰ من حولهم، بالفكر أوبنمط الحياة البدائية التىٰ لا يملكون غيرها للأسباب التالية:

١-لانعدام الدافع، فعرب الجزيرة العربية ، لايطيب لهم مقاما ولا يطيب لهم الإستقرار بأرض ،لايخضعون لنظام ولا يصبرون علىٰ ما دون الحرية والمساواة، تعلموها

٢-لانعدام الوسيلة فقد كانوا علىٰ علم تام بقدرات الإمبراطوريات المحيطة من قدرة تنظيمية هائلة في حشد القوات والجنود وكثرتهم، إلىٰ جانب وفرة أسلحتهم وتنوعها ناهيكم عن دقتها وجودتها مقارنة بما يملكه عرب الجزيرة من صفائح يمانية علىٰ الأغلب أو الهندوان، كما كانت المجانيق، والأفيال، أسلحة تقليدية لدىٰ هذه الأمم يرتعب لها العرب،

٣-لإحساسهم بتفرد عالمهم وسموهم كعنصر علىٰ من سواهم، وهىٰ مشاعر لا تزال تجدها بينهم حتىٰ اليوم (القرن الواحد والعشرون)، رغم إنقضاءالأزمان والتجارب الحلوة والمرة عليهم، لا يقيمون الحرب إلا من أجل شعور بكرامة قد جرحت، وكثير من الحروب لديهم قد قامت من هذا المنطلق وأشهرها موقعة ذىٰ قار ضد الإمبراطورية الفارسية، والتىٰ لم ينتصر فيها العرب إلا لوحدتهم، معتادين علىٰ إطلاق لفظ عجم علىٰ من سواهم.

وعودة إلىٰ جغرافية الجزيرة العربية، فهىٰ عبارة عن هضبة تنحدر نحو الشرق حتىٰ سواحل (الخليج الفارسىٰ) أو العربىٰ، ويحد أرضها من الغرب سلاسل جبال ناتجة من نتوء الأرض الناتج من التغييرات الجيولوجية التىٰ شكلت البحر الأحمر (بحر القلزم) بدءا

من مرتفعات وجبال اليمن، حتىٰ شبه جزيرة سيناء، وتنقسم الجزيرة العربية إلىٰ عدة أقسام أشهرها:

اليمن، والحجاز، وتهامة، ونجد، واليمامة، والبحرين والربع الخالىٰ.

٢- اليمن:

وتقع في الركن الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية، وهي موطن الساميين الذين خرج منهم - في الأزمنة السحيقة - الهجرات السامية إلىٰ العراق والشام وشكلوا الحضارات التىٰ ذكرناها سلفا، فأهل اليمن معروفون بالذكاء والفطنة منذ بدء الخليقة، كما يجزم علماء الأنثروبولوجيا أن أغلب سكان الحبشة هم من الساميين الذين اختلطوا بالعنصر الحامىٰ في إفريقيا عبر باب المندب بل واستمر سيرهم حتىٰ شرق السودان ووسطه وجنوب شرق مصر، بل ويذهب بعضهم إلىٰ أن الأمازيغ (البربر)، وكذلك الطوارق سكان الصحراء الكبرىٰ الأفريقية، هم أيضا من أصول سامية

سميت باليمن لوقوعها علىٰ يمين الكعبة إذا ما واجهت الصحراء وجعلت البحر الأحمر خلفك وبذا تقع الشام إلىٰ شمالك كما يدل اسمها، وتنقسم اليمن بدورها إلىٰ ستة أقسام هىٰ حضرموت ومهرة وعمان وجيزان ونجران، اليمن بها مدينة مأرب المسماة (سبأ)، نسبة إلىٰ عبد شمس الملقب بسبأ، والذىٰ شيد مدينة مأرب علىٰ علىٰ سد مأرب، وهو أول سد في التاريخ الإنسانىٰ، وكانت بلاد غنية وقد أعرض شعبها عن شكر الله فأرسل الله سيل العرم

﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ﴿﴾فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتىٰ أكل خمط وأثل وشيئ من سدر قليل﴾ [٨].

إلا أن الأمطار كانت قد تراكمت فدفعت السد وانهارت المدينة من جراء السيل- والعرم هو الذىٰ لا يطاق دفعه- فهاجر السكان شمالا في مختلف أرجاء الجزيرة العربية كما سنرىٰ فيما بعد وتجد في تلك الأنحاء كتابات علىٰ الجدران بالحرف المسند المعروف بالخط الحميرىٰ حتىٰ الآن فيما تبقىٰ من جدران تلك المدينة.

---

(٨) سورة سبأ الآيات ١٥&١٦.

(فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور)[٩].

٣- منطقة الحجاز:

فتقع شمال اليمن، شرق البحر الأحمر وتمتد من شمال اليمن إلىٰ فلسطين وهي الأرض التي بارك الله فيها وقد سميت حجازا لأنها تحجز ما بين نجد وتهامة وأشهر مدنها مكة واسمها (مكوأرابا) أىٰ مكة العرب باللغة الأغريقية القديمة يقول الله (وجعلنا بينهم وبين القرىٰ التي باركنا فيها قرىٰ ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين)* وشمال مدينة مكة تقع مدينة يثرب (المدينة المنورة) وهىٰ أيضا مثل مكه من القرىٰ الظاهرة ولها العديد من الأسماء القديمة أحدها يدعىٰ طيبة ولسنا نعرف علىٰ وجه اليقين أيدل هذا الإسم علىٰ إرتباط من نوع ما بمدينة طيبة المصرية أم لا ولكن بعض الشواهد تدل علىٰ صلة ما إن وضعنا في إعتبارنا أن العرب كان لديهم إله يدعىٰ مناف وبمصر الفرعونية أيضا مدينة باسم منف ما يدعوا إلىٰ الإعتقاد بأن بعض القبائل المهاجرة اتجهت لمصر حاملة ماضيها معها إلىٰ تلك البقاع أوربما كان العكس ولقد دلت الكشوف الأثرية التىٰ أجريت حديثا (يولية ٢٠٠٧) علىٰ وجود آثار في هذه المدينة تدل علىٰ ازدهار الحياة فيها وقدر من الحضارة قبل ثمانية آلاف عام من الآن كما دلت علىٰ وجود أكثر من ٢٥٠ كهفا يبلغ طول أحدها حوالىٰ ١٥٠٠ مترا عاش فيها الأقدمون وهىٰ كهوف دلت علىٰ تكونها في عصر كانت الجزيرة العربية فية غزيرة الأمطار.

و تهامة تقع علىٰ ساحل البحر الأحمر، شمال اليمن، وجنوب الحجاز.

أما نجد فهىٰ غرب العراق، وجنوب الشام شرق الحجاز.

واليمامة تقع بين نجد وشرق اليمن وتتصل بالبحرين شرقا والحجاز غربا.

أما البحرين فهىٰ تطل علىٰ سواحل الخليج العربىٰ (الفارسىٰ) وتضم الآن منطقة الإحساء بالسعودية وقطر والكويت بالإضافة إلىٰ جزر البحرين والجزيرة العربية التي هي مصدر العنصر السامي، وبالتالي منبع الديانات السماوية تتوسط تقريبا قارات العالم القديم وكلما توسط المكان ما حوله من أمكنة كان صوته مسموعاً وحراكه مرئياً، إلا أنه

(٩) سورة سبأ الآية رقم ١٩.

وبالأخص نرىٰ مكة المكرمة تتوسط جغرافية العالم كله بعد الدراسات الأخيرة ويقول عز من قائل في كتابه العزيز (وكذلك جعلناكم أمة وسطًا) والوسطية المذكورة إنما عنت كل أشكال الوسطية، وهىٰ إنما تدل علىٰ ما ذكرناه في مقدمة الكتاب من أن كل آية من آيات القرآن الكريم إنما هي معجزة في حد ذاتها يدرك المؤمنون به إعجازة في كل عصركمعجزة في الدقة والشمول، وما كان لبشر أن يفتريه، ذلك لتوافق النص القرآنىٰ من سورة الأنعام الآيه رقم ٩٢" ولتنذر أم القرىٰ وما حولها"ولقد أمكن الله العلماء من كشف تلك الحقيقة مؤخرا بعد قرون من أخذ الآية فيما سبق علىٰ سبيل المجاز، ففىٰ عام ١٩٧٧ ميلادية كشف الدكتور حسين كمال الدين عن حقيقة علمية مفادها أن مكة المكرمة هىٰ مركز اليابسة في الكرة الأرضية وجاء هذا الكشف نتيجة جهد قد إستغرق سنوات من البحث العلمىٰ حيث تتوزع اليابسة حول مكة بانتظام، وبما أن الشمس هىٰ مركز المجموعة الشمسية وتضيئها بالنور فكذلك الكعبة ومكة تضيئ الأرض بالرسالة.

الساميون العرب

العرب أقدم الأمم السامية بعد الطوفان (بعد زمن نوح)، فهم من نسل سام بن نوح وينسب العرب الىٰ قحطان (أو يقظان) والذي إمتاز بالجلد والشجاعة والقوه والكبرياء، وقد قسم المؤرخون العرب إلىٰ ثلاثة أقسام عرب بائدة، وعرب عاربة، وعرب مستعربة.

اولا :العرب البائدة:

وهم أقوام العرب القدامىٰ الذين لم نتمكن من الحصول علىٰ تفاصيل كافية عن تاريخهم وهم قوم عاد، وثمود وطسم وجديس وعملاق وجرهم الأولىٰ.

وكان موطن عاد:

بأحقاف الرحل بين اليمن وعمان إلىٰ حضرموت والشحر ولقد أخبرنا عنهم القرآن الكريم إنهم لما ضلوا عن سبيل الله وعبدوا الأصنام أبادهم الله.

و ثمود:

فكانت ديارهم بالحجر ووادي القرىٰ بين الحجاز والشام وكانوا ينحتون بيوتهم في الجبال والصخور، إلا أنهم كانوا أهل كفر وبغي كما أخبرنا القرآن بإكثارهم الفساد فأبادهم الله أيضـًا.

وجديس وطسم:

كان موطنهما باليمامة، وهي إذ ذاك أخصب البلاد وأعمرها وأكثرها ثماراً وحدائق وقصور، واقتتلوا حتىٰ هلكوا جميعا.

أما عملاق:

فهم عرب تميزت أجسادهم بالطول ولا ندري أي منطقة سكنوا إلا أن الأرجح أنهم كانوا يسكنون شمال الجزيرة العربية، والأرجح أيضا أنهم هم الهكسوس، ولغتهم الآرامية.

وجرهم الأولىٰ:

فاليمن كانت ديارهم ويقال أنهم كانوا يتكلمون لغة سامية بين العربية والعبرية وكانوا علىٰ عهد عاد واندثروا.

ثانيا:العرب العاربة

هم العرب الأصلاء المنحدرة أصولهم من يعرب بن يشجب بن قحطان وتسمىٰ بالعرب القحطانية وكان قحطان يسمىٰ (سبأ) يكثر من الغزو والسلب وله عدة أبناء من الذكور وهم حمير وكهلان وعمر وأشعر وعاملة وجميع تبابعة اليمن من ولد حِميّر بن سبأ، والعرب العاربة فهم شعب قحطان، فمهدها بلاد اليمن وقد تشعبت قبائلها[١٠]. المذكورة سلفًا

إلا أن أكثر القبائل منها شهرة هي قبيلتان متناحرتان هما:

أ- (حِميّر)وأشهربطونها زيد الجمهور، وقضاعة والسكاسك وهي التي بقيت باليمن.

ب- (كهلان) وأشهر بطونها همدان، وأنمار، وطئ، ومذحج، وكندة، ولخم، وجذام، والأزد، والأوس، والخزرج، وأولاد جفنة ملوك الشام، وهذه البطون من كهلان قد هاجرت جميعها عن اليمن وانتشرت في أرجاء الجزيرة العربية قبل العرم حينما فشلت تجارتهم، لضغط الرومان وسيطرتهم علىٰ طريق التجارة البحرية، وإفساد الرومان طريق البر بعد سيطرتهم علىٰ مصر والشام.

(١٠) (فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) سبأ-١٩.

والمعروف أن المهاجرين من بطون كهلان ينقسمون إلىٰ أربعة أقسام

(الأزد- ولخم وجذام – بنو طيئ- وكندة)

١- الأزد:

وكان كبيرهم عمرو (مزيقباء) الأزدي الذي سار بهم يتنقلون في بلاد اليمن ثم إتجهوا شمالاً فاستوطن أبناؤه وهم أربعةأخوه:

- ثعلب بن عمرو (مزيبقاء) الازدي بالحجاز بين الثعلبية وذي قار ثم قادهم بعدما كبر أبناؤه ،وأقاموا بيثرب (المدينة المنورة) ومن أبناءه الأوس والخزرج أبناء حارث بن عمرو مزيبقاء الأزدي ويسمىٰ (خزاعة) فاستوطنوا ربوع الحجاز ونزلوا بمر الظهران ثم دخلوا مكة واجلو الجراهمة (قبيلة جرهم الثانية).
- أما عمران بن عمرو (مزيبقاء) الأزدي فاستوطن عمان.
- قبائل جفنه بن عمرو (مزيبقاء) الأزدي فكان خيارها الشام وهو ابو الغساسنة نسبة إلىٰ ماء بالحجاز قد مروا عليه وأقاموا حولة أثناء ترحالهم مع قبائل خزاعة (حارث بن عمرو).
- قبائل فر بن عمرو (مزيبقاء) الأزدي سكنت تهامة وهم أزد شنوءه.

٢- لخم وجذام:

وكان زعيمهم نصر بن ربيعة وهو أبو الملوك المناذرة بالحيرة بالعراق.

٣- بنو طيئ:

وقد ساروا بعد مسير الأزد نحو الشمال لكنهم نزلوا بالجبلين أجا وسلمىٰ وأستوطنوا هنالك حتىٰ عرف الجبلان بجبلي طيئ ومنهم حاتم الطائي.

٤- أما كندة:

فقد نزلوا البحرين (الإحساء والظهران الحالية) ثم اضطروا إلىٰ مغادرتها فنزلوا حضرموت ولاقوا هناك ما لاقوا بالبحرين ثم نزلوا نجد وكونوا هناك حكومة كبيرة الشأن إلا أنها سرعان ما فنيت واختفىٰ أثرها.

وهناك قبيلة أخرىٰ وإن اختلف نسبها إلىٰ جفنة بن عمرو (المزيبقاء) وهىٰ قبيلة حمير وهىٰ أيضا قضاعة – وهجرت اليمن واستوطنت السماوة بمشارف العراق.

ثالثا العرب المستعربة:

العرب المستعربة هم الأغلب فيمن يمكن أن يطلق عليهم العرب، سواء الآن أم في زمن الرسالة الإسلامية وما قبلها، فحتىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم منهم وهو ما ينفي عنصرية الرسالة، والمستعربون – في رأينا – هم من أدخلت إلىٰ دماؤهم دماء أجناس غير عربية أو كانت دماؤهم كلها غير عربية مهما كانت وهم ممن تعربوا بالثقافة والولاء والإنتماء والمواطنة، أما من كان يطلق عليهم العرب المستعربة في زمن الرسالة، فجدهم الأعلىٰ هو نبىٰ الله إسماعيل إبن نبىٰ الله إبراهيم عليهما السلام.

إبراهيم عليه السلام:-

هو سامىٰ من فرع سامي كلداني سمي عبراني بعد عبورة نهر الفرات فارا بدينه وليس عربىٰ وجاء ذكره في القرآن تسع وستين مرة ويثني الله علىٰ هذا النبي الذي احترم عقله فوظفه توظيفا راجحا في التعرف علىٰ خالقه من خلال التأمل في بديع صنعه وكان نموذجا فريدا في الإنسانية في التعرف علىٰ الله وشكره والإنابة إليه علىٰ الرغم من إستغراق أهله في وقومه في عبادة الأصنام والنجوم والنار وغيرها من مظاهر الطبيعة فكان إماما للتوحيد الخالص يقتدىٰ به في المنهج الإستقرائي

للكون من أجل معرفة خالقه وكان نموذجا للهداية وقد اجتباه الله وهداه إلىٰ صراط التوحيد الخالص وحفظه وعصمه من أذىٰ النمرود وجعله ونسله مصطفون للنبوة بدءا من إسماعيل عليه السلام حتىٰ محمد عليه السلام ومرورا بإسحق ومن عقبه يعقوب ويوسف وشعيب وأيوب وموسىٰ وهارون وذو الكفل وداوود وسليمان وإيلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيىٰ وعيسىٰ بن مريم عليهم السلام أجمعين.

يقول الله فيه:

(إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ *فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ*فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوٓا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ * قَالُوا

ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ * وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[11].

إسماعيل عليه السلام:-

وهو الغلام الذي بشر به الله إبراهيم، أمه هي السيده هاجر سليلة الفراعنة والتي صارت جارية بعد أن أسرها الهكسوس، فأنجبت له إبنه الأول إسماعيل وكانت قد أهديت لزوجته سارة من فرعون مصرعقب رحلة نبي الله إبراهيم كما هو معروف- والتي أهدتها بدورها لزوجها إبراهيم كجارية، إلا أن سارة شعرت بالغيرة لكونها عاقرفي ذلك الوقت، ومن ثم ألحت على نبي الله إبراهيم بإبعادها ونجلها عن فلسطين، وقد كانت تلك إرادة الله مهما كانت الأسباب - ولأن الله غالب على أمره - فقد أمره الله جلت حكمته أن يرحل بهما إلى واد محاط بجبال غير ذي زرع عند بيت الله المحرم- الذي لم يكن إذّذاك إلا مرتفعا من الأرض كالرابية- فتركهما عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس في مكة يومئذ أحد، ولا ماء بها، ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء ماء وتركهما بهذا الوادي عند (جبال فاران) كما أمره الله عائدا إلى فلسطين فسألته هاجر إن كان أمر الله فأجاب بالإيجاب ولم تجد الزوجه المؤمنة بربها إلا الرضوخ والتسليم والإمتثال لمشيئة الله عالمة أن لن يضيعهما الله، وانتصر اليقين على المنطق، ووضعت هاجر اللبنة الأولى للبشرية في معنى التسليم لأمر الله، بقيت سارة مع إسماعيل، ولما نفذ الماء والتمر بعد أيام، تفجرت بئر زمزم بفضل رحمة ورعاية الله، ولم تصر تلك المياه قوتا لسد الرمق فحسب، بل بلاغا لها بماآمنت به والأكثر من ذلك، أنه لما كانت هاجر قد سلمت لله فيما أمرت به، فقد كانت هي وابنها علامة لقبيلة يمنيه مارة بالمصادفة - ولم تكن تمرمن هذا الوادي- وهي قبيلة جرهم الثانية وكانت تلك القبيلة تسكن أطراف هذا الوادي، فلما عرفوا بقصة هاجروإبنها إسماعيل انتقلوا للعيش معهما تبركا وإيمانا بقوى خارقة وراء ما يؤمنان به من إله ونبي ومرت السنون وقد رأى نبي الله إبراهيم في المنام أنه يذبح إبنه الوحيد إسماعيل إذ لم يكن قد رزقه الله بإسحق بعد من سارة، فقام إبراهيم بإمتثال أمر ربه - وانتصر اليقين على

(١١)سورة الصافات من الآية ٨٤ حتى ١٠٢.

المنطق – وفى زيارته لمكه أخبر إبنة الوحيد بما أمره الله والذى كان رده هوالآخر آية من آيات التسليم والإمتثال، وقد قال الله تعالى في محكم آياته

(فلما بلغ معه السعي قال يا بنى إنى أرى في المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى، قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين * فلما أسلما وتله الجبين * وناديناه أن ياإبراهيم* قد صدقت الرؤيا * إنا كذلك نجزى المحسنين * إن هذا لهو البلاء المبين) [سورة الصافات من ١٠٢ -١٠٧]

وهنا ينبغي الإشارة إلى أن الله تعالى قد حفظ وعصم نبيه إسماعيل عليه السلام لأنه مدخر لنسل يأتي منه محمد عليه الصلاة والسلام، تماما كما عصم نبيه إبراهيم عليه السلام لأجل قيامه بالأدوار التي ينبغي عليه القيام بها، ومعجزات الحفظ والعصمة يمتع بها الله الأنبياء، فقد كتب عليهم أدوارا ينبغي عليهم القيام بها، كذلك قد يناله البشر العاديين، أحيانا صالحين كانوا أو غير ذلك، أيضا لأجل دور ما ينبغي عليهم أداؤة، وليست تلك إلا تغليب لإرادة الله، فالله بالغ أمره، تماما كما يعرض الله الأنبياء للإبتلاء والفتن (والبشر العاديين أيضاعلى تفاوت الدرجات) وقد كانت تلك هى الزيارة الإولى التى قام بها نبى الله إبراهيم لمكة بعد أن ترك زوجته هاجر وإبنه إسماعيل بها.

وفى زيارة إبراهيم الثانية لمكه والتى تمت بعد أن شب إسماعيل عن الطوق وتزوج من إمرأة من قبيلة جرهم، فجاء إبراهيم إلى دار إسماعيل، ولم يجد إبنه فسأل إمرأته عن إسماعيل وعن أحوالهما فضجرت بالشكوى من العوز، فأوصاها أن تخبر إسماعيل بأن يغير عتبة الدار.

لما عاد إسماعيل أخبرته إمرأته بما حدث، ففهم إسماعيل وصدع لأمر أبيه مسلمًا لأمر أبيه كما هو مفترض من إبن قد سلم قبلها بأمر الذبح، وطلق زوجته، وقد تزوج إسماعيل مرة أخرى من قبيلة جرهم الثانية التي اصطفاها الله إلا أن الزوجة كانت هذه المرة هى إبنة مضاض بن عمرو كبير جرهم وسيدهم والتى رزقه الله منها إثنى عشر ذكرا وكان اسماعيل كما ذكره القرآن:

(واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا *وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند الله مرضيا). [سورة مريم الآية رقم ٥٤- ٥٥]

في أثناء كل ذلك كانت زيارة إبراهيم الرابعة والأخيرة لإسماعيل في مكة التي أنشأها وقد أصبح جليا بعد كل ما سبق أن من سبط إسماعيل من هو مستعد لحمل الرسالة الخاتمة وأن قد آن الأوان لما بعد كل هذا الترتيب.

كان إسماعيل مستعدا لبناء الكعبة مع نبي الله إبراهيم، ورفعا القواعد لأول بيت وضع للناس، وأذن إبراهيم في الناس بالحج كما أمره الله، ولئن سبب الله الأسباب لخاتم الرسالة ففي بادئ الأمر يهدي الله إبراهيم إلى دين الحق، فيلقيه النمرود في النار فيأمر الله النار أن تكون بردا وسلاما على إبراهيم، فلا يسع المؤمنون بالله إلا أن يتبعوه إلى أي مكان بعدما ترك الله فيهم أثرا بأمره سبحانه للنار بإبطال مفعولها، ويصبح التسليم بأمر الله أمرا لا نقاش فيه.

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَوَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴿١٢٨﴾رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ [سورة البقرة من ١٢٥-١٣١]

وكان لهذا التلاقي بين إسماعيل العبري الأب المصري الأم، وإمرأة من بين أفضل نساء العرب ومن أفضل قبيلة، ما جعل لذرية إبراهيم من العزم وقوة البأس والجمع ما بين أفضل فضائل العرب والعبريين والمصريين وهم:

- نابت (او بنالوط)

هاجرت قبيلته إلى شمال الحجاز وكونوا حضارة الأنباط واتخذوا البطراء (البتراء) - وهي بالأردن الآن-عاصمة لهم حتى جاء الرومان فقضوا عليهم.

- قيدار

بقيت قبيلته بمكة وكان من نسلهم عدنان وولده معد ومنه حفظت العرب أنسابها ورسول الله صلىٰ الله عليه وسلم من نسله.

- أدب إيل (ومعناه من أدبه الإله).
- ميشام (ومعناه المبتسم).
- مشماع (و معناه المسموع).
- دوما
- ميشا
- حدد
- يتما
- يطور
- نفيس
- قيدمان

وربما كان الإنتقاء الإلهىٰ لزوجة من نسل جرهم دون أخرىٰ، أيضا يدخل ضمن هذا الترتيب الإلهىٰ لما أراده الله لنسل إسماعيل من إنتقاء واصطفاء، من اصطفاء، من اصطفاء حتىٰ يجعل الله الرسالة في نسل يرضىٰ عنه.

وهنا لا ينبغىٰ لنا ترك هذه الأمور إلا بعد بذل جهد ما للإيضاح والتعليق، كىٰ لا يضل القارئ بسبب هذه الأمور الجلية، فرجل في الثمانين من عمره يترك زوجته وإبنه بواد غير ذىٰ زرع ومعهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء، لا يمكن إلا أن يدان في عصرنا هذا وفىٰ كل عصور البشرية مهما كانت دوافعه، وفىٰ الثمانين من عمره أيضا علامة من العلامات التىٰ تثير العديد من التساؤلات والتعليقات، أما الأم التىٰ تقبل، فاللوم عليها ربما كان أكبر، ثم الإبن الذىٰ يسلم لأبيه كىٰ يذبحه، ويصدع لما يؤمر بتطليق زوجته لمجرد كلمه عرف أنها من أبيه، فيتزوج بأخرىٰ وما يدور بخلده إلىٰ متىٰ يستمر كل هذا، إنما يدل علىٰ تبعية ربما علقت عليها الأجيال كلها من بعد ذلك الزمن، اللهم إلا إن كانت حاله إيمانية أكبر من العقل والمنطق واللهم إلا إن كان الإيمان هو التسليم لله، والتسليم لله هو المطلوب من

البشر فلا عبودية إلا بالتسليم، التسليم بأمر الله هو الإسلام الحق ولها خصوصية بالأنبياء، لا ينتظر ولا ينبغىٰ أن تكون إلا لأولو العزم من الرسل وأىٰ عزم هذا، فليس من المنطقىٰ أو حتىٰ من المطلوب أن يرىٰ رجل أن يترك امرأتة مع وليدها بواد غير ذىٰ زرع فيصدع، والأكبر من ذلك أن يرىٰ في المنام أن يذبح ابنه ثم يقدم علىٰ ما يرىٰ في منامه هذا لبنىٰ البشر العاديين، أما نبىٰ الله إبراهيم والذىٰ كانت النار بردا وسلاما عليه، فله خصوصية أبو الأنبياء.

الأنبياء بوجه عام ممتحنون ومبتلون كما أسلفنا ولكنهم محصنون يحفظهم الله ويعصمهم لأن عليهم تكليفا ولابد أن يقوموا بالأداء، وهو الأمر الذىٰ قامت عليه كل الدعاوىٰ الإيمانية الإلهية، ولسوف نرىٰ ذلك بجلاء عند تناول سيرة رسل الله جميعا ، لكن حتىٰ الأنبياء والرسل بعد إبراهيم وإسماعيل لم يوضع أىٰ منهم في محن كتلك، ولقد علم الله نبيه موسىٰ هذه الخصوصية وإن كانت تجربته أهون آلاف المرات أثناء لقائه مع سيدنا الخضر، فلا المنطق ولا الإيمان يتيح لنبىٰ أو رسول أن يدع رجلا يخرق مركبا ثم يقتل طفلا دون تعليق، أو منع، ولا يمكن إلا للأنبياء أن يعوا الحكمة الإلهية منها وحتىٰ نبىٰ الله موسىٰ عليه السلام كان الأمر مختلطا عليه لولا إيمانه، ونبىٰ الله عيسىٰ بن مريم عليه السلام، في سيرته العطرة أبلغ الدلائل علىٰ ما ذهبنا إليه.

يقول الله تعالىٰ في سورة الصافات الآية ١٠٧ (إن هذا لهو البلاء المبين)

١- الطبائع

قبل أن نبدا الحديث عن أحوال العرب الدينية والتنظيمية في شبه جزيرتهم، ينبغىٰ علينا ان نلقىٰ بعض الضوء علىٰ طبيعتهم الأخلاقية ونظمهم الإجتماعية إلاّ أن علينا أن نعىٰ أنهم لم يكونوا إلاّ أهل بادية، ترحالهم من مكان لآخر هو دأبهم حيثما وجد العشب، وفىٰ مثل هذا الدأب، تصبح القبيلة هىٰ الملاذ والملجأ ولها الولاء وحدها، لا يعرفون قانوناً إلا قانون شيخ القبيلة ولا ولاء أو نظام إلا ما يشرعه لها وما يسنه لها، والقبيلة كلها، وعلىٰ رأسها شيخها لا تصبر علىٰ ما دون الحرية للفرد وللقبيلة لا يخدعه الإستقرار ولا تخدعه الطمأنينة باسم النظام كشأن أهل الحضر والمدن ولا يرض إلا بالمساواة كاستواء الصحراء أمامه، تلك الحياة التىٰ أكسبت العربىٰ صفات وقواعد مطلقة لا يحيدون عنها، مثل الشرف وهىٰ أوضح صفة كان الحيد عنها عاراً، لا يدانيه عار، لا يقبلون الضيم علىٰ أنفسهم أوعلىٰ

من استجار بهم، ويعملون علىٰ دفع الضيم ولو كلفهم ذلك أرواحهم، وإن عجزوا ارتحلوا، وساعدتهم أرض الجزيرة العربية التىٰ لا مطمع لغريب فيها علىٰ ذلك ....وقد دفعتهم بيئتهم الصحراوية إلىٰ التأمل والفصاحة فلا عمل لديهم سوىٰ الكلام والفصاحة والإفصاح، يقاس مقام الرجل منهم بشجاعته وبلاغته أكثر من القياس المادىٰ ومايملك الرجل منهم، والشعر كان كل حياتهم وكان كلام العرب، وقد يسرت عادات العرب الذين كانوا ذوىٰ ولع بالشعر عظيم قدرتهم علىٰ نقش قصائدهم في قلوبهم كما نقشوا كل ما يتعلق بأنسابهم وقبائلهم فخرا، ونمت ذاكرتهم غاية في النمو وهذه هىٰ إحدىٰ التدابير الربانية التىٰ اتخذها الله تعالىٰ لحفظ القرآن الكريم، إلا أن الشعر الذىٰ أنمىٰ قدرتهم علىٰ الحفظ هو الشعر الذىٰ أنمىٰ فيهم ميولهم إلىٰ المبالغة –فىٰ كل أمر تناولوه – والمبالغة هىٰ السمة التىٰ تعطىٰ قصائدهم المذاق والتأثير، فتتداول عنهم مبالغاتهم في شأن عنترة بن شداد، وحاتم الطائىٰ، زرقاء اليمامة، وغيرها من أقاصيص العرب المليئة بالتهويل والمبالغة، ثم لا نجد غضاضة في قبول المبالغات لما فيها من طرافة، ولقد كانت المبالغة سمتهم التىٰ اعتادوا عليها من بعضهم البعض وإلىٰ وقتنا الراهن للأسف، حتىٰ إذا ماجاءهم رسول الله، ثبت لديهم نمط جديد من الحديث بلا مبالغة، وبعظيم التأثير.

٢- المعتقدات:

المعتقدات كانت معتقدات العرب في الجاهلية مقسمة إلىٰ أربعة أصناف * كالتالىٰ:

- فصنف أنكر الخالق والبعث وقالوا بالطبع والحين والدهر المفنىٰ، وقد ذكرهم الله في كتابه العزيز في سورة الجاثية (الآية رقم ٢٤) "و قالوا ما هىٰ إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر "
- وصنف اعترف بالخالق وأنكر البعث وذكرهم الله في كتابه العزيز في سورة قٓ (الآية ١٥) "أفعيينا بالخلق الأول، بل هم في لبس من خلق جديد"
- و صنف يدين باليهودية أو النصرانية في اليمن وأماكن أخرىٰ متفرقة من جزيره العرب وقد زادت القبائل عن عشرين قبيلة يهودية أشهرها (خيبر – بني النضير – والمصطلق – وقريظة – والقينقاع) بالإضافة إلىٰ يهود اليمن.
- و غالبية عبدوا الأصنام

وكان معظم العرب قد اتبعوا دعوة إسماعيل عليه السلام، وحين دعاهم لدين أبيه إبراهيم عليه السلام، يعبدون الله ويوحدونه، فلما طال بهم الزمن نسوا حظا مما ذكروا به علىٰ الرغم من بقاء الموحدين فيهم، وقد كان عمرو بن لحىٰ كبيرخزاعة كثير الأسفار والتجارة بالشام، فاستحسن منهم التقرب إلىٰ الله بعبادة الأوثان، وظنىٰ أن الأمر إنما بدأ علىٰ هذا النسق ولما عاد وأتىٰ بهبل معه من الشام، قام بوضعه في جوف الكعبة، ودعا أهل مكة إلىٰ التقرب إلىٰ الله به فأجابوه، ولم يلبث أهل الحجاز أن اتبعوه متبعين أهل مكه لأنهم ولاة أهل البيت الحرام، ولما أتت القبائل للحج، طمعت القبائل في أصنام مثلها وكان عمرو بن لحىٰ قد راىٰ رئيا من الجن الذىٰ أخبره بأصنام قوم نوح (ود وسواع ويغوث ونسرويعوق) مدفونة بجدة، فاستثارها وأوردها تهامه ودفعها إلىٰ القبائل وذهبت بها، فأصبحوا ولكل قبيلة صنم سرعان ما عبدوها وتطورت الفوضىٰ فأصبح لكل بيت صنم، حتىٰ بلغت- حين فتح مكة ثلاثمائة وستين صنما .هكذا صار الشرك وعبادة الأصنام دين أهل الجاهلية وهم لا يزالون يزعمون أنهم علىٰ دين إبراهيم فيقولون كما ذكر القرآن الكريم "ما نعبدهم إلا ليقربونا لله زلفىٰ " وفىٰ قوله تعالىٰ من سورة يونس (الآيه١٨)"ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله، قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض، سبحانه وتعالىٰ عما يشركون" وهم في ذلك الوقت يعتقدون في بادئ الأمر أن عمرو بن لحىٰ قد ابتدع بدعة حسنة وكانت لتلك العبادات مراسم تبعدهم شيئا فشيئا عن دين الله وعن مكارم الأخلاق وكثرت معاصيهم، أما تفاصيل تلك المراسم فكانت كالتالىٰ:

- الإستعانة والإستغاثة بهاعند الشدائد
- الحج لها والطواف بها والقسم باسمها
- التقرب لها بالقرابين والنحر بأسمائها وتخصيص نصيبا من مأكلهم وحرثهم.

*) فخلف من بعدهم خلفا أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا) سورة مريم الآية ٥٩

قلب جزيرة العرب ص ١٥١ سوف يتم في الأبواب التالية سرد موجز وواف في شأن اليهودية والنصرانية وعلاقتهما بالعرب قبل الرسالة الإسلامية

أشهر الأصنام

١.صنم (ود) لقبيلة كلب بدومة الجندل ٢.صنم (سواع) لهذيل ٣.صنم (يغوث) و(يعوق)لقبيلة مذحج وقبائل اليمن. ٤.صنم (نسر)لقبيلة ذي الكلاع بأرض حميرباليمن. ٥.صنم (اللات) لثقيف بالطائف ٦.صنم (مناة) للأوس والخزرج بيثرب والمشلل (ساحل البحر الأحمر) ٧.صنمىٰ (اساف ونائلة) بين الصفا والمروة. ٨.صنم (العزىٰ) لقريش وبنىٰ كنانة بمكة ووادىٰ نخلة ٩. صنم (هبل) وكان أعظم أصنام العرب قاطبة وكان علىٰ ظهر الكعبة. (١٢).

وفيهم يقول الله تعالىٰ في سورة الأنعام (الآية١٣٦) " وجعلوا لله ما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم فلا يصل لله، وما كان لله فهو يصل إلىٰ شركائهم، ساء مايحكمون "، وفىٰ الآية (١٣٨) "وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه، سيجزيهم بما كانوا يفترون"

- كانوا يستقسمون بالأزلام.
- كانوا يؤمنون بأخبار الكهنة والعرافين والمنجمين والطيرة.
- أحلوا لأنفسهم ألا يقفوا بعرفة ولا يفضون منها لأنهم أبناء إبراهيم.
- حرموا علىٰ أنفسهم ألا يدخلوا بيوتهم وقت الحج من أبوابها بل من ظهرها ولا يدخلون بيتا من شعر ولا يستظلون إلا في بيوت الأدم.

وبهذه التخاريف المبتدعة ضل عمرو بن لحىٰ وأضلهم رغم تعظيمهم البيت الحرام ورغم إعتبارهم لأنفسهم علىٰ دين إبراهيم وأصبحوا في جاهلية (١٣)، وقانا الله منها ومن أشرار المبتدعين (فخلف من بعدهم خلفا أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا) سورة مريم الآية ٥٩

---

(١٢)الرحيق المختوم للشيخ صفىٰ الرحمن المباركفورىٰ.

(١٣)وإن كان أبناء إسماعيل من العرب قد انحرفوا بدين إبراهيم عن التوحيد فقد نحىٰ هذا النحو ايضا ابناء إسحق من العبرانيين قبل موسىٰ وبعده كما سنرىٰ يقول الله في سورة الحديد الآية ٢٥ (ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد ووكثير منهم فاسقون).
كما وجدت المجوسية واليهودية والمسيحية والصابئية سبيلها لبلاد العرب
المقصود من غير إسماعيل عليه السلام أول العرب المستعربة ورسول الله محمد عليه الصلاة والسلام.

كانت هذه هىٰ وثنية العرب، أما ما جد عليها من ديانات – كاليهودية والمسيحية والمجوسية – فسوف يتم تناولها عند تناول النظم السياسية عند العرب.

٣ - الديانات في بلاد العرب وأنبياء العرب:

أصر العرب البائدة علىٰ معتقداتهم وعبادة الأصنام فأرسل الله لهم:

١. هوداً عليه السلام – وابتعث لدعوة قوم عاد بالأحقاف من العرب البائدة بشمال حضرموت باليمن فاستكبر كثرتهم

٢. صالحـاً عليه السلام – وابتعث لدعوة ثمود بتبوك وتقع بالحجر بين الحجاز والشام بالقرب من خليج العقبة.

٣. شعيباً عليه السلام – وابتعث في شعب مدين شمال الحجاز شمال الجزيرة العربية

قبل بعثة نبىٰ الله موسىٰ مباشرة، وقد دعوا إلىٰ الله فما استجاب لهم عرب ذلك الزمان وتلك الأماكن المحيطة بالجزيرة العربية وكانت لهم حضارات إلا أنهم استكبروا فحق عليهم العذاب وفي ذلك يقول الله جل وعلا في سورة الإسراء الآية ١٥ " وما كنا معذبين حتىٰ نبعث رسولا"

أ – المجوسية:

كان معظم المؤمنون بها في العرب المجاورين لبلاد الفرس في عراق العرب وشرق الجزيرة العربية (الإحساء) وهو ما كان يعرف وقتها بالبحرين وهجر وما جاورها من السحل الغربىٰ للخليج العربي ودان بها بعض أهل اليمن زمن الإحتلال الفارسي لها واندثرت بعدها [١٤].

ب- الصابئية:

كانت ديانة قوم عاصروا إبرهيم عليه السلام (وهم الكلدانيين) وقد دان بها الكثير من أهل الشام وأهل اليمن في غابر الزمان وقد خمد نشاطها إلا أنه لا يزال هناك البقايا منهم مختلطين مع المجوس أومجاورين لهم في عراق العرب [١٥].

(١٤)قلب جزيرة العرب (١٥١).

(١٥)قلب جزيرة العرب (١٥١).

ج- اليهودية:

لليهود هجرتان لبلاد العرب بدأت قبل الإسلام ب١٢ قرن

الأولىٰ وكانت هجرتهم من فلسطين في عهد الفتوحات البابلية والآشورية لفلسطين وتخريب بلادهم وتدمير الهيكل في عهد بختنصر سنة ٥٨٧ ق م وسبي أكثرهم فتوطنوا ربوع الحجاز الشمالية(١٦).

الثانية تبدأ مع إحتلال الرومان لفلسطين بقيادة بومبي عام ٦٣ ق م فاستقرت قبائل يهودية جديدة في يثرب وخيبرو تيماء وأنشأت القلاع والآطام والحصون وانتشرت الديانة اليهودية بين العرب وأصبح لليهود شأن يذكر في الحوادث السياسية التي سبقت ظهورالإسلام، وكانت القبائل المشهورة هي خيبر والنضير والمصطلق وقريظة وقينقاع وكانت القبائل اليهودية تزيد علىٰ العشرين قبيلة(١٧). تطلعا إلىٰ النبي المبشر به في التوراة الذي سيظهر بأرض ذات سبخة وبها نخيل ويخرج من من جبال فاران وهي جبال مكة.

الثالثة وفيها دخلت اليهودية إلىٰ اليمن من خلال (تبان أسعد أبي كرب) الذي ذهب مقاتلا إلىٰ يثرب فهداه يهود من بني قريظة إلىٰ اليهودية وتحمس لها، حتىٰ إذا ماتولىٰ ابنه يوسف ذىٰ النواس بعده هجم علىٰ المسيحيين من أهل نجران وخد لهم الأخدود وحرقهم فيه عام ٥٢٣ ميلادية(١٨).

د - المسيحية:

جاءت المسيحية إلىٰ بلاد العرب علىٰ يد مبشرين مصريين، وعند احتلال الحبشة لليمن عام ٣٤٠ ميلادية الذي استمرت حوالي ٤٠ سنة، ولكن لما فعل أبو نواس الحميري الذي اعتنق اليهودية فعلته بالأخدود عام ٥٢٣ م احتلت الحبشة اليمن مرة أخرىٰ إنتقاما لحادث الأخدود، وملك اليمن أبرهة هو الذىٰ حاول نشر المسيحية في بلاد العرب بحادثة الفيل المشهورة والتي سنتناولها فيما بعد بالتفصيل(١٩). في الفصل الثامن من هذا الجزء وفي

(١٦)قلب جزيرة العرب (١٥١).

(١٧)السمهودىٰ / وفاء الوفاء ص١١٦/ قلب جزيرة العرب (١٥١) وكذلك نص القرآن الكريم في سورة البقرة بالآية ٨٩ (وكانوا من قبل يستفتحون علىٰ الذين كفروا).

(١٨)تفهيم القرآن ٦\٢٩٨\٢٩٧ – إبن هشام ١\٢٠-٢٧,٢٢-٣٦.

(١٩)لاينطبق هذا إلا علىٰ داوود ومحمدعليهما السلام

* كتاب (هذا الحبيب يامحب) لأبي بكر جابر الجزائري

الفصل الأول من الجزء الثاني من هذا الكتاب وفضلا عن اليمن تأثر العرب الغساسنة وقبائل تغلب وطيئ واعتنقها ملوك الحيرة بحكم اقترابهم جغرافيا وتبعيتهم لروما.

هـ - بشارات النبوة لمحمد في الكتب السماوية*:

(وكانوا من قبل يستفتحون علىٰ الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله علىٰ الكافرين) فماذا كفروا وأخفوا مماعرفوا واستفتحوا به العرب

جاء في الزابور (ومن أجل هذا بارك الله عليك إلىٰ الأبد، فتقلد أيها الجبار بالسيف لأن البهاء لوجهك، والحمد الغالب عليك، اركب كلمة الحق، فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك وسهامك مسنونة والأمم يخرون تحتك)[٢٠].

وفي التوراة (إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتىٰ يقيم به الملة العوجاء، ويفتح عيونا عميا، وقلوبا غلفا وآذانا صما فيقولو لا إله إلا الله)[٢١].

وجاء في التوراة مخاطبا موسىٰ عليه الصلاة والسلام (أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به) [٢٢].

قال أشعيا النبي عليه السلام (ولد لنا غلاما يكون عجبا وبشرا، والشامة علىٰ كتفيه، أركون السلام وسلطان السلم يجلس علىٰ كرسي داوود)[٢٣].قال حزقيال عليه السلام مخاطبا اليهود (إن الله يظهر عليكم، فباعث فيهم نبيا، منزل عليه كتابا، ويملكهم رقابكم فيقهرونكم ويذلونكم بالحق، فيخرج رجال من بني قيدار في جماعات الشعوب ومعهم ملائكة علىٰ خيل بيض[٢٤]. متسلحين فيحيطون بكم، وتكون عاقبتكم إلىٰ النار)

وقال دانيال عليه السلام بعد غزو بختنصر لبلاد اليهود (إن الله يقول لي: إن بني إسرائيل أغضبوني، وتمردوا علي، وعبدوا آلهة من دوني وصاروا من العلم إلىٰ الجهل، ومن بعد الصدق إلىٰ الكذب، فسلطت عليهم بختنصر، فقتل رجالهم وسبىٰ ذرياتهم،

---

(٢٠)لا ينطبق إلا علىٰ محمدعليه الصلاة والسلام.

(٢١)لا ينطبق إلا علىٰ محمد عليه الصلاة والسلام.

(٢٢)لا ينطبق إلا علىٰ محمد عليه الصلاة والسلام.

(٢٣)لا ينطبق هذا الوصف إلا علىٰ الملائكة التي قاتلت مع المسلمين في بدر وغيرها.

(٢٤)هي كلمات تصف باختصار تاريخ اليهود وما أراده الله من نبيه محمد ويصف قصة الإسراء والمعراج.

وهدم بيت مقدسهم وحرق كتبهم وكذلك فعل من جاء بعده بهم، وأنا غير راض عنهم، ولا مقيلهم من عثراتهم، فلا يزالون مغلوبين وعليهم الذلة والمسكنة حتىٰ أبعث فيهم نبيا من بني إسماعيل الذي بشرت به هاجر، وأوحي إليه وأعلمه الأسماء وأزينه بالتقوىٰ، أجعل البر شعاره، والتقوىٰ ضميره، والصدق قوله والوفاء طبيعته، والقصد سيرته، والرشد سنته، أخصه بكتاب مصدق لما بين يديه، وناسخ لبعض مافيه، أسري به إلي من سماء إلىٰ سماء حتىٰ يعلق فأدنيه، وأسلم عليه وأوحي إليه، ثم أرده إلىٰ عبادي بالسرور والغبطة، حافظا لما استودع، صادعا بما أمر، يدعو إلىٰ توحيدي باللين من القول، والموعظة الحسنة، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، رؤوف بمن والاه، رحيم بمن آمن به، خشن علىٰ من عاداه فيدعوا قومه إلىٰ توحيدي وعباتي، ويخبرهم بما رأىٰ من آياتي فيكذبونه ويؤذونه).

وجاء في الإنجيل بشارة عيسىٰ بالفراقليط (أحمد)

(اذكروا الكلام الذي قلت لكم، ليس عبد أفضل من سيده، إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدوكم وإن كانوا قد حفظوا كلامي فسيحفظون كلامكم لو ما كنت قد جئت ودعوتهم إلىٰ الله ما كانت لهم خطيئة أما الآن فقد رأوا آيات الله وكفروا فلاعذر لهم*، الذىٰ يبغضني يبغض الله، لو لم أكن قد أتيت لهم بآيات من الله ما كانت لهم خطيئة، أما الان فقد رأوا آيات الله وكفروا بالله ورسوله، بعد قليل لا تبصرونني، لأني ذاهب إلىٰ الله، ومتىٰ جاء (الفراقليط) الذي سيرسله الله، روح الحق الذي هو عبده، فهو يشهد لي، وتشهدون أنتم أيضا، لأنكم معي منذالإبتداء، أما الآن فأنا ماض، ولا يسألني أحد إلىٰ أين تمضي، قلت لكم هذا والآن ملأ الحزن قلوبكم ولكنه خير لكم أن أمضي لأني إن لم أنطلق لا يأتيكم الفراقليط، وهو سيرشدكم إلىٰ جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمعه يتكلم به).

وجاء في الإنجيل أيضا

(الكلام الذي أكلمكم به لست أتكلم به من نفسي ولكن الله يوحيه إلي، إني ذاهب إلىٰ الله، فإن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الله أن يعطيكم فراقليط آخر والكلام الذي تسمعون ليس كلامي بل كلام الله الذي يوحيه إلي وأما الفراقليط الآخر الذي سيرسله الله فهو سيعلمكم كل شيئ وسيذكركم بكل ما قلت أقول لكم إني ذاهب إلىٰ الله وٍأعود إليكم، ولوكنتم تحبونني لفرحتم لأني ذاهب إلي الله وهو أعظم مني)،

٤- النظم السياسية عند العرب:

بالمقارنة بأغلب أمم الأرض، لم تكن للعرب نظم سياسية بالمعنىٰ المفهوم في ذلك الزمان، كانت حياتهم كما أسلفنا، بعيدة عن الإستقرار أو الطموحات القومية، إلا أن ظروفهم الجغرافية، بمتاخمة بعض من أجزاء الجزيرة العربية لإمبراطوريات تمثل قوىٰ عظمىٰ في زمانهم، قادت إلىٰ إختلاق بعض النظم السياسية شبه المستقلة، بين أشباه الإمارات وأشباه الممالك بكيانات واهية مليئة بالحروب والضغائن لتبعية تلك الكيانات بدول أكبر تسير علىٰ أجندتها، فقد كان لدىٰ العرب بعض من الملوك المتوجين، وكانوا في أغلب الأحيان علىٰ رأس حكومات عميلة وهزيلة تم تكوينها بناء علىٰ مصالح الدول المجاورة كالإمبراطورية الفارسية (كمملكة الحيرة)، والإمبراطرية الرومانية (كمملكة الغساسنة) تعمل كحواجز لحمايتهما من غارات العربان البدو، ولتأديب تلك القبائل، وكذلك للقيام ببعض الأعمال الإدارية كجباية الضرائب من العرب الذين يسكنون بها، الىٰ جانب خدماتهم العسكرية الهزيلة في حال نشوب قتال بين القوتين العظمتين آنذاك، وهو تقريبا الدور المنوطة به بعض حكومات الوقت الحاضر والأكثر من ذلك أن تلك الحكومات كانت في الغالب تتبنىٰ نمطا حياتيا شبيها بالإمبراطورية التىٰ أنشأتها وتجاورها جغرافيا - بل وتدين في الأغلب بدينها - وكان من الملوك المتوجين ملك الغساسنة وملك الحيرة، إلا أنه في الطرف الجنوبىٰ الغربىٰ كان هناك مُلكـًا باليمن تراوح وضعه بين الإستقلالية والتبعية كما سيأتىٰ في حينه.

أما باقىٰ الجزيرة العربية فلم تكن خاضعة لأىٰ نظام سياسىٰ، إذ لم يكن يحكم الأنماط البشرية المتجولة في الجزيرة العربية وراء المرعىٰ سوىٰ رؤساء القبائل والعشائر والذين كانوا بدورهم يسنون القوانين النابعة من الأعراف السائدة عندهم منذ مئات وآلاف السنين والقائمة علىٰ القيم البدوية المتيمة بالحرية، والمقدسة لخلال الشجاعة والكرم والنخوة ورفض الضيم، والمصالح الآنية الضيقة كانت تدفعهم أحيانا إلىٰ التحالف مع بعضهم البعض ضد بعضهم البعض أو مع الأغراب ضد بعضهم البعض، غير مدركين لعوامل الزمن وغير آبهين بالتطورات الفكرية والعلمية والإجتماعية الجارية في العالم من حولهم، إلا أن شعورهم بالتفرد، وبصلات الرحم، والخصوصية العرقية والعصبيات الواحدة كانت في بعض المواقف توحدهم إذا ما مست الأحداث والنوازل والتحديات قيمة غالية من القيم السائدة عندهم، فانقلبت نظرتهم الآنية في بعض المواقف إلىٰ شعور قومىٰ

جارف قبل الإسلام، إلىٰ تحالف ضد الدولة الفارسية فانتصروا عليها في واقعة شهيرة آنذاك وهىٰ موقعة ذىٰ قار.

فىٰ الجزيرة العربية أيضا، كان هناك وضعا فريدا غاية في التفرد، ففىٰ منطقة الحجاز، التي إعتاد العرب أن ينظروا اليها بنظرات التبجيل والإحترام كإرث فكرىٰ وروحىٰ – منذ زمن نبىٰ الله إسماعيل عليه السلام – والتىٰ عزز مركزها الروحىٰ والدينىٰ والفكرىٰ وجود الكعبة المشرفة بها، ومن ناحية أخرىٰ، كانت الحجاز بمثابة أكبر مركز تجارىٰ في الجزيرة العربية بحكم رحلتىٰ الشتاء والصيف، إذ تفرد موقعها بجلب البضائع من اليمن والتىٰ كانت أصلا علىٰ صلة تجارية بالهند وصلات تجارية وسياسية بالحبشة، وإعادة التصدير إلىٰ باقىٰ التجمعات السكانية في الجزيرة العربية وكذلك الىٰ دولتىٰ الفرس والروم وبالعكس، وقد كانت تلك الأعمال التجارية – وهىٰ ما تعرف اليوم بالوسيط التجارىٰ وإعادة التصدير –هىٰ السبب الرئيسىٰ الذىٰ جعل لسكان مكة وما حولها في وضع مميز إجتماعيا وفكريا وثقافيا وفكريا عن باقىٰ العرب وكان المكيون وسكان الطائف هم الطبقة الأرستقراطية العربية في ذلك الوقت، وكما يحدثنا عملاق الأدب العربي عباس محمود العقاد، فإن النبوآت الكبيرة كانت ترتبط بمدن القوافل، لأنها بيئة وسطىٰ ما بين الحضارة والبداوة، فكذلك كانت (أور)، بعلبك، بيت المقدس، مكة، ويثرب، ومدين فكلها محلات الطريق جنوب فلسطين وشمال الحجاز وهي بيئات، لا إلىٰ الحضارة المتمدينة التي تعول في التشريع علىٰ نظام الدولة، ولا إلىٰ بداوة الصحراء التىٰ تعول في تشريع الحقوق علىٰ سنة الغلبة والثأر ولكنها مدن قوافل وسط بين الجانبين، مع حاجتها إلىٰ تقرير الحقوق في كل لحظة، لدوام المعاملات واشتباكها ولكثرة الطارقين ذهابا وإيابا، ممن يجدون المال، ويبحثون عن المتعة العارضة، ويحاول كل منهم أن يغلب صاحبه في سوق الأخذ والعطاء، وغلبة الخداع والإدعاء.

كل ما مضىٰ ذكره، أدىٰ إلىٰ بزوغ نخبة أرستقراطية علىٰ قمة مجتمع بورجوازىٰ لا تعرف للإنتاج سبيلا، وإنما تنعم بوفرة العيش إلىٰ جانب الإطلاع المتواصل علىٰ أحدث ما وصلت إليه الصناعات في الأمم المجاورة، والأخباروالتقلبات السياسية المحيطة ناهينا عن الصلات التجارية وتنامىٰ المصالح بين كبار تجار مكة مع ملوك ووجهاء الأمم المحيطة، أضف إلىٰ كل ما سبق تطورها الأدبىٰ، ورقيها الثقافىٰ والمعرفىٰ المتنوع بحكم عقد المسابقات الخطابية والشعرية أثناء مواسم الحج، وكان لتفردها هذا أبلغ الأثر في توصل

سكان مكة بالتحديد إلىٰ شكل برلمانيٰ، وحكومة شبة جمهورية، ولواء، وغيره كما سيأتىٰ لاحقا.

أ- الملك باليمن: (من قبل ١٦٥٠ق م حتى ٥٧٠ م)

من أقدم الشعوب التي عرفت باليمن من العرب العاربة قوم سبأ، وقد عثر علىٰ ذكرهم في حفريات (أور) بخمسة وعشرين قرنـًا قبل الميلاد ويبدأ ازدهار حضارتهم ونفوذ سلطانهم وبسط سيطرتهم بأحد عشر قرنـًا قبل الميلاد أي بعد زمن نبي الله موسىٰ عليه السلام (بالتحديد في عهد القضاة كما سيأتي في تاريخ اليهود).

ويمكن تقسيم أدوارهم حسب التقدير الآتي:

١) القرون التي خلت قبل سنة ١٦٥٠ق.م، وكان ملوكهم يلقبون في هذا الزمن ب (مكرب سبأ) وكانت عاصمتهم بلدة (صرواح) التي توجد أنقاضها علىٰ مسافة يوم الىٰ الجانب الغربي من بلدة (مأرب)وتعرف بإسم (خريبة) وفي زمنهم بدأ بناء السد الذي عرف بسد مأرب، والذي له شأن كبير في تاريخ اليمن، ويقال إن قوم سبا كانوا قد بلغوا من بسط سلطتهم إلىٰ ان اتخذوا المستعمرات في داخل العرب وخارجها.

٢) منذ سنة ١٦٥٠ق.م الىٰ سنة ١٠١٥ق م (أكثر من ستة قرون) وفي هذا الزمن تركوا لقب (مكرب) وعرفوا بملوك سبأ واتخذوا)مأرب) عاصمة لهم بدل (صرواح) وتوجد انقاضها علىٰ بعد ستين ميلاً من صنعاء إلىٰ جانبها الشرقي وفىٰ بداية هذا الزمان آمنت بلقيس ملكة سبأ بدين نبي الله إبراهيم في زمن نبي الله سليمان عام ٩٧٠ ق م وفي القرن الرابع قبل الميلاد جاءت بعض مجموعات من اليهود من بابل إلىٰ اليمن للتجارة ثم استقرت اليمن علىٰ اليهودية التي بقوا عليها حتىٰ هداهم الأحباش للمسيحية.

٣) من ١١٥ ق.م الىٰ سنة ٣٠٠ميلادية (حوالي أربعة قرون) وفي هذا العهد غلبت قبيلة حمير علىٰ مملكة سبأ، واتخذت بلدة (ريدان) عاصمة لها بدل (مأرب) ثم سميت بلدة (ريدان) باسم ظفار، وتوجد انقاضها علىٰ جبل مدور بالقرب من (يريم) وفي هذا العهد بدأ فيهم السقوط والانحطاط فقد فشلت تجارتهم الىٰ حد كبير للأسباب الدنيوية التالية:

- لبسط سيطرة الأنباط في شمال الحجاز اولاً،
- ثم لغلبة الرومان علىٰ طرق التجارة البحرية بمد نفوذ سلطانهم علىٰ مصر وسوريا وشمالي الحجاز ثانياً،
- ولتنافس القبائل اليمنية فيما بينهما ثالثاً،

أما السبب الرئيسي فكان لإعراضهم عن الإيمان ولاتباعهم الشيطان كما ذكر لنا الله في سورة سبأ (من ١٥-٢٠)

(لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ*فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ*ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ*وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ* فَقَالُوا رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ*وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ*)

وكانت تلك العناصر هي التي سببت في تفرق آل قحطان وهجرتهم الىٰ البلاد الشاسعة.

١- منذ سنة ٣٠٠م الىٰ أن دخل الأسلام (حوالي ثلاثة قرون)

في اليمن وفي هذا العهد توالت عليهم الأضطرابات والحوادث، وتتابعت الانقلابات، والحروب الاهلية التي جعلتهم عرضة للأجانب حتىٰ قضت علىٰ إستقلالهم. ففي هذا العهد تدخل الرومان في عدن ووبمعونتهم احتلت الأحباش اليمن لاول مره سنة ٣٤٠م، مستغلين التنافس بين قبيلتي همدان وحمير، واستمر احتلالهم الىٰ سنة ٣٧٨م ثم نالت اليمن استقلالها، ولكن بدأت تقع الثلمات في سد مأرب، حتىٰ وقع السيل العظيم الذي ذكره القرآن الكريم بسيل العرم في سنة ٤٥٠م او ٤٥١م وكانت حادثة كبرىٰ أدت الىٰ خراب العمران وتشتت الشعوب (عد إلىٰ صفحة ٤٦).

٢- وفي سنة ٥٢٣م

قاد ذو نواس الحميري وهو من قد ورث ملك (تُبّع) الذي اعتنق اليهودية حملة منكرة علىٰ المسيحيين من أهل نجران، وحاول صرفهم عن المسيحية قسراً ولما أبوا، خد لهم

الأخدود وألقاهم في النيران، وهذا الذي أشار إلية القرآن الكريم في سورة البروج بقوله تعالىٰ (قتل أصحاب الأخدود) وكان من جزاء تلك المذبحة البشعة نقمة النصرانية الناشطة الىٰ الفتح والتوسع تحت قيادة أمبراطور الرومان علىٰ بلاد العرب فحرضوا الأحباش، وهيأوا لهم الأسطول البحري، ونزل سبعون ألف جندي من الحبشة، واحتلوا اليمن مرة ثانيه، بقيادة أرياط سنة ٥٢٥م، وظل أرياط حاكماً من قبل ملك الحبشة حتىٰ اغتاله أبرهة- أحد قواد جيشة - وحكم بدله بعد أن استرضىٰ ملك الحبشة وأبرهة هذا هو الذي جند الجنود لهدم الكعبة وعرف هو وجنودة بأصحاب الفيل.

٣- وبعد واقعة الفيل عام ٥٧٠ م

استنجد اليمانيون بالفرس، وقاموا بمقاومة الحبشة حتىٰ أجلوهم عن البلاد، ونالوا الأستقلال في سنة ٥٧٥م (بعد مولد رسول الله محمد بخمس سنوات) بقيادة معد يكرب بن سيف ذي يزن الحميري، واتخذوه ملكاً عليهم، وكان معد يكرب قد أبقىٰ معة جمعاً من الحبشة يخدمونه ويمشون في ركابه، فاغتالوه ذات يوم من عام ٦١٥ م وبموته انقطع الملك عن بيت ذي يزن، وولىٰ كسرىٰ عاملاً فارسياً علىٰ صنعاء وجعل اليمن ولاية فارسية فلم تزل الولاة من الفرس تتعاقب علىٰ اليمن حتىٰ كان آخرهم باذان الذي اعتنق الإسلام سنة ٦٣٠م. وباسلامه انتهىٰ نفوذ فارس علىٰ بلاد اليمن.

ب- الملك بالحيرة:

كانت الفرس تحكم العراق وما جاورها منذ أن جمع شملهم قورش الكبير (٥٥٧ق م-٥١٩.ق م) وهو الذي أعاد اليهود لفلسطين من بابل ولم يكن أحد يناوئهم، حتىٰ قام الاسكندر المقدوني سنة ٣٢٦ق.م فهزم ملكهم دارا الاول ووكسر شوكتهم حتىٰ تجزأت بلادهم وتولاها ملوك يعرفون بملوك الطوائف، واستمروا يحكمون البلاد مجزأة الىٰ سنة ٢٣٠م.

وفي عهد هؤلاء الملوك هاجر القحطانيون واحتلوا جزءاً من ريف العراق ثم لحقهم من هاجر من العدنانيين فزاحموهم حتىٰ سكنوا جزءاً من الجزيرة الفراتية. وعادت القوة مرة ثانية الىٰ الفرس في عهد أردشير – مؤسس الدولة الساسانية منذ سنة ٢٢٦م- فجمع شمل الفرس، واستولىٰ علىٰ العرب المقيمين علىٰ تخوم ملكه، وكان هذا سبباً في رحيل قضاعة الىٰ الشام، ودان له أهل الحيرة والأنبار.

*هذا الجزء منقول كما هو حتىٰ نهاية الجزء الخاص بالحكم في بلاد الشام بقليل من التصرف من كتاب الرحيق المختوم لكاتبه الشيخ صفىٰ الرحمن المباركفورىٰ إذ لم يجد الكاتب أفضل من هذا السرد.

تبع:ملك يمني قام بأعظم الفتوحات في زمانه ودان له الجزء الغربي من الجزيرة العربية ومصر وشمال أفريقيا واستمر في فتح بلاد المشرق من فارس وما بعدها وفي طريق عودته علم أن الأوس والخزرج في يثرب قد قتلوا ابنه وكان عامله عليها واستعدوا لملاقاته فلاقاه حبران أتوا من يثرب وهدياه لليهودية وأوصياه بكسوة الكعبة حين وصوله مكة ففعل ودخلت اليهودية اليمن منذ ذلك الحين (علىٰ هامش السيرة) د طه حسين من ص ٦٥ حتىٰ ص٨٧

وفي عهد أردشير، كانت ولاية جذيمة الوضاح علىٰ الحيرة وسائر بادية العراق والجزيرة من ربيعة ومضر، وكان أردشير قد رأىٰ انه يستحيل عليه أن يحكم العرب مباشرة ويمنعهم من الاغارة علىٰ تخوم ملكه إلا بأن يملك عليهم رجلاً منهم له عصبية تؤيدة وتمنعة، ومن جهة اخرىٰ يمكنه الأستعانه بهم علىٰ ملوك الرومان الذين كان يتخوفهم، وليكون عرب العراق أمام عرب الشام الذين اصطنعهم ملوك الرومان، وكان يُبقي عند ملك الحيرة كتيبة من جند الفرس (و هىٰ بمثابة قاعدة عسكرية بلغة عصرنا)، ليستعين بها علىٰ الخارجين علىٰ سلطانه من عرب البادية.

بعد موت جذيمة حوالي سنة ٢٦٨م ولي الحيرة عمرو بن عدي بن فر اللخمي، أول ملوك اللخميين -في عهد كسرىٰ شهبور بن اردشير - ثم لم تزل الملوك من اللخميين تتوالىٰ علىٰ الحيرة حتىٰ ولي الفرس قباذ بن فيروز، وفي عهده وعهد عمرو بن عدي بن فر اللخمي ظهر (مزدك)، وقام بالدعوة الىٰ الإباحية، فتبعة قباذ بن فيروز (٤٤٨م) كما تبعه كثير من رعيته، ثم أرسل قباذ الىٰ ملك الحيرة- وهو المنذر بن ماء السماء – يدعوه الىٰ ان يختار هذا المذهب ويدين به، فأبىٰ علية ذلك حمية وأنفه، فعزلة قباذ، وولىٰ بدله الحارث بن حجر الكندي بعد أن أجاب دعوتة الىٰ المذهب المزدكي فخلف قباذ كسرىٰ أنوشروان، وكان يكره هذا المذهب، فقتل المزدك وكثيراً ممن دانوا بمذهبة، وأعاد المنذر الىٰ ولاية الحيرة، وطلب الحارث بن حجر ولكنه أفلت الىٰ دار كلب، فلم يزل فيهم حتىٰ مات.

استمر المُلك بعد المنذر بن ماء السماء في عقبة، حتىٰ كان النعمان بن المنذر (٥٨٧م)، وهو الذي غضب عليه كسرىٰ بسبب وشاية دبرها زيد بن عدي العبادي، وارسل كسرىٰ الىٰ النعمان يطلبة، فخرج النعمان حتىٰ نزل سراً علىٰ هانئ بن مسعود سيد آل شيبان فأدوعه أهله وماله، ثم توجه الىٰ كسرىٰ، فحبسة كسرىٰ حتىٰ مات وولي علىٰ الحيرة بدله إياس بن قبيصة الطائي وأمره أن يرسل الىٰ هانئ بن مسعود يطلب منه تسليم ما عنده من نساء النعمان لإتخاذهن سبايا، فابىٰ ذلك هانئ حمية، وآذن الملك بالحرب ولم تلبث أن جاءت مرازبه كسرىٰ وكتائبه في موكب إياس وكانت بين الفريقين موقعة هائلة عند ذي قار، وانتصر فيها بنو شيبان بعد أن تحالفت معها قبائل العرب المتاخمة كلها، وانهزمت الفرس هزيمة منكرة عام ٥٩٠ م وهذا أول يوم انتصرت فيه العرب علىٰ العجم، وهو بعد ميلاد الرسول صلىٰ الله علية وسلم.

بعدهذه الفترة٦١٥ م (في بدايات الدعوة الإسلامية) قامت حرب ضروس بين الفرس والروم، انتصر الفرس أول الأمر وأخضعوا بلاد الروم الآسيوية ومصر أيضا، كما استولوا علىٰ الصليب المقدس في عرف النصارىٰ، لكن هرقل أعاد الصليب وهزم الفرس كما سيأتىٰ فيما بعد، ولما ولىٰ كسرىٰ علىٰ الحيرة - بعد إياس - حاكماً فارسياً (في سنة ٦٣٢م)أعاد الملك الىٰ آل لخم فتولىٰ منهم المنذر الملقب بالمعرور، ولم تزد ولاية علىٰ ثمانية أشهر حتىٰ قدم عليه خالد بن الوليد بعساكر المسلمين.

ج- الملك بالشام:

في العهد الذي ماجت فيه العرب بهجرات القبائل، صارت بطون من قضاعة الىٰ مشارف الشام وسكنت بها وكانوا من بني سليح بن حلوان الذين منهم بنو ضجعم بن سليح المعروفون باسم الضجاعمة، فاصطنعهم الرومان ليمنعوا عرب البرية من العبث، وليكونوا عدة ضد الفرس وولوا منهم ملكاً، ثم تعاقب الملك فيهم سنين، ومن اشهر ملوكهم زياد بن الهبولة، ويقدر زمنهم من أوائل القرن الثاني الميلادي الىٰ نهاية تقريباً، وانتهت ولايتهم بعد قدوم آل غسان، الذي غلبوا الضجاعمة علىٰ مابيدهم وانتصروا عليهم، فولتهم الروم ملوكاً علىٰ عرب الشام، وكانت قاعدتهم دومة الجندل ولم تزل تتوالىٰ الغساسنة علىٰ الشام بصفتهم عمالاً لملوك الروم حتىٰ كانت وقعة اليرموك سنة ١٣هـ (٦٣٣ م)، وانقاد

للإسلام آخر ملوكهم جبلة بن الايهم في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

د- الإمارة بالحجاز:

ولي إسماعيل علية السلام زعامة مكة – في منتصف القرن السابع عشر ق م – ولاية البيت طوال حياتة وتوفي وله١٣٧ سنة ثم ولي إثنان من أبنائة الأثنىٰ عشر– نابت ثم قيدار– ويقال العكس، حتىٰ بداية القرن السادس عشر ق م ثم ولي أمر مكة بعدهما، جدهما مضاض بن عمرو الجرهمي، فانتقلت زعامة مكة الىٰ جرهم، وظلت في أيديهم، وكان لأولاد إسماعيل مركز محترم لما لأبيهم من فضل في بناء البيت، ولم يكن لهم من الحكم شيئ ومضت الدهور والأيام ولم يزل أمر أولاد إسماعيل علية السلام ضئيلاً لا يذكر، حتىٰ ضعف أمرهم خلال عشرة شهورقبيل ظهورالملك البابلي نبوخذ نصر (بختنصر) ٥٩٥ قم، وأخذ نفوذ أبناء عدنان السياسي يتألق في أفق سماء مكة منذ ذلك العصر، بدليل ماجاء بمناسبة غزو بختنصر للعرب في ذات عرق فقائد العرب في الموقعة لم يكن جرهمياً، وتفرقت بنو عدنان الىٰ اليمن عند غزوة الملك البابلي (نبوخذ نصر) بختنصر الثانية (سنة ٥٨٧ ق.م) وذهب برمياه النبي بمعد الىٰ الشام، فلما انكشف ضغط بختنصر رجع معد الىٰ مكة فلم يجد من جرهم إلا جرشم بن جلهمة فتزوج بإبنتة معانة فولدت له نزاراً.

وساء أمر جرهم بمكة بعد ذلك، وضاقت أحوالهم، فظلموا الوافدين إليها، واستحلوا مال الكعبة، الأمر الذي كان يغيظ العدنانيين، ويثير حفيظتم، ولما نزلت خزاعة بمر الظهران، ورأت نفور العدنانيين من الجراهمة استغلت ذلك، فقامت بمعونة من بطون عدنان – وهم بنو بكر بن عبد مناف بن كنانة – بمحاربة جرهم، حتىٰ أجلتهم عن مكة، واستولت علىٰ حكمها، في أواسط القرن الثاني للميلاد، ولما لجأت جرهم الىٰ الجلاء سدوا

بئر زمزم، ودرسوا موضعها، ودفنوا فيها عدة أشياء، قال ابن إسحاق: فخرج عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي بغزالي الكعبة وبحجر الركن الأسود فدفنهما في بئر زمزم، وانطلق هو ومن معة من جرهم الىٰ اليمن فحزنوا علىٰ ما فارقوا من أمر مكة وملكها حزناً شديداً ويقدر زمن إسماعيل علية السلام بستة عشر قرناً قبل الميلاد، فتكون إقامة جرهم في مكة سبعة عشر قرناً تقريباً وحكمهم علىٰ مكة زهاء ستة عشر قرناً، واستبدت

خزاعة بأمر مكة دون بني بكر بن عبد مناف لثلاثة قرون حتىٰ عام ٤٤٠ م وتم ذلك بأن قصياً لما انتشر ولده وكثر ماله وعظم شرفة وهلك حليل رأىٰ انه أولىٰ بالكعبة وبأمرمكة من خزاعة وبني بكر، وأن قريشاً رؤوس آل إسماعيل وصريحهم، فكلم رجالاً من قريش وبني كنانة في إخراج خزاعة وبني بكر عن مكة فأجابوه.

وما فعله قصي بمكة أنه جمع قومه (قرشهم) من منازلهم الىٰ مكه، وقطعها رباعاً بين قومه وأنزل كل قوم منهم منازلهم التي اصبحوا عليها (وسموا بالقرشيين) وأقر النسأة وآل صفوان، وعدوان ومرة بن عوف علىٰ ماكانوا علية من المناصب لأنه كان يراه ديناً في نفسه لا ينبغي تغييره، ومن مآثره قصي انه أسس دار الندوة بالجانب الشمالي من مسجد الكعبة، وجعل بابها الىٰ المسجد، وكانت مجمع قريش، وفيها تفصل مهام أمورها، ولهذه الدار فضل علىٰ قريش، لإنها ضمنت اجتماع الكلمة وفض المشاكل بالحسنىٰ.

٥- الحالة الإقتصادية في بلاد العرب:

لم يكن للإقتصاد في بلاد العرب قيمة تذكر، فقد كانت عبارة عن بواد صحراوية، اللهم إلا في بلاد اليمن، التي كانت بلاداً خصبة علىٰ وجه الإجمال سيما قبل انهيار سد مأرب

حيث ازدهرت الزراعة والفلاحة بصورة عامة تدعو إلىٰ العجب، وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم إذ قال الله تعالىٰ في الآية ١٥ من سورة سبأ (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وعن شمال، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور) فلم يشكروا وأعرضوا عن طاعة الله ورسوله اليهم ن فسلبهم الله ما أعطاهم، فخرب سدهم، فأجدبت أرضهم، ورحل عنها أكثرهم، وبقيت لهم أراض خصبة قليلة فقامت بعض الصناعات كصناعة الكتان والسلاح من سيوف يمانية اشتهرت في بلاد العرب والحراب والدروع وغيرها أما القبائل العدنانية فكانت الزراعة فيها شبه معدومة وعاش أغلبهم في البوادي، ينتجعون الكلأوالعشب للماشية، يعيشون علىٰ ألبانها ولحومها أما القبائل التي عاشت في جوار الحرم كقريش وغيرها فقد عاشت علىٰ التجارة وعلىٰ رحلتي الشتاء والصيف فكانوا في رغد من العيش علىٰ خلاف غيرهم من العرب.

٦- الحياة الإجتماعية والأخلاقية في بلاد العرب

أولا: الحياة الإجتماعية.

القبيلة هي الأساس لحياة البادية، ولقد دأبت القبائل علىٰ التجوال والترحال ولا تعرف نظاما سوىٰ ما يسنه لهم شيخ القبيلة والذي في الأغلب لا يخضع إلا لما يراه في صالح القبيلة كلها، واضعا نصب عينيه حرية الأفراد وللأسر وللقبيلة كلها،

أما في حياة الحضر فقد كانت تقطنها أوساطاً متنوعة، فكما كانت قبائل الأشراف علىٰ درجة كبيرة من الرقي الأخلاقي والأسري في حين كانت الدهماء علىٰ درجة عالية من الإنحطاط الأخلاقي والأسري أيضاً، ففي الوقت الذي كانت علاقات الرجل من قبائل الأشراف مع الأب ومن يعلوه سنا من قبيلته تتسم بالإكبار والتبجيل فيحيون للعصبية القبلية ولصلة الرحم ويموتون لأجلها، ويسير النسق ذاته مع أخوته وأخواته أما علاقته مع أزواجه (كانت كل الأوساط تُعدد الأزواج بدون حدود ويجمعون بين الأختين ويتزوجون زوجات آبائهم بعد وفاته أو في حالة طلاق زوجة الأب، ولكن كان إن طلق رجل إمرأة بأي عدد من مرات الطلاق وأراد أن يراجعها فلا مانع هناك إن وافقت المرأة)

كانت للمرأة العربية من حرية الإرادة ونفاذ الكلمة القسط الوفير، وكانت المرأة محترمة ومصونة تسل دونها السيوف، وتراق الدماء من أجلها وكانت المرأة إن شاءت جمعت القبائل للسلام، وإن شاءت أشعلت بينهم الحرب، ومع هذا كان الرجل في بلاد العرب رئيس الأسرة والقبيلة لا ينازعه في مكانته أحد، وصاحب الكلمة في مجتمعه وكان ارتباط الرجل بالمرأة بعقد شفاهي للزواج تحت إشراف وليها، فيفخر الرجل بقبيلته وبعشيرته وبأسرته وأولاده، يميزالذكورمنهم ليتقي بهم عدوه وقد يئد ذكوره أو إناثه من إملاق أوخشية إملاق أما الإناث فمنهم من كان يسوَد وجهه إن بشر بها ومنهم من يئدها في المهد تخلصاً منها بغية التفرغ للذكورأو خشية العار.

أما في الأوساط الأخرىٰ، فقد كانت الحياة الإجتماعية لديهم مشوبة بالفوضىٰ، وكانت العلاقة بين الرجل والمرأة، لا يمكن التعبير عنها إلا بالدعارة المستترة أو الصريحة وكانت المرأة تباع وتشترىٰ ناهيكم عن المجون والفحش بالإضافة إلىٰ وأد الأطفال، أما عن عاداتهم في الزواج أو النكاح كما كان يسمىٰ، فقد كانت لديهم أربعة أنواع منها:

١) نكاح الناس وهو الزواج الذي نعرفه، بأن يخطب الرجل إلىٰ الرجل وليته فيصدقها ثم ينكحها.

٢) ونكاح الإستبضاع وهو أن الزوج إذا أراد نجابة ولد يسمىٰ باسمه، يطلب من إمرأته إذا طهرت من طمثها أن تستبضع من فلان فتذهب ويعتزلها زوجها حتىٰ يتبين حملها من فلان هذا، فيسمىٰ المولود بإسم الزوج.

٣) ونكاح الرهط وهوأن يدخل علىٰ المرأة رهط من الناس فيصيبونها، فإذا وضعت تسمي الوليد باسم من أحبت ولا يحق له أن ينكره.

٤) ونكاح البغايا وفيه ترفع المرأة راية حمراء علىٰ بابها تكون علما لمن أراد فإذاحملت ووضعت ما تحمل اجتمعوا لها ليلحقوا المولود بمن يرون فلا يمتنع.

ثانياً:الحياة الأخلاقية.

لا ينكر أحد أن العرب كانت لهم قبل الإسلام من الخلال الحميدة ما يحق لهم الفخر بها، إلا أنهم أيضا كانت لهم عادات سيئة،

أما العادات الحسنة فكانت:

فعادات الأخلاق المعروفة عنهم هي:

الصدق، الوفاء بالعهود، قري الضيف، إحترام الجوار، تقرير الحماية لمن يطلبها، الصبر، التحمل، الشجاعة والنجدة، الإباء والشرف والأنفة، الشهامة.

أما عن العادات الموروثة فكانت:

الختان للذكور والنظافة الشخصية بالإغتسال من الجنابة، والسواك والإستنجاء والإمتناع عن نكاح الأمهات والبنات

وعن عاداتهم السيئة فكانت:

الميسر، والخمر، نكاح الإستبضاع والرهط والبغايا، وأد البنات، تبرج النساء والتسري

واتخاذ الحرائر عشيقات في السر، والدعارة العلنية والعصبية القبلية، وشن الحروب بعضهم علىٰ بعض للسلب والنهب، وعدم امتهان مهنة تكبرا وأنفة، واتخاذ العبيد من القبائل المهزومة.

الفصـــل الثالث

العبرانيون الساميّون

والإسرائيليون في فلسطين وخارجها

مقدمة

نرىٰ إنه من الواجب والضروري أن نلقي الأضواء الكاشفة عن الديانات التي لم يدن بها إلا اليسير من العرب بتأثير من حولهم وهو إلتزام ربما نحا نحوه أغلب من تناولوا السيرة للربط بين ما كان موجوداً وما صار بعد ذلك – إلا أننا من باب التاريخ المقارن أيضاً وليس خروجا عن سياق الكتاب نرىٰ أن تسليط الأضواء علىٰ نشأة وتاريخ مختلف الأديان السماوية وغير السماوية ومن ضمنها الدين اليهودي والدول المسيطرة علىٰ العالم في هذه الأزمان وما آلت إليه، ضرورة حيوية للمقارنة والربط للسبيل إلىٰ الفهم، واضعين في الإعتبار ما تم الإتفاق عليه في مقدمة الكتاب من ضرورة الإلتزام بالمبادئ البحثية المتفق عليها، ومن خلال كتب اليهود سواء كانت من وضعهم أو كانت كتبا مقدسة سنرىٰ انحرافهم عن ناموس موسىٰ وعن التوحيد حتىٰ ينالوا غضب الله عليهم ثم ندمهم علىٰ ما فرطوا من كتاب الله ولكن بعد فوات الأوان إذ تغلغل الشرك والضلال في العقيدة، ومن الجدير بالذكر أن تاريخ اليهود كقوم له أثر كبير في العقيدة اليهودية كديانة حرص معتنقوها علىٰ صبغها بالعنصرية.

١- نشأة العبرانيون:-

قبل أن نبدأ باليهود فينبغي أن نستعرض حياة بني إسرائيل أولاً وفي عجالة نستعرض مع القارئ ماهو معلوم بالضرورة عن نشأة بني إسرائيل فكما ذكرنا مسبقاً، أن نبي الله إبراهيم (والذي لم يكن يهودياً ولا نصرانياً بل حنيفاً مسلماً)هو أبو الانبياء، وهو سامي الأصل ولغته الكلدانية السامية، هاجر من أور شرق الفرات بالعراق وعبر النهر وكانت دعوته للوحدانية ونبذ عبادة الأصنام ويقول الله في سورة إبراهيم الآية ٣ (وإذا قال إبراهيم رب إجعل هذا البلد آمناً، واجنبني وبني ان أعبد الأصنام) وقد ملكت عبادة الواحد الأحد علية مشاعره ووجدانه فاستهان بالنار وأسلم لله وجهه وتقبل العذاب ثائراً علىٰ الاصنام كلاماً وعملاً ومع هذا كان أواهاً ورقيق القلب يحاول أن يستغفر لأبيه مع علمه بضلالة إلا أن إبراهيم عليه السلام قد دعا عمه آذر للإسلام (وإذ قال إبراهيم لأبيه آذر)[٢٥].وقد

(٢٥)من عادة الشرقيين اعتبار العم والجد أبا، ولو كان القصود تارح أبوه لما كان للفظ آذر وجود بالقرآن المعروف بالدقة (انظر لتفسير مشابه في هامش ص٦٣) أما سبب تحديد أبيه آذر فذلك يعني العم فتحديد الاسم فيدل علىٰ أن المقصود العم أو الجد أو من هو بمنزلة الأب فلو كان الأب البيولوجي لما ذكر اسم آذر.

رحل إلىٰ الشام عابرا نهر الفرات مع المؤمنين به للشام ثم فلسطين ثم إلىٰ مصر بعد ما ضاقت به السبل بالشام.

تأثرت لغتهم الكلدانيه السامية بالآرامية المنتشرة في هذه البقاع آنذاك وكانت مصر تحت حكم الهكسوس (العرب العماليق وهم جنس من النسل السامىٰ ولغتهم الآرامية السامية)

كانت زوجته سارة مطمع ملك العماليق فأنجاها الله منه وطلب ذلك الملك من إبراهيم وآله مغادرة مصر بعد أن زودة بالمال والدواب كما أهدىٰ سارة هاجر المصرية كجارية لها كما أسلفنا، وقد رزقه الله منها بإسماعيل في فلسطين - الذي إستوطنه إبراهيم الحجاز كما ذكرنا – وكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام في الثمانين من عمره وبعد أربعة عشر سنه ولدت سارة لإبراهيم نبي الله إسحاق في فلسطين فقال

(ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾

واسحق عليه السلام الذي أنجب عيسو وفي عقبه يعقوب عليه السلام الذي ورث النبوة فتزوج يعقوب في فلسطين من أربع نساء وأعقب منهن إثنىٰ عشرإبنـًا:

١. فمن ليئة: وهي بنت خالة انجب روبين - شمعون - لاوىٰ (ومن نسله موسىٰ عليه السلام) - يهوذا – يساكر- زبولون.
٢. ومن راحيل: وهي بنت خالة أيضـًا وأخت ليئة وأنجب منها يوسف – بينامين.
٣. أما من زلفة: وهي جارية ليئة فأنجب منها جاد، وجاشير.
٤. ثم من بلهه: وهي جارية راحيل وانجب منها دان، ونفتالي.

ويلاحظ علىٰ نسل نبي الله يعقوب الذي سماه الله إسرائيل (أىٰ عبدالله) في فلسطين (أرض كنعان) أنهم كانوا يعمدون إلىٰ الإنعزال التام لشعورهم بأن الله قد خصهم بهذا الدين فابتعدوا عن الإختلاط بأصحاب الأرض الأصليين وتعالوا عليهم وأحاطوا ماذكروا به بالاساطير والتهويلات والاكاذيب والتآمرعلىٰ الاغيار وعلىٰ بعضهم البعض كما سنرىٰ.

حرص أبناء يعقوب علىٰ أن يعبدوا الله وحده، وسألهم يعقوب عليه السلام ماذا تعبدون من بعدىٰ قالوا (نعبد إلهك وإله آباءك إبراهيم وإسماعيل وإسحق)[٢٦] ولأن الله

---

(٢٦)والملحوظ هنا أن أبناء يعقوب، وجريا علىٰ العادات الشرقية (إرجع للهامش ص٧٧) قالوا آباءك وحددوا (إبراهيم) الجد ؛كأحد الآباء، كذلك ذكروا (إسماعيل) مع علمهم أنه عم يعقوب وليس أباه، ثم ذكروا أباه إسحق بعد إسماعيل الأخ الأكبر، وتؤكدأيضا تلك الآية ولادة إسماعيل قبل إسحق وإلا ماذكر إسماعيل قبل إسحق.

غالب علىٰ أمره ويسبب الأسباب فلقد كان يعقوب بن أسحق يمنح مزيداً من الحب ليوسف وبينيامين ابنيه من راحيل فنفس عليهما إخواتهما وكما سنرىٰ أن تلك كانت إرادة الله الذي جعل لكل شئ سبباً فاستأذنوا أباهم يعقوبا ليصحبوا يوسف معهم وهم يرعون أغنامهم فقبل يعقوب بعد تردد طويل، فألقوا بيوسف في بئر عميقة وجاءوا أباهم بدم كذب مدعين أن الذئب قد أكله.

مرت قافلة فوجدوا يوسف وباعوه لرئيس الشرطة في مصر وكانت لاتزال تحت حكم الهكسوس(٢٧)وزج بيوسف في السجن لإتهامه ظلماً بمحاولة الإعتداء علىٰ شرف زوجة سيده لإصرارها علىٰ النيل منه والتحرش به هي ونساء الهكسوس مما دفعه أن يدعو الله أن يزج في السجن فهو أحب إليه مما يدعونه، وفي السجن تعرف عليه رئيس سقاة فرعون وعرف عن يوسف قدرته علىٰ تفسير الأحلام وبواسطته أفرج الملك عن يوسف لتفسيره حلما يراوده بسبع بقرات سمان وسبع عجاف، وكان تفسير يوسف بأن البلاد سوف ترىٰ سبع سنوات من الخير الوفير في الغلال ويعقبهن سبع سنوات من القحط واقترح عليه تخزين الغلال في الصوامع وبعدها استخلص ملك الهكسوس يوسفا كرئيس للخزانة وكان ملك الهكسوس يدعىٰ (فوتىٰ فارغ) كما ورد بالتوارة وهو من ملوك الاسرة السادسة عشر في القرن السابع عشر ق.م واصبح يوسف مديراً لخزائن مصر واتت السنون العجاف وطالت البلاد المجاورة لمصر، وكان وقعها شديداً علىٰ أبناء نبي الله يعقوب (إسرائيل) فدفع يعقوب أبناءه ليطلبوا العون من مصر وعرفهم يوسف وطلب منهم أن يحضروا أباه وأهلهم أجمعين.

---

(٢٧)قبائل رعوية همجية كانت تسكن جنوب الشام تسمىٰ أحيانا الحيثيين وهم من العرب العماليق ولغتهم سامية إما آرامية أو قريبة منها كلغة بنىٰ إسرائيل وقد تسللوا إلىٰ مصر تدريجيا دون غزو ورحب بهم المصريون كعادتهم في استقبال الغرباء المحتاجين بالترحاب، كما يذكر العلامة سليم حسن في موسوعته العظيمة عن تاريخ مصر الفرعونية، ولما كثرت أعدادهم قاموا بالإستيلاء علىٰ الحكم في شمال مصر بعد سقوط الأسرة الثانية عشر عام ١٧٢٥ ق م إذ انتهز الرعاة انحلال تلك الأسرة الثانية عشر أىٰ بعد عصر الدولة الوسطىٰ ،فاستولوا علىٰ شمال مصروكونوا خمس أسرات من عام ١٧٧٥ حتىٰ١٥٨٧ ق م وقد كان هذا العصر عصر ضعف لمصر إذ سيطر النوبيون علىٰ جنوب البلاد ولم يبق من مصر إلا شريط ضيق من الصعيد يحكمه أمراء طيبة وفىٰ عام ١٥٧١ ق م قام أحمس بطرد الهكسوس ثم قضىٰ علىٰ الحكم النوبي لجنوب البلاد مؤسسا الأسرة الثامنة عشر. (من كتاب مقارنة الأديان – اليهودية – الجزء ٢ د. أحمد شلبي).

٢- بنو إسرائيل في مصر:

عاش بنو إسرائيل في مصر بدءا من القرن السابع عشر ق م (بعد بناء الأهرامات بألف ومائتي سنة) حتىٰ خرج بهم موسىٰ في القرن الثالث عشر ق م بنفس الطبيعة التىٰ عاشوا بها في أرض كنعان من إنعزاليه وعدم تعاون وتعال فتعاملوا مع المصريين بنفس الإسلوب بالإضافة إلىٰ بذر الشقاق والتآمر والأنانية التىٰ عرفوا بها فهم - كما اعتقدوا- شعب الله المختار وهم كذلك الغرباء الذين يفرون بدينهم الحق وسط بيئات مختلفة، يختلفون عنها في العقيدة والدين وربما ناصبوها العداء نصرة لدينهم الحق، ولقد تطورت بالطبع طبائعهم بسبب ظروفهم إلىٰ حد، ربما خرجوا بها عن الدين وعن العدالة، وربما الضميرو الأمانة الإنسانية كما سنرىٰ يحاول اليهود السطو علىٰ تاريخ الفراعنة حتىٰ يومنا هذا بادعاء أنهم بناة الأهرامات علىٰ الرغم من أن الأهرامات قد بنيت كما هو معلوم علميا منذ ٤٩٥٠ سنة (٢٩٠٠ ق م) وما ظهر الهكسوس بمصر إلا بعد ٢٠ قرنا من الزمان ! وما أتي يوسف عليه السلام إلا بعد بناء الأهرامات ب١٨ قرن آخر

يحدث اختلاف في تحديد السنوات بين د.أحمد شلبي وبين العلامة سليم حسن في ٥٠ عاما كما سنرىٰ إلا أن فترة بقاءهم في مصر لم تتعد القرون الثلاثة كترتيب إلهي حتىٰ يحصلوا علىٰ الأمان من عهد إبراهيم حتىٰ ما بعد يوسف عليهما السلام.

وهنا ينبغىٰ علينا التفرقة بين متطلبات التدين الحق وبين طبائع معتنقىٰ الدين، فتصرفات معتنقىٰ الدين الحق، لا تعطيهم بأىٰ حال ميزة عن غيرهم في حقوق المواطنة أوالكيل بأكثر من مكيال - بإدعاء التميز - في تلك الحقوق والواجبات أو المسئوليات وبخاصة إن لم يكونوا أصحاب البلاد الأصليين، عاش العبرانيون من أبناء إسرائيل (يعقوب) بهذه الخصال في مصر والتىٰ كانت- كما رأوها- محطة للوصول إلىٰ كمال دينهم، وطلبوا من الملك أن يسكنهم أرض جاسان (منطقة صفط الحنه بالشرقية)، وهىٰ المنطقة التىٰ عاش فيها الغزاة من الحكام الهكسوس وقبائل الغزاة منهم، ولكون الهكسوس من العرب العماليق أىٰ من الجنس السامىٰ، فقد شكل العبرانيون - الساميون أيضا - امتدادا بشريا لهم، أولىٰ بالرعاية من أصحاب البلاد من المصريين.

جاء في سفر التكوين ما قاله فرعون ليوسف (ابوك واخوتك جاءوا اليك، أرض مصر قدامك فخذ أفضل الأرض أسكن اباك واخوتك ليسكنوا أرض

جاسان) وكان تعداد بيت اسرائيل آنذاك سبعين نسمة، بلغوا في عهد موسىٰ أقل من خمسين ألفا.

٣- تحالف الهكسوس مع العبرانيين:

تعود بنو إسرائيل علىٰ الحياة المميزة منذ عهد نبىٰ الله يوسف، ونالوا رعاية الغزاة الهكسوس، فأصبحوا أسيادا للمصريين بعدما جاءوا طلبا للرزق.

كان من النتائج التىٰ ترتبت علىٰ وجودهم في مصر واقتطاع ملك الهكسوس (العماليق) أرض جاسان لهم، أنهم وجدوا أنفسهم أمام أجود أرض في البلاد إلا أن أعدادهم المحدودة، وقدراتهم القاصرة عن تحقيق الإستغلال الأمثل للأرض، جعلهم يلجأون إلىٰ أساليب الرجاء والتزلف للغزاة، حتىٰ فرض ملك الهكسوس علىٰ مجموعة كبيرة من الفلاحين المصريين أصحاب البلاد خدمتهم بالسخرة، بل والعمل كعبيد لهم، يتعلم الإسرائيليون منهم أفضل ما وصل إليه المصريون من أساليب الزراعة التىٰ اشتهروا بها في أرضهم، وكانوا أعلم الشعوب بأساليب الزراعة المتطورة آنذاك بالنسبة لبقية شعوب الأرض وسارت أمور بنىٰ إسرائيل كأفضل ما يمكن أن تسير، إلا أن المبادئ الإيمانية التىٰ ميزتهم عن باقىٰ الشعوب في العالم بدأت في التوارىٰ شيئا فشيئا أمام حياة الدعة والراحة والسعة اللامسبوقة في تاريخهم وشغلهم غرورالمال والسلطان واعتياد التحكم والتعالىٰ علىٰ أصحاب البلاد، الذين تحولوا إلىٰ عبيد لهم وابتعدوا بالتدريج عن دين الله متخذين أصناما في بعض الأحيان وعابدين الحيوانات واستجابوا لعبادة الفرعون كعادة أهل البلاد في أحيان أخرىٰ وبعد طرد الهكسوس نسوا حظا مما ذكروا به، ثم تطورت طموحاتهم المالية حتىٰ افشوا الدعارة وفرضوها علىٰ نساء وبنات عبيدهم من المصريات، وابتدعوا إقراض المصريين بالربا، ومن ثم إفلاسهم والإستيلاء علىٰ أراضيهم وممتلكاتهم.

٤- تنامى الشعور بالعداء

أدىٰ كل ما سبق إلىٰ إنماء الشعور العدائىٰ لهم من جانب أصحاب البلاد الأصليين، إلا أن المصريين المعروفين بالصبرتماسكوا إلىٰ أن نجح أمراء طيبة في التغلب علىٰ الهكسوس وطردهم أحمس، لم يشأ أن يطرد من تمصر من الهكسوس ولا بنىٰ إسرائيل صنعاءهم وإنما استبقاهم، تماما كما استبقىٰ العماليق من العامة الذين أرادوا البقاء في البلاد

فاندمجوا- خلافا للعبرانيين- مع المصريين واضافوا أبعادا حضارية وإنسانية للبلاد وأقام أحمس حكما وطنيا، ثم قام الفراعنة بحملات تأديبية في الأزمان التالية إذ فتح تحتمس الثالث(٢٨) مدينة اليبوسيين فاستقبلته في سلام ولهذا أصبحت تعرف بمدينة السلام التىٰ كان أمنحتب الثاني قد قام ببناء معبدها) وادعىٰ اليهود بعده أن سليمان قد قام ببنائه كما جاء في سفر الملوك الثاني.

إلا أن من نتائج هذا التحرر من المستعمر أن فقد فيه بنو إسرائيل وضعهم المتميز- كنتيجة طبيعية لإبتعادهم عما جاءهم به الله عن طريق الأنبياء - ابتداء من الأسرة الثامنة عشر، ولما قامت الأسرة التاسعة عشر- بعد وفاة حورمحب(٢٩) الذىٰ أنقذ البلاد بعد ثورة إخناتون الدينية، وكان بنو إسرائيل علىٰ نهجهم من التعالىٰ والتآمر علىٰ أبناء البلاد الأصليين وكان ذلك في وقت تعرضت فيه البلاد إلىٰ الغزو اللوبىٰ (الليبي)من الغرب في عهد رعمسيس الثالث، فجدد ذلك الأمل في نفوس هؤلاء الغرباء من بنىٰ إسرائيل للحصول علىٰ أوضاعهم المتميزة علىٰ يد الغزاة الجدد، وتآمروا علىٰ المصريين وتعالوا عليهم والمصري عبر تاريخه ينفر ممن يتعال عليه فلما انتصر منفتاح علىٰ اللوبيين كان الإسرائيليين قد تكاثروا إلىٰ الحد الذي مكنهم - وقت الحروب - من القيام بثورات عاتية ضد (منفتاح) فزحف عليهم ونكل بهم(٣٠).

إلا أن حياة الغنىٰ كان ينعم بها السادة بنىٰ إسرائيل فقط، أما الأكثرية منهم فكانت تعيش في فقر مدقع، تنتشر بينهم القذارة والفوضىٰ والجريمة والأمراض الوبائية(٣١). رافضين التآلف مع المجتمع أوالاندماج فيه، بعيدين عن أي انتماء للبلاد.

لما جاء عهد الفرعون المذكور في القرآن وهو الذي استضعف تلك الطائفة منهم يذبح الغلمان ويستحىٰ النساء، استقر رأيه علىٰ التخلص من الأطفال الذكور واستبقاء

(٢٨)وهو من أقدر فراعنة الأسرة ال١٨ وجاء بعد حتشبسوت وتحتمس الأول والثاني (مصر وحضارات العالم القديم) في نهاية القرن١٦ ق م.

(٢٩)حور محب جاء بعد وفاة توت عنخ آموت المفاجئة وهو من الأسرة التاسعة عشر التي أخذت علىٰ عاتقها أن تعيد لمصر ما فقدته من نفوذ ويعد رمسيس الثاني أشهر ملوك الدولة الحديثة للحفاظ علىٰ وحدة البلاد وقد أنهىٰ خصومته مع ملك الحيثيين بتوقيع أول معاهدة سلام في التاريخ بعد معركة قادش التي تبين للملكين عجزيهما عن تحقيق نصر حاسم ضد الآخر (مصر وحضارات العالم القديم).

(٣٠)الصهيونية في المجال الدولي – د.محمد عبد المعز نصر.

(٣١)قصة العقائد– سليمان مظهر.

الإناث فتتزوج الإناث من بنىٰ إسرائيل بالذكورمن المصريين وتنتهىٰ العزلة ويتم الإندماج، كان هذا فى تقدير الفرعون كىٰ ينصلح حال البلاد(٣٢).

مولد نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام

فىٰ هـذه الفـترة ولـد موسـىٰ عليـه السـلام وكانـت إرادة الله في أن أنجـاه مـن القتـل بـل وتـتم تربيتـه في رعايـة القصـرالفرعونىٰ بترتيـب إلهـي ذلـك لأن الله غالـب علـىٰ أمـره بحفــظ موســىٰ وعصــمته مــن الأذىٰ ومــن القتــل بــأن أوحــىٰ لأم موســىٰ بــوحي الأنصياع(٣٣).

(إذ أوحينـا إلـىٰ أمـك مـا يـوحىٰ، أن اقذفيـه في التـابوت فاقذفيـه في اليـم فليلقـه اليـم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له والقيت عليك محبة مني ولتصنع علىٰ عيني) [سوره طه الآيات٣٨ - ٣٩]

إلا أن موسىٰ التىٰ أرضعته أمه بترتيب الهىٰ أيضا كما يخبرنا الله جلت حكمته في كتابه الكريم (وأصبح فؤاد أم موسىٰ فارغا، إن كادت لتبدي به لـولا أن ربطناعلىٰ قلبهـا لتكـون من المؤمنين) [سورة القصص الآية رقم ١٠]

لما كبرموسىٰ، مـا لبـث عـن طريـق أمـه أن علـم أنـه مـن بنـىٰ إسـرائيل، بـل ومـن تلـك الطائفة التي يستضعفها الفرعـون فأصبـح نصيـرا لهـم، وكـان شـعوره بالتعـاطف معهـم هـو المبتغىٰ من الله عز وجل.

رغم اختلاف خلفيه البيئه الملكية الراقية التىٰ تربىٰ عليهـا موسـىٰ وبيئـه الإسـرائيليين التي أفسدوها، أصبح موسىٰ معاديا لآل فرعون، وكـان المحـك الأول عنـدما نشـب خلافـا وعراكا يدور بين مصرىٰ وعبراني وكان موسىٰ قد دخل المدينة فهتف به العـبراني أن ينصـره ودون أن يتبين موسىٰ سبب العـراك، ففعـل موسـىٰ، وبسـبب قـوة بنيـة موسـىٰ علـي السـلام والتدريب العسكري الذي تلقاه في قصرالفرعون - إذ كان قائدا لجيش الفرعون في الحبشـة - وسقط المصري قتيلا بلكزة واحدة من موسىٰ وندم موسىٰ علىٰ استخدام قوتـه في الظلـم وتناقلت الأخبار ذلك الحدث

(٣٢)كتاب اليهودية للدكتور أحمد شلبي قصة الحضارة وول ديورانت برغم أن قارون كان منهم.

(٣٣)وهو وحي الله لبعض من البشر فيقومون بعمل قد لا يكون منطقيا إلا أن إرادة الله تدفعه إليه دفعا لتحقيق إرادته لم يجد موسىٰ بُدا من الهرب إلىٰ أرض مدين وهو الحفظ والعصمة من الله وهناك تزوج من إبنة نبىٰ الله شعيب عليه السلام وقرر العودة إلىٰ مصر بعد عشر سنوات لعل خطيئته قد نسيت.

خاف موسىٰ ولم يعد للقصر الفرعوني وإنما تخفىٰ في ذلك الحىٰ الإسرائيلي من المدينة فثار المصريون ضد موسىٰ بعدما اعترف عليه العبرانىٰ فجاء من أقصىٰ المدينة رجل يسعىٰ إلىٰ موسىٰ يحذره من أن الملأ في قصر الفرعون يخططون للقبض عليه وقتله عقابا له علىٰ جريمة القتل

٥- نشأة اليهودية وسفر الخروج:

من مدين بدأ موسىٰ رحلته مع زوجته حتىٰ وصل طور سيناء فقال لأهله:

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ * ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ *﴾ [سورة القصص من ٣٠- ٣٥]

"امكثوا إنىٰ آنست نارا لعلىٰ آتيكم منها بقبس أو أجد علىٰ النارهدىٰ، فلما آتاها نودي يا موسىٰ إنىٰ أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادىٰ المقدس طوىٰ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحىٰ، إننىٰ أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنىٰ وأقم الصلاة لذكرىٰ" [سورة طه الآيات من ١٠-١٤ وهىٰ تماثل أول آيات التوراة]

وبهذه الآيات التي كلمه الله بها من وراء حجاب وبدأت رسالة نبىٰ الله ورسوله موسىٰ الكليم عليه الصلاة والسلام وقد منحه الله معجزاته الظاهرة قائلا له:

(وما تلك بيمينك يا موسىٰ، قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها علىٰ غنمي ولي فيها مآرب أخرىٰ قال القها يا موسىٰ فألقاها فإذا هي حية تسعىٰ، قال خذها يا موسىٰ ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولىٰ،واضمم يدك إلىٰ جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرىٰ لنريك من آياتنا الكبرىٰ) [طه الآيات من١٧ إلىٰ ٢٣]

هارون عليه السلام

وشد الله أذره بهارون أخيه وعاد موسىٰ إلىٰ مصر قاصدا أهله، فالتف العبرانيون من بنىٰ إسرائيل حوله كمخلص وكقائد قومىٰ، وهنا ينبغي علينا أن نلفت أنظار القارئ إلىٰ أن وراء هذا الإندفاع مصلحة مأمولة في العودة إلىٰ امتيازاتهم التىٰ حرموا منها وحسبوا أن شأنهم في ذلك مع موسىٰ كشأن أجدادهم مع يوسف فعلىٰ يد يوسف عليه السلام رفلوا في نعيم مصر علىٰ حساب أصحاب البلاد الأصليين.

كانت نسبة كبيرة منهم قد صانعوا الحكام وأصحاب البأس كعادتهم، وجريا وراء استرضاءهم قلدوهم في عقائدهم وعاداتهم في عبادة الأصنام والمخلوقات وممارسة السحر وكان بلاط فرعون يعج بالإسرائيليين من صنائع الفراعنة وخلال الفترة التي انصرمت من وجودهم في مصر (٤٠٠ سنة) [٣٤]. لم يستقروا علىٰ عبادة الله الواحد الذىٰ دعاهم له إبراهيم ومن بعده إسحق ويعقوب ويوسف، بل كانت اتجاهاتهم في التعبد إلىٰ ناحية التجسيم وتعدد الألهه، وتعدد الأنبياء لديهم هو دليل علىٰ تجدد الشرك بالله في عقائدهم التىٰ وضعوها فيرسل الله اليهم بنبىٰ يعيدهم إلىٰ سواء السبيل.

ويقول ريناتش في كتاب تاريخ الشعب العبري ص ١٧٦ أن بنو إسرائيل اتخذوا في بيوتهم أصناما حتىٰ خرج بهم موسىٰ من مصركما يقول (وول ديورانت) في كتابه تاريخ الحضاره الجزء الثانىٰ

(إن اليهود لم يتخلوا قط عن عبادة العجل والكبش والحمل سواء قبل موسىٰ أم بعده وكان ولعهم بالعجل (أبيس) شديداً، وكان للمصريين حذقا في عمل فتحة يمر خلالها الهواء فيحدث صوتا من أنف تمثال لهم يدعىٰ (ممنون) فتعبده العامة [٣٥].حتىٰ لقد جاء في سفر الخروج في الوصية الثانية من الوصاياالعشر (لاتصنع لك تمثالا منحوتا)

وبعودة موسىٰ والتفافهم حوله، اصطحب أخيه هارون عليه السلام معه كىٰ يعرض رسالته علىٰ فرعون، وفرعون كان في ذلك الوقت أقوىٰ رجل علىٰ ظهر الأرض (إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبنائهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين) [سورة القصص الآية رقم ٤]

(٣٤) من كتاب تاريخ مصر القديم وتقول بعض المصادر الأوروبية أن الفترة لم تتجاوز ٢٥٠ سنة.
(٣٥)تاريخ مصر القديم وآثارها – العصر اليونانىٰ الروماني المجلد الأول الجزء الثاني القاهرة ١٩٧٨.

لكن المصريين كانوا يعانون من طائفة ترفض الاندماج في البلاد وتثير القلاقل، فلم يعترف الفرعون برسالته وذكره بما يراه فيه قائلا:

(قال ألم نربك فينا من عمرك سنين) [الشعراء آية ١٨] إذ رآه رجلا هاربا من العدالة ومطاردا منذ عشر سنين بقتله أحد رعايا المملكة (وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين) [الشعراء الآية ١٩]

كان فرعون مصر بعد إنتصارات عده علىٰ أعداء البلاد، قد شعر بعلو شأن مملكته وشأنه فأصابه الغرور، وفرض علىٰ رعاياه عبادته جريا علىٰ طبائع أهل البلاد معتقدا أن طريقة حكمه هىٰ المثلىٰ ومرددا "يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري"[سورة القصص الآية٣٨] ثم قائلا لموسىٰ عليه السلام "لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين"[سورة الشعراء الآية ٢٩] فقال له موسىٰ (أولو جئتك بشيئ مبين) [الشعراء ٣٠] وأراد موسىٰ أن يقدم إليه برهانه بعصاه التىٰ مانفكت أن صارت ثعبانا ويده التي تخرج بيضاء وهنا ضحك منه الفرعون متعاليا (فلما جاءهم بآياتنا إذ هم منها يضحكون) [سورة الزخرف الآية ٤٧] علىٰ موسىٰ، ظانـًا أنه مدع للنبوة، طامعـًا في الملك والرياسة ومتحسبا إلىٰ أن موسىٰ إنما يرغب في الإستيلاء علىٰ ملكه بألاعيب سحرية

(ونادىٰ فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصروهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ❊ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ❊فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ❊فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين) [سورة الزخرف ألآيات (٥٠-٥٤)] متحديا بأن لديه من السحرة المئات القادرين علىٰ دحض ادعائه، فقد برعوا في مثل هذه الألعاب السحرية والأدهىٰ أن أبرع السحرة كانوا من الإسرائيليين من صنائع الفرعون الذين أكرههم عليه.

كانت لديهم بقايا من الإيمان في قلوبهم مهما تعلموا ما لا ينفعهم من المصريين وكان موعدهم يوم الزينة وكان اختياره ليوم الزينة كإشارة لشعورالفرعون بأن أمر موسىٰ لا يتعدىٰ كونه فلكلورا لا يستحق استدعاء الكهنة للمناظرة، وفىٰ الموعد المضروب كان التبارىٰ بين الباطل (وهو سحر السحرة) وبين الحق (وهو آية من آيات الله الكبرىٰ التىٰ وعده الله بها بوادي طوىٰ في سيناء) وبعد أن تمت المناظرة، أدرك السحرة أن ما أتىٰ به موسىٰ ليس بسحر بل آية من الله فسجد السحرة من صنائع فرعون وآمنوا بالله فغضب

الفرعون وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبهم فما ارتدعوا قائلين للفرعون "إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقىٰ" [طه:٧٣] ❋ (كما ارسلنا إلىٰ فرعون رسولا، فعصىٰ فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا) [سورة المزمل الآيات ١٥-١٦] فظاهره الملأ من قومه الذين اعتاد الفرعون أن يستخف بهم وأعمتهم مصالحهم الدنيوية رياءاً للفرعون وهي عادة متأصلة في الشعوب المقهورة التىٰ تبحث عن الحظوة لدىٰ الحكام إلىٰ يومنا هذا" وقال الملأ من قوم فرعون، أتذر موسىٰ وقومه ليفسدوا في الأرض ويذروك وآلهتك، قال سنقتل أبناءهم ونستحيىٰ نساءهم وإنا فوقهم قاهرون" [سوره الأعراف الآية (١٢٧)] ❋وبالفعل أعطىٰ تعليماته بذلك .

(وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) [البقرة -٤٩]

ثم توالت الأحداث من فرعون لموسىٰ والمؤمنين به كبلاء من رب العالمين بقتل الأبناء واستحياء النساء، وهنا طالب موسىٰ فرعون بأطلاق بنىٰ إسرائيل من مصر لاستعباده لهم "وتلك النعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل" [الشعراء (٢٢)] وماطل الفرعون، فأمد الله تعالىٰ موسىٰ بالآيات الكبرىٰ والتحذيرية للفرعون وسلط عليهم النقص في الأموال والأنفس والثمرات إذ قل مورد المياه من النيل ومن ثم ثمرات الأرض ثم أغرقهم بالطوفان، ولما لم يرتدع الفرعون سلط الله عليهم الجراد فأكل ما تبقىٰ لديهم من زاد، ثم سلط عليهم القمل والضفادع والدم الرعاف فخاف الفرعون وابتعث رجالات الدولة (ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسىٰ ادع ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل) [الأعراف١٣] وكلما رفع الرجز عنهم عادوا إلىٰ غيهم وكفرهم أما الفرعون فقد كان يماطل لعدة إعتبارات:

- رأىٰ الفرعون كرجل دولة، أن بنو إسرائيل في مصر بمثابة أحد العناصر الإنتاجية القائم عليها إقتصاد البلاد، وتركهم لمصر من شأنه تعريض الإقتصاد للخطر، خاصة في أرض جاسان (الشرقية الآن) لجودة التربة بها إلىٰ جانب الضربات التي تعرضت لها مصر من قحط وجراد وغيرها.
- رأىٰ الفرعون كرجل حرب، خطورة إطلاقهم إلىٰ حيث يريدون شمال مصر فيلتقون بأعداء مصر ويتم التآمر علىٰ البلاد، خاصة وأن هؤلاء

العبرانيين علىٰ إطلاع تام بأحوال مصر الإستراتيجية ومن الممكن إيذاء البلاد.

- لاحظ الفرعون مدعىٰ الألوهية إيمان العديد من المصريين من أصحاب البلاد بدعوة موسىٰ للتوحيد، وهم ممن كانوا لا يزالون علىٰ دين إخناتون القديم المؤمن بالتوحيد، بالإضافة إلىٰ من آمنوا بنبي الله إبراهيم من المصريين فخشي التمرد الديني في البلاد بخروج هؤلاء مع موسىٰ عليه السلام.

وسواء كان الفرعون قد أذن في النهاية أم لم يأذن بخروج العبرانيين من البلاد فقد كانت الآيات البينات الكبرىٰ التىٰ أمد الله موسىٰ عليه السلام بها وخشيته من تنامىٰ الشعور لدىٰ المصريين بصدق نبىٰ الله موسىٰ وتجنبا أن ترىٰ البلاد حروبا أهليه وانقساما في العقيدة كالتىٰ حدثت زمن إخناتون، فقد كان خروج قوم موسىٰ حتميا لأنها إرادة الله ورحمة منه وابتلاء لهم أيضا كما سنرىٰ، وكان من الطبيعىٰ أن يخرج قوم موسىٰ بأموالهم ومواشيهم وبكل ما يملكون فهي حقوقهم التي لا خلاف عليها وكان ذلك سرا وأثناء الليل بتدبير موسىٰ وعلمه، إلا أن أغلب النسوة من بنىٰ إسرائيل كن قد استجبن لبعض شيوخ بنىٰ إسرائيل من الوضاعين والمحرفين الذين أشاعوا بينهن بأن الله يأمرهن بالسطو والسرقة من المصريين قبل مغادرة البلاد فأوهموهن بأن الله أمر بسلب المصريين والتوراة المزورة تنص علىٰ (وحينما تمضون إنكم لا تمضون فارغين، بل تطلب كل إمرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضه، وأمتعة ذهب، وثيابا وتضعونها علىٰ بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين) [سفر الخروج ٣:صفحة ٢١-٢٢ وخروج ١٢ صفحة ٣٥-٣٦] وقد أدىٰ هذا الغدر إلىٰ حالة من الهياج لدىٰ المصريين في صباح اليوم التالىٰ حينما اكتشفوا فرار العبرانيون بأمولهم وحليهم بعدما أعطوهم الأمان والثقة، ناظرين للفرعون الذىٰ يطلب منهم عبادته نظرات الشك والدهشة التىٰ لم يقل عنهم دهشة وشعورا بالغضب، وقد وضعت هذه الكلمات، وضعا وتحريفا بعد زمن نبىٰ الله موسىٰ عليه السلام كمبرر لآثام العبرانيين، فالادعاء والتحريف الديني والفكري والتاريخي هو دأب هؤلاء القوم ولا يزال، إلا أن ذلك القول والفعل لم يكن بالطبع بعلم نبىٰ الله موسىٰ عليه السلام، فالتحريف في المبادئ الدينية وإن كان قد بدأ شفاهة ودُوِن بعد وفاة نبىٰ الله موسىٰ بستة قرون علىٰ الأقل أثناء السبىٰ البابلىٰ واضح وجلىٰ فالله سبحانه وتعالىٰ الذىٰ أنزل التوراة الصحيحة، هو منزل الإنجيل والقرآن ولا يمكن أن يأتىٰ الله بالباطل أو التناقض فيقول تعالىٰ في القرآن " لا يجرمنكم شنآن قوم علىٰ

ألا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوىٰ" وعليه فلا يجوز أن يقال أن الله دعا بنىٰ إسرائيل إلىٰ السلب والنهب من المصريين حتىٰ وإن كانوا ظالمين ناهيكم من أن المصريين المسلوبين لم يكونوا سوىٰ رعايا لفرعون متكبر وظالم للعبرانيين والمصريين علىٰ السواء (٣٦). في الحقيقة كانت دوافع التفاف بنو إسرائيل حول موسىٰ قومية في غالب المؤمنين به وليست دوافع إيمانية صرفة ويقول الله تعالىٰ (إن في ذلك آية وما كان أكثرهم مؤمنين) والدلائل سوف تبدوجلية من موقف السامري، وموقفهم كجماعة من صناعة العجل للعبادة وغيرها من ألوان التخلي عن موسىٰ مما يبعدهم عن التزام قوم إبراهيم، ومواقف سارة وهاجر وإسماعيل من إبراهيم عليه السلام ولم يصادف خروج قوم موسىٰ بثرواتهم هوىٰ في نفس الفرعون.

إن مجرد الخروج هو في ذاته تحد له كما أن الخروج بمصادر وأدوات الإنتاج من مال ومواش، خسارة إقتصادية لمصر ودعم لأعداء البلاد وتشجيع للتمرد في مستقبل الأيام، كان سلب المصريين قد أعطىٰ الفرعون مبررا كافيا لتعقب المؤمنين بحجة إسترداد الأسلاب إعلاءاً لشأنه أمام رعاياه فتبعهم فرعون وجنوده وكانوا قد بلغوا شاطئ خليج السويس "فلما تراءىٰ الجمعان قال أصحاب موسىٰ إنا لمدركون، قال كلا إن معىٰ ربىٰ سيهدين، فأوحينا إلىٰ موسىٰ أن اضرب بعصاك البحر فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم وأزلفنا ثم الآخرين، وأنجينا موسىٰ ومن معه أجمعين، ثم أغرقنا الآخرين " [سورة الشعراء الآيات٦١-٦٦] كان إغراق فرعون عقابا علىٰ ادعاء الألوهية وعبرة للعالمين "فأخذه الله نكال الآخرة والأولىٰ، إن في ذلك عبرة لمن يخشىٰ " [النازعات٢٥] وكذلك كان الإغراق لجنوده لتكذيبهم الآيات التىٰ أتىٰ بها الله علىٰ يد نبيه موسىٰ"فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين" [الأعراف-الآية١٣٦] وقد تمت هذه الأحداث عام ١٢١٣ ق.م أي في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وقد حفظ وعصم الله نبيه موسىٰ حفظاً عظيما وكما قال الله تعالىٰ (قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون) [سورةالقصص-الآية٣٥]

٦- الفتنة بعد الخروج:

لكل نبي أمة وأمة النبي يختارها الله من بين مخلوقاته ولقد تم ذلك بالنسبة لقوم نبىٰ الله إبراهيم فجاء إسماعيل فإسحق وفىٰ عقبه يعقوب وبعد يوسف اختار الله تعالىٰ نبيه

(٣٦)في هذا الفصل بند ٩ (عزرا والتزوير الثاني) يتم شرح رأىٰ المؤلف في تحريف اليهود للتوراة..

موسىٰ وهيأ له الله الظروف والسبل كىٰ يصبح نبيا تجتمع فيه من الصفات ما تمكنه من أداء رسالته وكذلك يجعل للأمة التىٰ ستتبعه من الأسباب والظروف والصفات ما يجعل تلك الأمة قادرة علىٰ حمل الرسالة وتحقيق الحالة الإيمانية المطلوبة للبشر ومن البشر في هذه المرحلة البشرية.والفتنة هي الاختبار الواجب والذي لابد للنبي وللأمة من المرور خلالها بنجاح حتىٰ تستحق شرف تبعات ومسؤليات الرسالة، فحتىٰ آدم عليه السلام قد تعرض للفتنه ولم ينج منها باقترابه من الشجرة المحرمة رغم تحذيره وأيضا فتن قومه، فكانت خطيئة قابيل بقتله هابيل حتىٰ نبىٰ الله إبراهيم قد فتن إذ بعدما تفكر في خلق السماوات والأرض وأوصله الله إلىٰ الإيمان المطلوب مخالفا أقرب الناس إليه حتىٰ أبوه، فسأل إبراهيم ربه عز وجل كي يطمئن قلبه للإيمان كيف تحيىٰ الموتىٰ بعد موتهم فطلب الله منه أن يحضر أربعـًا من الطيرويقطعهم واضعا كل القطع علىٰ قمم أربع جبال ثم يدعوهن إليه فيأتينه، وفتن بإلقائه في النار وصمد إيمانه بصبره وخروجه من النار التىٰ كانت بردا وسلاما، فآمن به كثير ممن لم يؤمنوا وازداد إيمان من آمنوا، حتىٰ إذا ما ماجاء إبراهيم يطلب من هاجرالبقاء مع طفلها في الصحراء لا تخالفه طالما أمره الله بذلك وحتىٰ إسماعيل الذي يسلم رقبته لأبيه كىٰ يذبحه، هذا هو الاختبار وهذا هو الإسلام والتسليم لأمر الله تعالىٰ فلم يكن أمام الأنبياء من سبيل أمام الفتن إلا الصبر والتسليم فالتسليم بأمر الله ولوجه الله هو دليل الإيمان، وهو الإسلام بمعناه اللفظىٰ والفلسفي، أما نبي الله موسىٰ، فقد فتن بما آتاه إلىٰ الحد الذىٰ جعله يطلب من الله أن يراه- كىٰ يطمئن قلبه- وكلما زادت الفتن، علا شأن مبلغ الرسالة إن هو صبر، فالرسالة تكليف من عند الله - حتىٰ وإن كانت تشريفا في نظر العباد - ونفس المنطق، ينسحب علىٰ قومه، ونحن هنا سنستعرض علىٰ عجالة ما جرىٰ بعد الخروج، فهل استحق الشعب الإسرائيلىٰ، ارتفاع الشأن الذىٰ كان مقدرا لهم رغم آيات التخويف وآيات الإعجاز الإلهىٰ-وقد كانت عديده-و لكن هل كان الإمتحان الإلهىٰ صعبا إلىٰ حد الخروج من الشريعة ؟وبعد عبور قوم موسىٰ البحر الأحمر من ناحية خليج السويس وبعد رؤيتهم البحر ينفلق كالطود يمرون آمنين من خلاله، رأوا بأعينهم البحر يبتلع عدوهم وجنوده، كما رأوا ملك من الله هو إسرافيل يقودهم إلىٰ الأمان، وفىٰ نفس الوقت بدأت ألاعيب زعيم لهم هو السامري، إذ سولت له نفسه أن يغترف من أثر فرس هذا الملك غرفة، فيحتفظ بها لنفسه، ولقد كانت تلك الآيات التىٰ تجرىٰ أمامهم كفيلة بضمان إسلامهم وإسلام الأجيال الآتية من بعدهم، إلا أنهم وبمجرد عبورهم، وجدوا أناسا

يعبدون الآلهة (وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا علىٰ قوم يعكفون علىٰ أصنام لهم قالوا يا موسىٰ اجعل لنا إلاها كما لهم قال إنكم قوم تجهلون، إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون، قال أغير الله ابغيكم إلاها وهو فضلكم علىٰ العالمين، وإذ انجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم) (الأعراف ١٣٨- ١٤١)

فطلبوا من موسىٰ أن يجعل لهم إلاهـاً فلما غضب موسىٰ ضجروا بالشكوىٰ من الحر، فأظلهم الله بالغمام ثم (فىٰ بعض أماكن البرية لم يجدوا ماءا، فخاصم الشعب موسىٰ وتذمرواعليه وقالوا لماذا أصعدتنا من مصرلتميتناوأولادناومواشينا بالعطش) (٣٧)نسوا ما كانوا عليه من ذل، ونسوا آيات الله، ونسوا أن ظلل الله عليهم الغمام، إذن فنكران الجميل صفة تضاف إلىٰ ضعف الإيمان، لكن رحمة الله بهم أوحت إلىٰ موسىٰ باستخدام عصاه فانبجست إثنتا عشر عينا كل عين تناسب إستهلاك كل قبيلة علىٰ حده، فعرفت تلقائيا كل قبيلة من أين ينبغىٰ لها أن تشرب، ثم شعروا بالجوع لما نفذ زادهم فقالوا، (ليتنا متنا في مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزا للشبع، فإنكما أخرجتمانا إلىٰ هذا القفر لتميتا كل هذه الجمهور بالجوع) وهنا يتجلىٰ الرهاب القومىٰ (مرض الشعور بالإضطهاد أي: البارانويا) فيرحمهم الله بأن يمدهم بأحسن الطعام وهما المن والسلوىٰ، لكنهم وكأنهم في مطعم، يطالبون موسىٰ بالفوم (الفول) والبصل والقثاء والعدس مستبدلين عطايا الله الكريمة بما هو أدنىٰ، وإحقاقا للمبادئ البحثية -فلقد عانىٰ اليهود من الطفولة الحضارية ولقد كانت البشرية وحتىٰ هذه اللحظات لا تزال تعيش في بقايا ما يعرف بالطفولة الحضارية أو البشرية أو الإيمانية وهي في علم النفس الإجتماعىٰ كما ذكرنا في مقدمة الكتاب لها سمات تقترب كثيرا من الطفولة التىٰ نعرفها في علم النفس الفردىٰ، وتتميز بالتحيز والأستمساك بالمحسوس والمرئىٰ كسبيل إلىٰ فهمه، كما نلحظ من استمساكهم بإله يرونه فيعبدونه، أما النضوج الحضارىٰ أو البشرىٰ أوالإيمانىٰ فيتميز بالتحيزوالأستمساك بموجبات العقل والتفكرو الضميروحالة من رقىٰ الضمير الإنساني، فبعد أن عاش بنو إسرائيل في مصر يرفلون في النعيم علىٰ حساب أصحاب البلاد، اضطهدهم الفراعنة بعدما حرروا بلادهم من الهكسوس فعاشوا شظفا عظيما، وكان التفاف بنو إسرائيل حول موسىٰ إلتفافاً عنصريا به مسحة من الإيمان بالله الذي عودعم الفراعنة

---

(٣٧)سفر الخروج ٣ : صفحة٢١-٢٣ سفر الخروج ١٢: صفحة ٣٥-٣٦.

علىٰ نسيانه وعبادة غيره التفافاً يعيد لهم أمجاد يوسف، ولما لم يجدوا ما طمعوا فيه، كانوا يختلقون لأنفسهم الفتن بعد الفتن.

(فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ) [يونس ٨٣]

حينما التف العبرانيون حول موسىٰ وهم بمصر، كان التفاف أغلبهم حول قائد، يرجىٰ علىٰ يديه السيطرة وعودة الإمتيازات التىٰ حرموا منها، ليس كنبىٰ ورسول من عند الله يرجىٰ علىٰ يديه الهداية، ولقد أمد الله موسىٰ بآيات بينات من شأنها أن تجعلهم في أعلىٰ الدرجات الإيمانية إلا أنهم- وكما أسلفنا- كانوا قد التفوا حوله كزعيم، وليس كنبي فيحلمون بالسيطرة علىٰ شعوب الأرض وينعمون برغد العيش، لذلك ما أن تحققت لهم مرض نفسي واجتماعي يصيب الأفراد والجماعات ويتلخص في الشعور بالعظمة وباضطهاد الآخرين لعظمته.

النجاة من الفرعون حتىٰ شغبوا علي موسىٰ ففىٰ الطريق لفلسطين عبر صحراء سيناء ترك موسىٰ شعبه ليصعد علىٰ جبل الطوربناء علىٰ أمر ربه ويمكث ثلاثين ليلة صائما كىٰ يتلقىٰ الوصايا العشر واختار من قومه سبعين رجلا للذهاب معه لميقات ربه لكنه تعجل فسبقهم إلىٰ الطور وحين سأله الله عن أمر استعجاله فرد موسىٰ "قال هم أولاء علىٰ أثري وعجلت إليك ربي لترضىٰ" [طه ٨٤] فقال له الله "قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري" [طه ٨٥]، فقد فتن اليهود بعد ساعات من ابتعاده عنهم، والفتنة اختبار من الله لابد وأن يمر به المؤمنون، ولا يسعهم إلا النجاة من الفتن حتىٰ يستحقوا صفة الإيمان ولقبه ويقول الله في كتابه العزيز" أفحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون" [العنكبوت-٢] وهناك تعرض موسىٰ كما تعرض شعبه للإبتلاء من الله، وذلك شأن الله مع جميع الرسل كما ذكرنا سلفا، وزاد الله الفترة الىٰ أربعين ليلة، وهنا يصمد نبىٰ الله موسىٰ ويفشل الشعب في الاختبار، فعادوا إلىٰ طبيعتهم الوثنية، فصنع لهم السامرىٰ عجلا وله خوار [٣٨] يصدر منه صوتا بتأثير الهواء ليعبدوه (فقال الرب لموسىٰ، اذهب لأنه قد فسد شعبك الذىٰ أصعدته من أرض مصر، زاغوا سريعا عن الطريق الذىٰ أوصيتهم به، وصنعوا لهم عجلا مسبوكا وسجدوا وذبحوا له) [الخروج ١٠٣٢-٨]

(٣٨)ارجع إلىٰ صفحة ٨٧ لتبيان التزام بنوا إسرائيل بالآلهة الفرعونية وكان من حذق المصريين أن صنعوا تمثالا لإله لهم اسمه ممنون بمدينة طيبة (الأقصر الحالية) وجعلوا في أنفه خوارا يصدر صوتا عند هبوب الرياح وقد تعلم منهم اليهود تلك الخدعة. (الموسوعة المصرية: تاريخ مصر القديم وآثارها المجلد الأول- الجزء الثاني القاهرة ١٩٧٨

نزل موسىٰ من الجبل وغضب علىٰ قومه والطريف أنهم في تحريفهم لتوراتهم قد اتهموا هارون بذلك الفعل إلا أن الله ينسب هذا العمل للسامرىٰ وهىٰ عادة اليهودىٰ الصاق التهم للأنبياء والإساءة إلىٰ سيرهم، إلاأن موسىٰ سأل السامري فقال السامري دفاعا عن نفسه"بصرت بما لم يبصروا به، فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها، كذلت سولت لي نفسي" [طه ٩٦] وكان عقاب الله لهم أن سلط بعضهم علىٰ بعض في معركة بينهم سقط فيها الآلاف، وكانت تلك أولىٰ بوادر غضب الله عليهم، ولكن الله تاب عليهم بعد أن طلبوا الرحمة "فتاب عليهم إنه هو التواب الرحيم" [البقرة ٥٤]. حبا الله بني إسرائيل الخير كله فقد أنجاهم من آل فرعون، وأهلك فرعون نفسه بجنوده أمام أعينهم وجعلهم أحرارا وجعل فيهم الأنبياء وفجر لهم الصخر وأنزل عليهم المن والسلوىٰ"وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين " [المائدة ٢٠] وإتماما لنعمته عليهم أوحىٰ إلىٰ موسىٰ أن يقودهم للأرض المقدسة فهان عليهم الهوان فلم يكادوا يسمعون كلمة الغزو لدخول أريحا مخرجين الكنعانيين والحيثيين حتىٰ قالوا لموسىٰ "إن بها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتىٰ يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون" [المائدة ٢٢] وكأنهم طمعوا أن يخرج القوم منها بما ألفوا من معجزات وخوارق ثم يدخلوا موفورين لا يصبهم جرح أو عنت ولما ألح موسىٰ عليهم قالوا"يا موسىٰ إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هنا قاعدون"[المائدة ٢٤] فشكا موسىٰ إلىٰ ربه قائلا "رب إنىٰ لاأملك إلا نفسىٰ وأخىٰ فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين" [المائدة ٢٥] فحكم الله"إنها محرمة عليهم، أربعين سنة يتيهون في الأرض، فلا تأس علىٰ القوم الفاسقين" [المائدة ٢٦]

بعد الخروج (١٢١٣ ق.م)

يذكر اليهود أن موسىٰ عليه السلام قد أحصىٰ عدد الرجال حاملىٰ السلاح فزادوا علىٰ الستمائة الف بمئة وأربع وخمسين رجلا، هنا ينبغىٰ علينا أن نتوقف، فالمبالغة إلىٰ حد الكذب هىٰ صفات نراها تنطبق علىٰ قوم قد اعتادوا المبالغة فيظهرمنهم من يعمد إلي المبالغة لجلب الانتباه ولإحداث الأثر في نفوس المستمع ولا يصح لهم المبالغة في التاريخ، والتاريخ الديني بالتحديد، أما إعتماد المبالغة من أجل تزوير وتحريف التاريخ بل والكتب المقدسة، فنحن لا نرىٰ فيها سوىٰ التجسيد للبارانويا القومية، ومرحلة مبكرة للغش والتدليس في الوثائق التاريخية، والتبعة هنا علىٰ من يبتلع الأكاذيب دون تمحيص والطريف في المبالغات الهيستيرية هنا هو التالىٰ:

فإن كان حملة السلاح قد تعدوا الستمائة الف، فكم كان تعداد الشعب الإسرائيلى آن ذاك؟ في هذه الحالة فإن أقل تقدير لتعداد أبناء إسرائيل لا يقل عن ستة ملايين، يعيشون كأقلية هامشية!! مساندة لأقلية أخرى أكبر منها عددا من بقايا الهكسوس، والتاريخ يذكر لنا أن أعداد البقايا من الهكسوس قد فاقوا أضعاف بنى إسرائيل عددا، فكم كان تعداد المصريين في ذلك الزمن، وهم الأغلبية ؟ مليارا !،

يذكر لنا التاريخ، أن الدولة الرومانية (عام ٣ ق.م) قامت بإحصاء تعداد المصريين بغية تحصيل الضرائب عليهم فبلغوا مليونين، وكان ذلك بعد إثنى عشر قرنا ونصف من زمان خروج موسى مع قومه من مصر، ولم نسمع عن أحداث أدت إلى انقراض المليار مصرى خلال هذة الفترة وعليه فلنفترض أن تعداد المصريين كان قد بلغ هذا الرقم (مليونى نسمة) في زمن موسى عليه السلام، ثم بقى على حاله اثنا عشر قرنا بعدها فكيف لقوم غرباء عن مصر وطامعين فيها، ويبلغ عدد حاملى السلاح من الرجال نيف وستمائة الف عدا النساء والشيوخ والأطفال أمام قلة من أصحاب البلاد

كيف لهذا العدد أن يفر في جنح الظلام دون إيقاظ جيرانهم، بجلبة الملايين الستة بأمتعتهم، ومسروقاتهم، ومواشيهم وأبقارهم؟

ولكي لا نظل في حيرة من أمرنا، فالقرآن الكريم (الشعراء – آية ٥٢-٥٧) يقول "وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون، فأرسل فرعون في المدائن حاشرين، إن هؤلاء لشرذمة قليلون، وانهم لنا لغائظون "و الشرذمة القليلون لا يزيدون على (٢٪- ٥٪) بأى حال من الأحوال وعليه فالعدد الذى أحصاه نبى الله موسى كان لا يزيد عن الف وستمائة وأربع وخمسين رجلاً، والتحريف كان بذكر الستمائة قبل الألف [٣٩]

هى عادة يهودية منذ نشأتهم وحتى اليوم، ولنا في خرافة مبالغات الهولوكوست أبلغ مثال فلو كان هتلر في أربعينات القرن الماضى قد أهلك ستة ملايين يهودي، غير من بقوا على قيد الحياة في ألمانيا وكانوا قرابة المليونين، وكان من حرق من اليهود ضمن من أحرق من جنسيات أخرى فكم أحرق ؟وكم كان تعداد الألمان ؟ وقد كان اليهود أيضا شرذمة قليلون فالمعروف أن هتلر قد

(٣٩)سورة المائدة (يحرفون الكلم من بعد مواضعه) الآية رقم (٤١) - كذلك (مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ) [النساء ٤٦] - وأيضا (يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ) [المائدة ١٣]

قام بجرائم قتل للعديد من الشعوب والأمم كالغجر مثلاً وهىٰ عادة جرمانية ورومانية كما سنرىٰ في الفصل الرابع بإذن الله.

التلمود ويوشع بن نون وإنتشار اليهودية في فلسطين بحد السيف

في فترة التيه، مات هارون، واتهم اليهود موسىٰ بقتله فبرأه الله[40] ، ثم مات موسىٰ، ولم يدخلا أرض فلسطين، وكان أول العهد ببني إسرائيل في فلسطين هي حرب إبادة (اقرأ سفر يشوع بالإصحاح السادس) ويوشع هذا هو الفتىٰ الذىٰ جرىٰ ذكره في القرآن في سورة الكهف إذ كان خادما لموسىٰ عليه السلام وأحد الأصفياء.

بعد وفاة موسىٰ، كان يوشع بن نون قد جاوز الخمسين من عمره.

تولىٰ يوشع بن نون قيادة بنىٰ إسرائيل، وهنا مرحلة خرج فيها اليهود من الشريعة بالكامل إذ اتجه يوشع مع شعب إسرائيل إلىٰ شرق الأردن، ثم عبروا النهر إلىٰ مدينة أريحا بمساعدة إمرأة زانية اسمها رحاب.

بعد استيلاءهم علىٰ المدينةبمساعدة رحاب الزانية وأهلها، قاموا بإبادة كل السكان والحيوانات أيضا لم تسلم من الابادة ، أما رحاب الزانية وأهلها، فقد سلموا من القتل، وادعىٰ واضعوا الأسفار قول يوشع بأن القتل (هو فريضة الشريعة التىٰ أمر الله بها موسىٰ وزكاة للرب) [سفر يشوع الإصحاح السادس]

صحيح أنه قد وجب علىٰ اليهود من بني إسرائيل التوجه للأرض التي وعد بها الله أبناء إبراهيم لكن الله لم يطلب من أي مؤمن كان أن يقوم بحرب إبادة كالتي يمارسها الهمج والعنصريون ولم تكن البشرية تعرف قبل هذا الحدث أي شيء عن حروب الإبادة ولم تعرف البشرية عن استيلاء قوم علىٰ أرض الغير بالإبادة إلا علىٰ يد يوشع بن نون بإسم الدين، دعاء محمد رسول الله قبل القتال (اللهم أنا عبدك وهم عبادك، نواصينا ونواصيهم بيدك، اللهم اهزمهم وانصرناعليهم- وكانت وصاياه لقادة جنوده في حروب دفاعية محضه (لمعاذ بن جبل وعلي بن أبي طالب مثلا) ((لا تقاتلوهم حتىٰ تدعوهم فإن أبوا فلا تقاتلوهم حتىٰ يبدءوكم، فإن بدأوكم فلا تقاتلوهم حتىٰ يقتلوا منكم قتيلا ثم أروهم القتيل وقولوا لهم هل إلىٰ خير من هذا سبيلا فلئن يهدي الله علىٰ يديك رجلا خير لك مما طلعت

---

(٤٠)سورةالأحزاب الآية ٦٩ (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسىٰ فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها)

عليه الشمس وغربت)) –فقصد القتال عند الأنبياء والمرسلين هو دفع الإعتداء لأن دم المخالف في شرع الله الذي لا يتغير حرام حتىٰ يبيحه باعتدائه، وبهذا يتم دحض ما يثار علىٰ مدىٰ القرون من انتشار الإسلام بالسيف، والآن وقد استعرضنا قلامة مما فعل يوشع بن نون ولن نستعرض ما قام به الملوك من بعده وأولهم داوود فإننا سنستعرض قبسا في الباب السادس يوضح كيفية انتشار المسيحية بالسيف

والمعروف أنه قد استمرأ هذا العمل وكرره مرات ومرات علىٰ حد ما ذكروه في أسفارهم حتىٰ تسنىٰ له أن يقيم أمة من الهمج والبعيدين عن منهج الرحمة الإلهية وكانت هزيمة العبرانيين للكنعانيين كما يصفها (وول ديورانت) في كتاب قصة الحضارة مثلا واضحا لإنقضاض جموع من الجياع علىٰ جماعة مستقرة وآمنة.

تقول نصوص الكتاب المقدس- الذىٰ كتبوه بأيديهم، أنهم استولوا علىٰ أحد المدن وقتلوا إثنىٰ عشر ألفا من سكانها وأحرقوها وصلبوا حاكمها، وهكذا قام الجندىٰ الفظ يوشع بن نون حكمه علىٰ قانون الطبيعة القائل بأن (أكثر الناس قتلا هم الذين يبقون أحياء) وهو القانون الذي ابتدعه اليهود وعملوا به طالما واتتهم الفرصة بحبل من الناس، إلىٰ الحد الذي جعلهم يدعون نصوصا في التوراة فقد جاء (في إصحاح ١٠-١٥ تثنية) أمر الله للأنبياء:

(حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها للصلح، فإن أجابتك إلىٰ الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلىٰ يدك فاضرب رجميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة غنيمة تغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك) التلمود: تثبت الكلمات أنها لم تأت من قِبل الله بل من قِبل كاتب عاشق للدماء.

تعليمات تتشابه مع اسلوب التتار بعدهم، وتفوق ظلم الفرعون، الذي ما فعل ما فعل إلا انتقاما من أغراب يشكلون طابورا خامسا في بلاده يكرهون أبناء البلاد الأصليين ويحقدون عليهم يستعبدونهم كلما واتتهم الفرصة إلا أن تلك الأفعال ماانفكت أن ردت إليهم كما سنرىٰ عن طريق الآشوريين والبابليين والرومان قبل المسيحية وبعدها، إذ أن البشرية قد تعلمت منهم الإبادة فمارستها عليهم وقد قسم يوشع بن نون الأرض المغتصبة

علىٰ الأسباط وترك ست مدن شرق نهر الأردن وغربه لتكون ملجأ للهاربين من القانون والمشردين والمنفيين، وبذلك نجح يوشع بن نون في إقامة أمة عنصرية من القتلة والهمج، مستغلا كونه قد عاصر موسىٰ عليه السلام كخادم له، فوضع قانون الإستيلاء والقتل والنهب، ثم كسا انحرافه عن طريق الشريعة بادعاء أن موسىٰ قد أخبره بذلك.

وهكذا ينفرد اليهود آنذاك بالأمراض التي عانت منها البشرية بعد ذلك للآن ألا وهىٰ العنصرية والإبادة للغير، والتطهير العرقي واستمر اليهود والعديد من مدعىٰ النبوة في سلك تلك المسالك واختلط الحابل بالنابل منذ ذلك الحين لديهم

(فخلف من بعدهم خلفا أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا) [سورة مريم الآية ٥٩]

والغريب أن العهد القديم لا يزال في نظر أغلب الكتابيين يعتبر كتابا مقدسا بعدما ناله القدر الأعظم من التحريف للسطو علىٰ التاريخ والمنطق والأرقام والجغرافية أيضـًا كما سنرىٰ خاصة بعد السبي البابلي.

٧-عهود حياة بنى إسرائيل في فلسطين:

كان اول العهد بنىٰ إسرائيل في فلسطين هىٰ حرب إبادة (إقرأ سفر يشوع بالإصحاح السادس) فعاش بنو إسرائيل في بعض تلال فلسطين علىٰ حساب الكنعانيين واليبوسيين وهىٰ قبائل عربية اختلطت بقبائل الفلستين (والتي سميت البلاد بعدها باسمهم) الآتية من جزيرة كريت وصارت البلاد تعرف قبل مجيء اليهود إما بأرض كنعان أو بفلسطين، أما اليهود الذين تعالوا علىٰ سكان البلاد الأصليين فقد انقسمت عهود حياتهم المنعزلة إلىٰ ثلاثة أقسام وهىٰ عهد القضاة ثم عهد الملوك ثم عهد الانقسام:

(١)عهد القضاة:

وهىٰ مرحلة مليئة بالصراع خاصة بين بنىٰ إسرائيل من ناحية وبين مدين ومؤاب وكان حكام اليهود في هذه الفترة قضاة من الكهنة ينتخبهم كبراء الشعب ولم تكن طاعة القضاة واجبة، وعليه فلم تتألف من بنىٰ إسرائيل أمة واحة متماسكة، إذ يستقل كل سبط من الأسباط بنفسه، ولم يكن نظام الحكم يقوم علىٰ أساس الدولة بل علىٰ الحكم الأبوىٰ أو القبلىٰ، وخلال عهد القضاة هذا، تغيرت حياة اليهود رويدا رويدا بتأثرهم من الكنعانيين فانتقلوا من حياة البدو إلىٰ حياة الإستقراروبدأوا يمارسون الزراعة إلىٰ جانب بعض

الحرف والصناعات البدائية وأعمال الفخاروالأكثر عجبا أنهم عبدوا إله عدوهم من الكنعانيين المعروف ببعل تاركين رب العالمين إله موسىٰ، ويذكر سفر القضاة أن هذه الفترة استمرت أربعة قرون غير أن آراء كل المؤرخين لا تقدرها إلا بقرن واحد نظرا لاعتياد الأسفار علىٰ المبالغة خاصة فيما يتعلق بالأرقام كما رأينا وسنرىٰ.

* هذا هو ما تذكرة أسفار اليهود وكتب معاصريهم ولا نصدق أن نبيا يفري هذا فإما هو ليس بنبي أو أن هناك بن نون آخر أو أن كتبهم وأسفارهم محرفة في هذه الأقاويل أيضا

(٢) عهد الملوك (١٢٥ سنة) ومشروعية الجهاد في سبيل اللّه:

٢-١ طالوت عليه السلام (١٠٦٠-١٠٣٥ ق م)

انهارعهد القضاة بعدما شاع الفساد والفسق والرشا بين القضاة وكانت في حاجة للتوحد أمام قبائل الفلستين الغزاة الآتين من جزيرة كريت (١٠٦٠ق م) بعدما أخرجوا الإسرائيليين من ديارهم، فطلب نسل إسرائيل من نبىٰ الله وآخر القضاة صموئيل أن يكون لهم ملكا يحاربون من ورائه، وهي حروب دفاعية شرعية لمواجهة الغزاة فاختارآخر القضاة (صموئيل) ملكهم الأول (شاؤول)أي طالوت يقول الله:

(ألم تر إلىٰ الملأ من بني إسرائيل من بعد موسىٰ إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله، قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا، قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا، فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين [٤١]وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا، قالوا أنىٰ يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال، قال إن الله قد اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم) [انظر سورة البقرة من الآية ٢٥٦ حتىٰ الآية ٢٥٠]

كان طالوت طويل القامة قوي البنية قادرا علىٰ مواجهة ملك الفلسطينيين جلبات (جالوت) قوىٰ البنية المدرع بالدروع وقد قال لهم نبيهم كما جاء في سورة البقرة ٢٤٨: (إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسىٰ وآل هارون تحمله الملائكة، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) وحكم طالوت ٢٥ سنة

(٤١)والطريف أنها نفس الأداة التي يستخدمها أطفال فلسطين العزل ضد الدروع الإسرائيلية .

٢-٢ داوود عليه السلام

خاض الإسرائيليون المعارك بقيادة طالوت وانتصروا فيها كلها، إلا أنه في إحدىٰ المعارك علموا أن جالوت قد جهز نفسه جيدا ليسأصلهم، فبرز له نبي الله داوود وكان لا يزال صبيا، فاستهان به جالوت إلا أن إرادة الله جعلت نبىٰ الله داوود يهزم جالوت ويقتله بمقلاعه*وبعد صراع بين داوود وطالوت تولىٰ داوود الملك، وفي هذا يقول لنا رب العالمين في الآية ٢٥١ من سورة البقرة:

(فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل علىٰ العالمين)

واستولىٰ داوود عليه السلام علىٰ أورشليم وحكم عشرين سنة (١٠٣٥-١٠١٥ق م) وكانت مصر جنوب مملكة إسرائيل في ذلك الوقت تمر بفترات عصيبة وانحسر نفوذها علىٰ بلاد الشام وكانت الدولة الآشورية كذلك في الشمال من مملكة إسرائيل قد بدأت تتداعىٰ مما أتاح لداود عليه السلام بسط سيطرته علىٰ مساحة زادت علىٰ (١٢٠٠٠كم مربع) دعا فيها إلىٰ الله للشعوب المجاورة وأخضع بالقوة الكنعانيين وقبائل الفلستين وقتل منهم تقتيلا كبيرا، واستقرحكم داوود الذي سخر له الله الطير والجبال وألان له الحديد [سورة سبأ الآيه ١٠] (ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير والنا له الحديد)، وبفضل مؤازرة الفينيقيين له بالمال ذلك مقابل مخرج آمن وسهل لتجارة الفينيقيين عبر البحر الأحمر، وتزوج نبي الله داوود من تسع وتسعين امرأة وبقىٰ الحكم وراثيا من بعده فتولىٰ نبىٰ الله سليمان عليه السلام

٢-٣ سليمان عليه السلام (١٠١٥- ٩٣٥ ق م)

وهو من ادعىٰ اليهود في كتبهم كذبا عليه أنه بن زنا من زوجه يوريا- حكم المملكة من بعده وهو الملك الثالث لمملكة إسرائيل وقد نعم - هو أيضا- بتأييد الله له مخضعا بالقوة كل من جاوره لدين الله، إذ سخر له الله الريح والجبال والطير والجن

(فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ) [الأنبياء ٧٩]

(وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ) [النمل ١٦]

(وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) [النمل ١٧]

(وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ) [النمل ٢٠]

وفتنه الله فتاب وطلب من الله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده

(ولَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ * وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ * وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ * هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ* وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [سورة ص من ٣٤-٤٠]

أما الجن فكانوا أيضا كما يذكر لنا الله في سورة النمل بالآية ٤٤

(يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور) [سورة سبأ -١٢]

وعلمه لغة الطير والدواب كما كانت الظروف الدولية مؤاتية أيضا كما سبق وذكرنا في عهد داوود فبلغ من سلطانه حدا مكنه من مصاهرة فرعون مصر (شيشنق) بزواجه من ابنته وكانت ملكة سبأ باليمن قد آمنت بدعوته أيضا ودخلت اليمن الدين الجديد بعد أن أظهر لها سليمان قدرة الله بأن أتىٰ لها سليمان بعرشها

(قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ *قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ لله رب العالمين) [النمل ٤١- ٤٤]

وعلا بنوا إسرائيل وأفسدوا في الأرض في هذه الأثناء علوهم الكبير الأول

(وقضيناإلىٰ بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا)*

كان لسليمان ألف امرأة مابين زوجة وجارية ومن ضمن الزوجات إبنة شيشنق فرعون مصر وإبنة ملك الفينيقيين وبلقيس ملكة سبأ وأنجب منها منليك الجد الأكبر للنجاشي وكان اليهود منذ أيام موسىٰ عليه السلام وحتىٰ عهد الملك داوود عليه السلام يقيمون صلواتهم في خيمة الاجتماع تتبعهم الخيمة أينما ذهبوا لذلك رأىٰ النبي سليمان عليه السلام

الاستعاضة عن هذه الخيمة ببناء ثابت وقوي وكان سليمان قد اشترىٰ قطعة من الأرض من عرنون اليبوسي مقام عليها معبد فرعوني قديم أقامه أمنحتب الثاني عام ٢٠٦٥ ق م

بنىٰ نبي الله سليمان علىٰ المعبد الفرعوني القديم عليه السلام هيكل سليمان وبجوار الهيكل بنىٰ قصوره ومساكن الكهنة، يحدثنا سفر الملوك الأول من التوراة عن قيام الملك سليمان في الفترة بين عامي (١٠١٥-٩٣٥ ق م) بتشييد قصر منيف لزوجته - ابنة الفرعون- علىٰ تل أوفيل [٤٢]وحكم ما يقرب من ٨٠ عاما

لم تمض بضعة عقود علىٰ وفاة نبي الله سليمان عليه السلام (عام ٩٣٥ق م) حتىٰ عبدوا الأصنام وعبدوا آلهة الشعوب المجاورة وجرت الأحداث لصالح شيشنق فرعون مصر (الذي صاهره) إذ أعلن رحبعام بن سليمان من الزوجة الفرعونية نفسه ملكا علىٰ المملكة ولم يحظ إلا بمبايعة سبطىٰ يهوذا وبنيامين في أورشليم والجنوب منها حتىٰ حدود مصر، أما ابن سليمان الآخر من زوجة أخرىٰ وكان يدعىٰ يربعام بن سليمان فقد بايعته باقىٰ أسباط بنىٰ إسرائيل العشرة في الشمال

(٣) عهد الانقسام وزوال ملك بنى إسرائيل (٩٣٥ – ٦٠٨ ق م):

كان انقسام مملكة إسرائيل بعد وفاة سليمان بداية النهاية بالنسبة لدولة اليهود في فلسطين كما كانت بمثابة بداية معاناة هذا الشعب مما اقترفت يداه من فساد وظلم للشعوب والابادة الجماعية التىٰ أقاموا دولتهم عليها،

وانقسمت دولة اليهود إلىٰ:

مملكة يهوذا: في الجنوب وعاصمتها أورشليم (القدس) سنة٩٣٤ ق م. (رحبعام)

ومملكة إسرائيل: في الشمال وعاصمتها شكيم (نابلس) سنة ٩٣٥ ق م. (يربعام)

(٤)عهد السبي الآشوري لمملكة إسرائيل والاحتلال المصري لمملكة يهوذا :

بالنسبة لمملكة إسرائيل في الشمال فقد قام (أسرحادون) سرجون الثاني الملك الآشوري بالاستيلاء عليها برجال أولي بأس شديد عام ٧٢١ ق.م وقام باعتقال هوشع بن آيلة ملكها وسيق مع شعبه إلىٰ الأسر الآشوري (وكان مدة بقاؤها ٢١٤ عاما)، وقام

(٤٢)من مقالة الدكتور مكاري أرمانيوس سرور الباحث في التاريخ القبطي - بالأهرام عام ٢٠٠١ ميلادية ولنا عودة للمقال في الباب الخامس وقت دمار الهيكل بعد ألف عام حسب نبوءة المسيح عليه السلام حسب إنجيل متىٰ.

أسرحادون بالإستيلاء علىٰ مصر لمدة قصيرة وتحررت في عهد بسماتيك مؤسس الأسرة السادسة والعشرين سنة ٦٦٤ ق م.أما مملكة يهوذا في الجنوب فلم يقف فراعين مصر مكتوفي الأيدي بعد وفاة سليمان فلما تم قتل ملك فينيقيا الساعد الأيمن لمملكة إسرائيل والممول المالي لها، كان شيشنق زمن سليمان قد شجع الخلاف بين أبناء سليمان حتىٰ إذا ما تحقق ذلك علىٰ مدىٰ قرون وتحقق لمصر الاستقراروزحف فرعونها (نخاو ابن بسماتيك) برجال أولىٰ بأس شديد أيضا علىٰ مملكة يهوذا عام ٦٠٨ ق.م واحتلها ثم استمرفي الزحف حتىٰ استولىٰ علىٰ مملكة إسرائيل والتي كانت ضمن أملاك الآشوريين قبل انهيارهاعلىٰ أيدي الإمبراطورية البابلية الفتية (مدة بقاؤها٣٢٧ سنة) .

(٥) عهد السبي البابلي:

استشاط نبوخذ نصر (بختنصر) – الملك البابلي – غضبا لاستيلاء مصر علىٰ أملاك الآشوريين والتي كان يعتبر بابل وريثتها الوحيدة، فزحف علىٰ مملكة إسرائيل واستولىٰ عليها وهزم فرعون مصر واستمر زاحفا حتىٰ استولىٰ علىٰ مملكة يهوذا أيضا وقام بتدمير معبد سليمان (هيكل سليمان) وقام أيضا بسبي كل الشعب الإسرائيلي إلىٰ بابل واستعبدهم في السبي منذ سنة ٥٧٦ ق.م وانتهت دولتي اليهود في فلسطين.

(فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا) الإسراء ٥

هنا تجدر الإشارة إلىٰ تواجد بنىٰ إسرائيل (وهم نسل نبي الله يعقوب) في فلسطين كالتالي:

- بضع عقود في حياة إبراهيم حتىٰ يعقوب عليهما السلام وأتىٰ آل يعقوب بعدها لمصر في القرن السابع عشر قبل الميلاد.
- أربعة قرون في مصر حتىٰ الخروج سنة ١٢١٣ق م.
- التيه في سيناء في عهد نبي الله موسىٰ لمدة أربعين عاما حتىٰ (١١٧٣ق م).
- الدخول إلىٰ أطراف فلسطين في عهد يوشع بن نون منذ (١١٧٠ ق م) وكانت حياتهم حياة جماعات جائعة.
- عهد سفر القضاة حتىٰ (١١٥٠ ق م حتىٰ ١٠٥٠ ق م) وكانت حياتهم حياه قبلية.

- عهد نبي الله طالوت (١٠٥٠-١٠٣٥ ق م) وهي بداية وجود دولة بدائية.
- عهد نبي الله داوود (١٠٣٥-١٠١٥ ق م) وهي مرحلة ترسيخ الدولة.
- عهد نبي الله سليمان (١٠١٥- ٩٣٥ ق م)و تمثل أكبر كيان توصلوا إليه ولم يتسن لأحد من قبله من الإسرائيليين.
- مملكة يهوذا (٩٣٥-٦٠٨ ق م) ومملكة إسرائيل (٩٣٥-٧٢١ ق م) وهي مرحلة بداية النهاية.

وهكذا لم تتعد فترة بقاء اليهود في أجزاء من فلسطين- التي لم تبلغ ٤٥٪ من مساحة فلسطين التاريخية القرون الخمسة (ما بين ٤٤٠ -٤٨٥ عاما) منها ٣١٤ سنة كدولة أو ككيان مستقل و١٢٣ سنة كجماعات همجية، كالفترة التي قضتها بريطانيا بالهند أو هولندا بإندونيسيا ونصف الفترة التي قضاها المسلمون في شبه الجزيرة الأيبيرية (الأندلس) وقد شابها سيطرة ثقافية عربية وتجارية ومالية فينيقية وسيطرة ثقافية وعسكرية فرعونية وآشورية وبابلية وفارسية وقد سبقهم في التواجد على أرض فلسطين أقوام عديدة منهم الكنعانيين (عشرون قرنا قبلهم) واليبوسيين (خمسة عشر قرنا قبلهم) الذين اندمجوا مع قبائل الفلستين الآتية من جزيرة كريت بالبحر المتوسط.

٨- التلمود البابلي والتوراة البابلية (التزوير الأول)[٤٣]

في بابل بالعراق ظهر أول تلمود (التلمود البابلي) وهو الأكثر أهمية لليهود وأغلبه بالآرامية الشرقية وبها عبارات عبرية وعربية وسريانية وكلدانية وكتب بعد نحو ستة قرون (القرن السادس ق م) من زمن نبي الله موسى ولا توجد منه إلا نسخة ميونيخ المطبوعة عام ١٣٦٩ م وبه تعليمات تنافي جميع الديانات وكيفية إبادة البشر وخداعهم، والإستيلاء على ممتلكاتهم وأول من قام بتدوينه (آشي) وهو من الفريسيين الذين اعتقدوا أن التوراة ليست هي كل الكتب المقدسة وإنما بجانبها روايات شفاهيه تناقلها الحاخامات من جيل إلى جيل ولسوف نقوم من

(٤٣)في سورة المائدة (فبما نقدهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية، يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به) ويقول الله في البقرة ٧٩ "فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون" وفي سورة الشورى الآية ١٤ (وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب).

باب العلم بالشيء وليس كله بذكر بعض الفقرات الأشد تهذيبا بالنسبة إلى غيرها[٤٤]:

- يقول التلمود أن النهار اثنا عشر ساعة، في الثلاثة الأولى منها يجلس الله ويطالع الشريعة، وفي الثلاثة الثانية يحكم، وفى الثلاثة الثالثة يطعم العالم، وفى الثلاثة الأخيرة يجلس ويلعب مع الحوت ملك الأسماك.
- إن الله يندم لأنه ترك اليهود في حالة من التعاسة والسبي حتى أنه يلطم خديه ويبكى كل يوم فتسقط من عينه دمعتان في البحر فيسمع دويها من بدء العالم إلى منتهاه، وتضطرب المياه، وترتجف الأرض فتحدث الزلازل.
- أن الله غضب على اليهود في فترة التيه بسيناء وندم على ذلك بعد أن زال تهوره وطيشه !!!
- يعتبرالتلمود أن الله مصدر الشر والخير فلا داعي لليهود أن يرفضوا طبيعتهم وعليهم أن يقبلوها كما هي كما يفعل الله!!

أما التوراة فقد شعر اليهود بضرورة تدوينها ولم تكن لديهم من المصادر إلا الذاكرة فكتبت الأسفار الخمسة الأولى (سفر التكوين، الخروج، اللاويين، العدد، التثنية) أثناء السبي البابلي بما يعنى انقضاء نحو سبعة قرون، فكان السطو والتحريف والأهواء والمبالغات والتفسيرات الشعبية الهمجية والظنون وسرد سير الأنبياء على ضوء كل ما سبق فتم سرد سير الأنبياء في كتاباتهم كأبعد ما يكونوا عن القدوة والاحترام والتقديس، كما تطاولوا على الله جل وعلا وبذلك احتفظوا بالشكل العام للتوراة لكن بمضمون خرب ومدمر وكان اليهود قد تأثروا بالعبادات والأساطير المحلية في بابل وما جاورها، وخاصة تأثرهم (ببعل) إله البابليين، وكان (مثرا أو متراس) إله الفرس المنقذ والمخلص من ضمن ما تأثروا به، وهى تلك الديانة التي ازدهرت في فارس المجاورة لبابل قبل الميلاد بنحو ستة قرون أي في نفس فترة السبي البابلي لليهود وقد ذكر القرآن هذا التأثر بقوله تعالى "وقالت اليهود عزير بن الله وقالت النصارى المسيح بن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل"

(٤٤)التلمود شريعة بنى إسرائيل – أحمد صبري سورة التوبة الآية رقم ٣٠الآية ١٤.

وتذكر هذه الديانات الوضعية التي ضاهؤها ففي المثراسية مثلا والتي تذكر أن:

١. مثرا كان وسيطا بين الله والبشر.

٢. مولده في زاوية من الأرض يوم ٢٥ ديسمبر.

٣. كان له اثنا عشر حواريا.

٤. مات ليخلص البشر من خطاياهم.

٥. دفن وعاد للحياة وقام من قبره.

٦. صعد للسماء أمام تلاميذه.

٧. كان يدعىٰ المخلص والمنقذ.

في عهد السبي الآشوري تأثروا بالمثراسية، ناهيكم عن تأثرهم المسبق باسطورة الترويكا الإلهية المكونة من إيزيس وأوزوريس وحورس المصرية قبل خروجهم من مصر، وكذلك أدونيس معبود السوريين أثناء تواجدهم في فلسطين (ولا يزالون يسمون الله أدوناي حتىٰ اليوم)، وتنص فلكلورات مصرية وسورية وعلىٰ ألوهية معبودات تلك الأساطير الشعبية أما في بابل فكانوا يساقون بالقوة إلىٰ مشاهدة مسرحيات تتحدث عن قصة محاكمة بعل (الإله) منذ عهد بختنصر قبل ميلاد المسيح بستة قرون وكانت تعرض عليهم كل ربيع وهىٰ قصة شبيهة بكل عناصرها بقصة محاكمة المسيح (التي لم يذكرها القرآن) وكان بعل هو المخلص والمنقذ آمنوا ببعل وتركوا إيمانهم بالله فأرسل الله إليهم الأنبياء يدعونهم

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَـٰلِقِينَ ۞ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ۞فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۞ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۞وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ۞سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ [الصافات ١٢٣-١٢٦]، فتغلغلت قصة بعل في ضمائرهم وموروثهم الشعبي لقرون واليكم بعض عناصرها

١) أخذ بعل أسيرا.

٢) وبعل هو الله.

٣) حوكم بعل علنا.

٤) جرح بعل بعد المحاكمة

٥) اقتيد بعل لتنفيذ الحكم علىٰ الجبل.

٦) كان مع بعل مجرم حكم عليه بالإعدام وطلب الشعب إعدامه والعفو عن المجرم.

٧) بعد قتل بعل عم الظلام وانطلق الرعد واضطرب الناس.

٨) حرس بعل في قبره حتىٰ لا يسرق أتباعه جثمانه.

٩) الأمهات جلسن حول مقبرة بعل يبكينه

١٠) قام بعل من الموت وعاد للحياة مع مطلع النيروز (الربيع).فيسمون العيد عيد القيامة

١١) وصعد للسماء (٤٥).

وهكذا تأثر يهود السبي البابلي بالموروث البابلي الوثني بعد تأثرهم بمعبودات آشور (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ) [هود ١١٠ & فصلت ٤٥]

بدأ مؤلفو التوراة والتلمود عملية توفيق وترقيع بأحداث متأثرة بالثقافة التي أجبروا عليها، وظهر التلمود البابلي والتوراة البابلية متأثرا بالثقافة المحيطة وعلىٰ الرغم من التزامهم بالوحدانية، في محاولة لرسم تقاليد الشعب اليهودي وتوحيدهم تحت ضغوط محنة الأسر والسبي البابلي، إلا أنهم أضافوا وحرفوا وفشلوا فشلا ذريعا في الالتزام بالناموس الذي أنزل علىٰ نبي الله موسىٰ عيه الصلاة والسلام وبدأوا في انتظار المخلص والمنقذ وتماما كأي مُنتَج مُقَلّد وجريا علىٰ عاداتهم، صارت الادعاءات العديدة وفي مواطن متفرقة من كتبهم الموضوعة - بعد أن نسوا حظا مما ذكروا به - تتحدث عن تلك الافتراآت كحقائق، وداعبتهم أحلام اليقظة أن يكون لهم نبيا مثل بعل ومثرا

(٤٥) مقارنة الأديان (المسيحية)– الجزء الثاني – الطبعة السادسة للدكتور أحمد شلبي.

٩- قورش ملك الفرس (عزرا والتزوير الثاني) لكتبهم المقدسة:

انهارت الدولة البابلية واحتل قورش ملك الفرس بابل دون قتال ما بين عامي (٥٣٨-٥٤٠ ق م) فهاله عدم تجانس الشعوب المختلفة التي سكنت بابل وكانت سياسة بابل تقوم علىٰ سبىٰ الشعوب المهزومة ونقل موطنها إلىٰ أرجاء مختلفة من الإمبراطورية مما أدىٰ في النهاية إلىٰ تفكك الدولة وهزيمتها وانهيارها فسمح قورش للشعوب المأسورة بالعودة إلىٰ البلاد التي أتت منها وكان من ضمن هذه الشعوب الشعب اليهودي، ولكن قسما من اليهود من الذين طاب لهم المقام في بابل وصارت لهم مصالح وأموال فيها عزفوا عن العودة لفلسطين أما الفقراء فشعروا أن عودتهم لفلسطين تحقق لهم أحلام يقظة كانت تراودهم وسمح قورش لهم بالعودة إلىٰ فلسطين، وبنصائح اليهود الباقين في دولة الفرس ممن لم يعودوا إلىٰ فلسطين، قام (قمبيز بن قورش) بالهجوم علىٰ مصر عام ٥٢٥ ق م

و أصبح قمبيز أول ملك (بعد تحتمس الثالث قبل ذلك بألف عام)[٤٦] ملكا علىٰ منطقة واقعة بين النيل والفرات وهكذا داعبت اليهود أحلام اليقظة بأن يكون لهم هذا الملك وبدأت عمليات التحريف والدس علىٰ كتبهم وأسفارهم للسطو علىٰ أمجاد الشعوب في موجة ثانية من تحريف كتبهم المقدسة أثناء تواجدهم بفلسطين (يحرفون الكلم من بعض مواضعه) ومن الطرائف سنذكر النذر اليسير من الجرأة علىٰ الله والملائكة والنبيين إذ يدعي اليهود أن"ميتاترون"هو رئيس الملائكة ولكن ملكا آخر هو"إمبائيل" ضربه بالنار!!و أن "جبرائيل " وحده يعلم جميع اللغات وهو الذي علم يوسف اللغات كلها في الدنيا وانه أنقذ ثلاثة من الحاخامات الذين حاول نبوخذ نصر قتلهم بالحرق فطلب منه "جركيمو" ملك البرد !!أن يخمدها فقاطعه قائلا أنا ملك النار واتفق مع الله أن ينقذهم فأذن له الله ولسنا نعلم ما هذا الخرف ؟ ثم يدعون أن آدم عليه السلام قد أنجب الشياطين من شيطانة اسمها "ليليت" كان يضاجعها ١٣٠ سنة[٤٧]

(٤٦)الذي انتصر في ١٩ معركة خاضها في ٢٠ عاما ومنها معركة قادش للإستيلاء علىٰ هرمجدو ضد السوريين سنة ١٤٤٨ ق م.

(٤٧)التلمود شريعة بني إسرائيل – أحمد صبري.

كم هائل من الأساطير لا ولن نقدر علىٰ حصرها وإن أردنا، ونوعية هذه الكتابات تمثل عنصرا فريدا من الكتابات لا يقدر علىٰ الإتيان بها إلا اليهود، ولنا أن ننوه أن تلك الإرهاصات قد كتبت بيد حكماء بنىٰ إسرائيل فترىٰ كيف كان حال العامة منهم ؟ أما عن التوراة فقد حرص اليهود علىٰ التأكيد علىٰ عنصرية الديانة ووحدانية الله وادعاء حقوقهم دون غيرهم في أورشليم (القدس) وإن لم تخل أيضا من الضلال والإساءة لله جل وعلىٰ ولجميع الأنبياء، وبعد وفاة عزرا أكمل الكهنة من بعده ما بدأه فكتبوا هم بدورهم ما يجيش بصدورهم وإضافة العديد من الكتب التي دعوها مقدسة بما يأملون علىٰ أنها تاريخ ونبوءات أنبياء للمستقبل تندد ببابل وبمصر والكنعانيين وتنعت سكان شرق الأردن بالمؤابيين ومعناها بالآرامية كما أطلق عليهم اليهود (الذين لا أب لهم) والعمونيين (أي الأعمام) إذ يدعون أن بنات لوط قد ضاجعنه وأنجبن منه اعمامهم والعياذ بالله، وتمجد قورش، وتصفه بالمخلص!، فزوروا التاريخ كما يحلو لهم وأخبروا عن مستقبل البشرية كما يتمنون، كما اعتمدوا علىٰ تشريعات (حمورابىٰ) بل وضمنوا أجزاء منها وكان ملجأهم الفكري هو تبنىٰ فكرة المخلص والمنقذ والمهدي المنتظر التي استمدوها من الديانات الفارسية الوضعية

ويستمر التزوير الثاني للتوراة حتىٰ القرن الثالث قبل ميلاد السيد المسيح علي السلام، وهنا تبدأ ملحمة تاريخية وليست دينية لعودتهم لفلسطين من الشتات ببناء المذبح (مذبح الصخرة)وكان مكانا لعبادة كل الأقوام الساكنة في فلسطين وكعادة التدرج والاستيلاء البطيء المبرمج علىٰ التاريخ والجغرافية معًا، وبتلك الوسائل ضمن نضالهم تمكن اليهود من إقناع دارا الأول (داريوس الأول) ببناء معبد أورشليم علىٰ أن تتحملها خزانة عبر الفرات، وأصبح هو أيضا مزارا لكل الأقوام الساكنة في المنطقة، وفىٰ عهد الملك (أحشيروش) الفارسي الذي وقع في غرام (أستير) ابنة أخت وزيره (مردخاىٰ)، أعطىٰ هذا الملك أمرا إمبراطوريا ببناء مدينة أورشليم، وتعيين نحميا واليا علىٰ يهوذا في منتصف القرن الخامس ق م، كانت أستير اليهودية، الملكة التوجة علىٰ بلاد الفرس، وبعد ذلك جلب نحميا الكاهن (عزرا)[٤٨]من بابل لينظم العبادة اليهودية في يهوذا وأقام عزرا البابلي دينا عنصريا قائما علىٰ فكرة الشعب المختار كرد فعل علىٰ فترات الذل، بدلاً من دين موسىٰ السماوي.

---

(٤٨)وعزرا بالنسبة لتحريف الديانة في نظرنا يقارن ببولس الرسول للمسيحية.

قاد (عزرا) الشعب اليهودي في طريق العودة إلىٰ فلسطين وآل علىٰ نفسه إكمال الأسفارمن وضعه [٤٩] وكتابة التلمود الفلسطيني.

وعن كتابة التلمود، يقول الدكتور جوزيف باركلي "بعض أقوال التلمود مغال فيها والبعض الآخر كريه وبعضها كفر وهىٰ أثر موضوع من جهد إنساني غير عادىٰ وللعقل الإنساني وأيضا للحماقة الإنسانية"إذ تصف من ضمن ما تصف كيفية الاستيلاء علىٰ أراض وحقوق الغير بالختل والخديعة والجنس أحيانا وتصف كيفية التخلص من الأغيار (الجوييم) بالقتل، إذ بعد أن استكمل نحميا بناء أسوار أورشليم حول مدينة اليبوسيين، أجبر قبائل يهودا علىٰ إرسال عشرة بالمائة من تعداد كل قبيلة ليسكنوا المدينة بتأييد الفرس رغم اعتراض أصحاب البلاد، أما الكاهن عزرا الذي نظم العبادة اليهودية في معبد القدس الجديد فقد أجبر كل من تزوج من أجنبية علىٰ طلاقها، قائلا لهم كما ذكر في التلمود، تأكيدا لعنصرية الديانة اليهودية المحرفة (لم ينفصل شعب إسرائيل والكهنة واللاويين من شعوب الأراضي حسب رجاستهم الكنعانيين والحيثيين والفريزيون واليبوسيين والعمونيين والمؤابيين والمصريين والأموريين لأنهم اتخذوا من بناتهم لأنفسهم ولبنيهم واختلط الزرع المقدس بشعوب الأرض والآن لا تعطوا بناتكم لبنيهم ولاتأخذوا بناتهم لبنيكم ولا تطلبوا سلالاتهم وخيرهم للابد، إنكم قد خنتم وأخذتم نساء غريبة لتزيدواعلىٰ إثم إسرائيل، فاعترفوا الآن للرب-إله آبائكم-وأعملوامرضاته وانفصلوا عن شعوب الأرض وعن النساء الغريبة فأجابت كل الجماعة وقالوا بصوت عظيم كما كلمتنا كذلك نعمل) [٥٠]وأقام عزرا ديانته الجديدة علىٰ أساس عنصري تقوم علىٰ محور أساسي هو فكرة شعب الله المختار الذي يجب أن ينفصل عن باقي الشعوب ويتعالىٰ عليها، ويعتبر اليهود الكاهن عزرا في مستوىٰ موسىٰ بل ويعلو عليه وجاء في قصص الأجادا التي كتبها أحبار اليهود عن هذا الكاهن البابلي (لو أن موسىٰ لم يسبقه، لكان عزرا هو الذي تلقىٰ التوراة) [٥١] وأصبحت تعاليم عزرا هي التىٰ جعلت الكاهن الأكبر عند اليهود أعلىٰ منزلة في المجتمع الجديد، حتىٰ أصبح حكام اليهود الجدد كلهم من طائفة الكهنة، وأقام عزرا البابلي دينا

(٤٩)من كتاب (تاريخ اليهود) الجزء الثاني للكاتب أحمد عثمان.

(٥٠) سفر أستير وهو ما دسه مردخاي علىٰ توراة موسىٰ تمجيدا لأستر التي أنقذت شعب إسرائيل بإغراء الجنس وبجمالها، وكانت تلك الإصحاحات أحد أسباب العداوة بين شكيم (نابلس) وأورشليم (القدس) – تتطابق الأفكار مع أفكار العلويين عن علي كرم الله وجهه.

(٥١)سفر أستير وهو ما دسه مردخاي علىٰ توراة موسىٰ تمجيدا لأستر التي أنقذت شعب إسرائيل بإغراء الجنس وبجمالها، وكانت تلك الإصحاحات أحد أسباب العداوة بين شكيم (نابلس) وأورشليم (القدس) – تتطابق الأفكار مع أفكار العلويين عن علي كرم الله وجهه.

عنصريا قائما علىٰ فكرة الشعب المختاربدلا من دين موسىٰ السماوي وهكذا تمكنوا بالتزلف للأقوياء من فرض أمرا واقعا يتشابه مع ما جرىٰ في القرن العشرين بعد الميلاد.

١٠-دولة الإغريق والاسكندرالأكبر والنص السبعيني للتوراة (التزوير الثالث):

لم تمض ثمانون عاما حتىٰ سقطت الإمبراطورية الفارسية علىٰ يد الإسكندر الأكبر المقدوني الذي سيطر علىٰ معظم أرجاء العالم بما فيها فارس ومصر (٣٢٣ ق م) بعد هزيمة داريوس الثالث (دارا الثالث)، إلا أن وفاته المفاجئة في بابل جعلت قادة جنده يقومون باقتسام العالم بينهم، فكانت سوريا بما فيها يهوذا وبابل (العراق) من نصيب سلوقس، أما مصر فكانت من نصيب بطليموس (التي دفن فيها) وضاع شبه الحكم الذاتي لليهود علىٰ يهوذا، فحدثت بعض القلاقل ومحاولات التمرد فأخمدها السلوقيون فاستعان اليهود - بالتزلف للأقوىٰ كعادتهم - بالبطالسة، فاحتل بطليموس القدس (أورشليم) دون مقاومة بمساعدة اليهود، وكانت مكافأتهم أن اصطحب بطليموس كثيرا من اليهود للعمل معه في جيشه ونقلهم للإسكندرية، وفىٰ عهد فلادفيوس (بطليموس الثاني) الذي قام ببناء مكتبة الأسكندرية وأمر بترجمة التوراة إلىٰ اللغة اليونانية مجاملة لليهود ليضمها إلىٰ مجموعة مجلدات المكتبة التي بلغت النصف مليون كتاب وقام الكاهن الأكبر باختيار ٧٢ من كبار اليهود (والذين اعتبروا مذ ذاك التاريخ ممثلين للشعب اليهودي وسموا بالسنهدرين) وأرسلهم لهذه المهمة التي عرفت بالنص السبعيني، بعدما ترجمت التوراة إلىٰ الآراميه من العبرية (وكانت الآرامية أكثر انتشارا من العبرية)، ثم تم ترجمتها من الآرامية إلىٰ اليونانية، فكتبت متأثرة بالثقافة الهلينية والفلسفةالأفلاطونية والمعتقدات الإغريقية، وبمرور التوراة علىٰ عدة ترجمات تمكن اليهود من تحريف الكلمات عن مواضعها كعادتهم لتعطىٰ معان أرادوا إضافتها أو حذفها، وأوضح مثال علىٰ هذا استبدال الألف موضع الستمائة، كذلك الستمائة موضع الألف في إحصاء نبي الله موسىٰ عليه الصلاة والسلام لحملة السلاح من الرجال في سفر الخروج

كانت الإسكندرية في ذلك العهد المركز الفكري الأوحد في العالم ومن خلال تلك الأحداث بدأ التأثير اليهودي تدريجيا علىٰ الفكر في العالم، وانتشر اليهود في مختلف البلدان التابعة للإغريق، فانتشروا في اليونان وسوريا ومصر وبخاصة الإسكندرية، غير

مجموعة من اليهود الذين فروا إلىٰ جزيرة فيلة بأسوان في جنوب مصرزمن غزو نبوخذ نصر (بختنصر) البابلي في القرن السادس قبل الميلاد (٥٧٦ ق م) هربا من السبي البابلي وغير من بقوا في بلاد الفرس والعراق والجزيرة العربية.

١١- عودة السلوقيين الإغريق وثورات اليهود:

في عام ١٩٠ ق م استولىٰ الملك السلوقىٰ أنتاخيوس علىٰ فلسطين مرة أخرىٰ من البطالسة وأقام مدينة أنتاخيوس (أنطاكيه)، وحينما تولىٰ سلوقس الرابع الحكم زاد نشاط الدولة الرومانية الفتية وبدأت في الاستيلاء علىٰ بعض أجزاء دولته فهجم علىٰ معبد القدس - لاحتياجه للمال لتمويل حروبه مع الدولة الرومانية - واستولىٰ علىٰ ما به من ذهب وفضة وأصدر مرسوما باعتبار المعبد معبدا يونانيا مفتوحا لجميع الشعوب والأديان للتعبد فيه بعدها احتج اليهود، وبزيادة تمردهم وضع لهم أصناما داخل المعبد ومنع ختان الأطفال كما أمر أنتاخيوس كاهن الهيكل بأن يضحي بالخنازير، وهنا بدأ كفاح اليهود للدفاع عن العقيدة، وهو كفاح يحسب لهم.

١٢- ثورة اليهود الأولى(٥٢):

ثار (ماتياس الهاسمونىٰ) سنة ١٦٨ ق م ضد سلوقس الرابع وكانت تلك هي المرة الأولىٰ التي حمل فيها الشعب اليهودي السلاح دفاعا عن دينهم دون قيادة الملوك الأنبياء لهم، فأرسل سلوقس الرابع جيشا واستولىٰ علىٰ مدينة القدس وطارد الثوار ومات ماتياس الهاسمونىٰ فتولىٰ ابنه مقابيوس (المكابي) الذي شجع اليهود علىٰ الاستشهاد واستمرت المقاومة حتىٰ عام ١٦٠ ق م

بعد وفاة مقابيوس تولىٰ أخوه (جوناثان) القيادة وقرر (ديميتريوس) محاربة جوناثان فاستطاع أعوان جوناثان التآمر علىٰ ديميتريوس بقتله في مقابل ترك جوناثان يصرف الأمور الدينية والاجتماعية لليهود ولم تمض سنوات علىٰ هذا الوضع حتىٰ دب الصراع بين المكابيين واستغل الأنباط العرب هذا الأمر بقيادة ملكهم الحارث (آريتاس) وأرسل جيشا من ٥٠ ألف مقاتل وخرجوا من البتراء عاصمتهم واستولوا علىٰ يهوذا والقدس.

---

(٥٢) يتضمن الفصل الخامس عددا آخر من الثورات اليهودية.

لـم تمـض سـنوات علـىٰ هـذه التطـورات حتـىٰ كانـت الإمبراطوريـة الرومانيـة تقـوم بالإجهاز علىٰ بقايا الدولة السلوقية الإغريقية وتستولي علىٰ ممتلكاتها في سوريا وفلسطين وأعطيت التعليمات للحارث ملك الأنباط بالانسحاب من يهوذا من القائد العسكري الروماني (بومبي).

أذعن آريتاس (الحارث) لطلب الرومان لارتباطه معهم بمعاهدة صداقة وتعاون وهكذا استولت روما علىٰ فلسطين عام ٦٣ ق م وبذلك انتهىٰ حكم اليهود الذاتي علىٰ يهوذا- حتىٰ منتصف القرن العشرين بعد الميلاد - وبدأت ملحمة يهودية لأكثر من أربعة قرون حتىٰ زمن انتصار المسيحية في القرن الرابع الميلادي، دفاعا عن عقيدتهم بضراوة وفداء تحسب لهم، وظهر بينهم من الاستشهاديين عدد جم، وطالما تفاخر اليهود بفداءهم عبر التاريخ، وهو نفس الفداء والاستشهاد الذي يلومون به الفلسطينيين اليوم دفاعا عن وحدانية الله ودين الله الحق وعن أرضهم، ولا نرىٰ كفاح اليهود في ذلك العصر مختلفا عن كفاح الفلسطينيين حاليا في القرنين العشرين والواحد والعشرين إلا في التزام الفلسطينيين بكتاب الله دون تحريف، ولسوف نستعرض كفاح اليهود عند تناول الفصل السادس.

الفصل الرابع

الدولة الرومانية ومولد المسيح

عليه السلام

١- نشأة الدولة الرومانية

تكونت قوة سياسية وحربية جديدة، أخذت في النمو لتأخذ دورها في مجريات الأمور بحوض البحر المتوسط، وقد نشأت هذه القوة في مدينة روما التي تطورت من بلدة صغيرة علىٰ نهر التيبر وسط شبه الجزيرة الإيطالية، إلىٰ عاصمة لدولة سيطرت علىٰ شبه الجزيرة الإيطالية كلها ودمرت الدولة الرومانية مدينة كورنث اليونانية في القرن الثالث قبل الميلاد واصطدمت بدولة قرطاجنه(٥٣) في حروب دامت من (٢٦٤ حتىٰ ١٤٦ ق م) (قرب مدينة تونس الحالية) بشمال إفريقيا والتي أسسها الفينيقيون واستلهمت منهم فن بناء السفن الحربية والتجارية، وما لبث أن سيطرت - بعد تدمير قرطاجه -علىٰ ساحل إفريقيا الشمالي، وسواحل أسبانيا وجنوب فرنسا والجزر الغربية كلها في البحر المتوسط، وأصبحت أكبر قوة عسكرية وبحرية تطل علىٰ هذا البحر وكان نظام الحكم جمهوريا بالتعبير السياسي المعاصر إذ ينتخب مجلس الشيوخ من بين أعضائه رئيسا للدولة.

٢- الدولة الرومانية قبل اعتناق المسيحية (٧١ ق م – ٣٧٠ م)

لدراسة هذا القرون الأربعة من التاريخ الإنساني، ينبغي علينا التفريق ما بين الدولة الرومانية والحضارة الرومانية وإن كنا قد تحدثنا في مقدمة الكتاب عن الطفولة البشرية كمرحلة تسبق الوصول إلىٰ النضوج البشري الذي يؤدي - إن تم - إلىٰ مسمىٰ الحضارة البشرية، فإن البشر لا يعدُوا متحضرين حتىٰ يصلوا إلىٰ رقي فكري وهذا الرقي لا دليل عليه إلا بادراك القوة الكامنة من وراء هذا الكون، ولا يكتمل الإدراك بالقوة الكامنة من وراء هذا الكون إلا بالإيمان بالروح وبالله وبالغيب،

الرومان هم في الأصل قبائل من الهمج البرابرة الرحالة التي لم تكن تملك أي مظهر من مظاهر الحضارة وقت نشأتها أو ترحالها، إلا أن تلك الأقوام ولمجرد ترحالها من بقعة جغرافية إلىٰ أخرىٰ بحثا عن بقعة جغرافية أخرىٰ تساعدهم علىٰ تحسين أسلوب حياتهم،

(٥٣)ومعناها بالآرامية السامية (قرط الجنه) كما سميت تونس بافريقيا وهي تحريف لما أطلق عليها بالآرامية الفينيقيا، ومدينتي قرطاجة وكورنث قد تم تدميرهما تدميرا شاملا وحرقهما، علىٰ نسق لم يعرف في التاريخ من قبل ويتشابه التدمير بما حدث في هيروشيما ونجازاكي في القرن العشرين بعد الميلاد.

قد ملكوا بالاكتساب مظهرا من مظاهر الحضارة وهو العنصر البشري، وقد كانت إقامتهم بشبه الجزيرة الإيطالية الفريدة باختراقها الحادوالفاعل للبحر المتوسط المحاط بالحضارات والمتحضرين وكذلك مجاورتهم للدولة الإغريقية التي قامت علىٰ أنقاضها دولتهم قد أعطتهم مظهرين آخرين من مظاهر الحضارة وهما الموقع والمناخ ولكونها شبه جزيرة ومحاطة بالبحارمن الشرق والغرب والجنوب وجبال الألب في الشمال من ناحية الموقع أما المناخ الأكثر مواءمة هي العوامل التي مكنتها من الدفاع عن نفسها وهىٰ العوامل (وإن كانت لاتكفي)التي مكنت هذه القبائل من الاستقراروالتمدين والنهوض ولا نقل التحضر بأي حال من الأحوال، ذلك لأنه مهما بلغت تلك الدولة من مظاهر القوة العسكرية لا يمكننا نعتها بالتحضروإلا لأمكننا أن نتحدث عن حضارة الهكسوس أو المغول أوالفايكنج فالنهوض يتحقق بالمعارف التراكمية مما أنتجته الشعوب المقهورة وبناء القصورأو اختراع واستخدام الآلات وغيرها من المعارف لا يمكن تسميتها حضارة أو تحضرفالحضارة، سمو فكري إما ممنوح من الله ومكتسب بالإيمان به وهو الشرط الوحيد أو المظهر الحاكم من مظاهر الحضارة الذي يعطيها هذا النعت، وما بين القرنين السادس والرابع قبل الميلادي تنافس الفرس والإغريق في السيطرة علىٰ القسم الشرقي من البحر المتوسط إلىٰ أن انتصر الإسكندر المقدوني علىٰ الفرس انتصارا حاسما وكون إمبراطورية امتدت من بلاد الإغريق ومصرغربا حتىٰ الهند وفارس شرقا وقد انقسمت تلك الإمبراطورية بعد وفاته سنة ٣٢٣ ق م بين قواده وكانت مصر من نصيب بطليموس وسوريا والعراق من نصيب سيلوقس، وعلىٰ أنقاض إمبراطورية الإغريق قامت روما، وكان أعظم قواد هذه الدولة هو القائد بومبي (٦٣ ق م) والذي في عهده استفادت روما من الصراع القائم في بلاد الإغريق، ومن النزاعات المسلحة بين البطالمة والسلوقيين، واستولت علىٰ كل هذه البلاد ولكن روما التي تاقت إلىٰ تحويل البحر المتوسط إلي بحيرة رومانية، وكان لابد من أن تخضع بلاد الغال وقام بذلك قائدا مغمورا وهو يوليوس قيصر والذي كان في الأصل ثائرا علىٰ فساد مجلس الشيوخ، فقرر العودة إلىٰ روما للإنقلاب علىٰ نظام الحكم، وانتصر علىٰ بومبي عام ٤٤ ق م وأنهىٰ الحرب الأهلية التي بدأها وأرسىٰ النظام الإمبراطوري الوراثي، إلا أنه أغتيل علىٰ يد مجلس الشيوخ ومع نهاية سنة ٣٢ ق م أصبحت روما سيدة العالم القديم وأصبح البحر المتوسط بحرا رومانيا بعد هزيمة كليوباترا وضم مصر للإمبراطورية، في عهد أوكتافيوس الذي منح لقب أغسطس سنة ٢٧

ق م وتعني المهيب وتوغل الرومان بعدها في أوروبا حتىٰ وصلوا إلىٰ جنوب بريطانيا، وكان حكم أوكتافيوس تماما كحكم هذه الإمبراطورية منذ نشأتها، أي بحكم السلاح في إيطاليا، إلا أن الأمور قد تغيرت بعد أن استتب له الأمر، إذ قام أوكتافيوس (أغسطس) بإصلاحات في كافة مناحي الحياة بالإمبراطورية وبدأ عصر الحكم عن طريق سلطات السناتو (مجلس الشعب) وكان أشهر أباطرة الرومان من بعده:

* تراجان (٩٨-١١٧ م) الذي قام بإصلاحات كبيرة وانتصر علىٰ برابرة الشمال
* هادريان (١١٧-١٣٨ م)والذي سار علىٰ نهج سلفه.
* قسطنطين (٣٢٤-٣٧٥ م)الذي اعتنق المسيحية ونقل مقر حكمه إلىٰ بيزنطة

آما عن المستعمرات الرومانية فقد استمر الرومان بحكمها بقوة السلاح، وكان الرومان شعبا عسكريا، سيطر علىٰ الشعوب الأخرىٰ وفرض عليهم رؤية رومانية بتفوق العنصر الروماني علىٰ باقي الشعوب المغلوبة[٥٤]، التي كانت تمثل آنذاك أعرق شعوب الأرض ذات الحضارات النهرية ومن أعمقها تاريخا، وهي شعوب مصر وسورية واعتمدت علىٰ بلاد الإغريق التي تأثرت بالحضارات النهرية وفينيقيا، إَلا أن الدولة الرومانية، وبحكم سيطرتها علىٰ شعوب أوروبا الهمجية قد قامت بنقل نور الحضارة من شرق الإمبراطورية المتحضر، إلىٰ غربها الهمجي، ومن ثم فتعتبر الدولة الرومانية أبعد الدول القديمة أثرا في نقل أوروبا إلىٰ أعتاب الحضارة بعد الإغريق، ونظرا للرؤية الرومانية التي ادعت بتفوق العنصرالروماني فقد قام نظام المجتمع الروماني علىٰ أساس استخدام الرقيق والعبيد من المستعمرات للقيام بأعمال البناء وفي المصانع والمزارع الرومانية وشهدت روما نهضة عمرانية عظيمة علىٰ أيدي هؤلاء العبيد ومن أموالهم المنهوبة، وأرواحهم المستهان بها، وكان للادعاء بتفوق السلالة الرومانية دلالات أدت إل اعتبار كل من ليس رومانيا عبدا للرومان في إطار الإمبراطورية مما أدي في نهاية الأمر إلىٰ نشوب الثورات وانهيار الإمبراطورية واستطاعت روما أن تسيطر علىٰ الشعوب المغلوبة قرونا عديدة، بفضل تشريعاتها الظالمة الحاسمة الحاكمة وقوادها وجنودها بالغي القسوة

(٥٤)نفس الرؤية التي رآها ورثة الدولة الرومانية من الأوربيين والأمريكيين وحتىٰ اليوم. نفس ما قامت به أوروبا منذ القرن السادس عشر وحتىٰ التاسع عشر لبناء الأمريكتين. نفس ما تقوم به اليوم مباريات المصارعة الحرة والملاكمة المشهورة به الولايات المتحدة.

والوحشية الذين لعبوا دور الآلهه، وتميزت تلك النهضة الرومانية بمظاهر عديدة قائمة علىٰ طبيعتهم الهمجية اللاحضارية في العلامات التالية:

فعوضا عن المسرحيات والمباريات الإغريقية التي كان يقصد بها التعليم والترفيه عن الشعب الإغريقي، عملوا علىٰ الترفيه عن الشعب الروماني بحفلات صاخبة في مدرجاتهم الرومانية الشهيرة قائمة علىٰ القتل والتقاتل وسفك الدماء كي يستمتع الروماني نصف الإله بمباريات بين العبيد، باجبارهم علىٰ التقاتل حتىٰ الموت فلا استمتاع لديهم إلا بالدم المراق أمام أعينهم لتنمية طبيعتهم العسكرية القائمة علىٰ الوحشية، وكانت لتلك الحفلات ضحاياها من العبيد معتبرين أنه فنهم الذي يجيدونه إخراجا وتمويلا أما الضحايا فهم مخلوقات لا قيمة لها عندهم فلا يسمونهم إلا بالعبيد، الذين لا يمثلون قيمة إلا بمقدار ما ينزفونه من دماء، كذلك وعوضا عن المباريات الأوليمبية والماراثون الإغريقي، كان لديهم المصارعة الرومانية بالإضافة إلىٰ تحويل فن النحت ألاغريقي المأخوذ عن مصر واليونان والذي مثل الجمال كانت تماثيلهم تمثل البطش والقوة

أما في المجال الفكري فعوضا عن الفلسفة الإغريقية والآلهة الإغريقية التي كانت تمثل الجمال كأفروديت، كان لهم إله الحرب جوبيتر، وعوضا عن الشعر الإغريقي كان هناك فن الخطابة العسكرية.

كان المواطن الروماني البعيد عن الحضارة يقوم بعملية إسقاط فينظر للشعوب المغلوبة نظرة دونية كحيوانات أو برابرة، عاجزة عن الاعتماد علىٰ الَذات وكل من هو غير الروماني فهو عبد في نظر المشرع الروماني، محروم من أي حق إنساني ولد كي يستخدم كدابة تباع وتشترىٰ في الأسواق، وكانت الشعوب المغلوبة الأكثر تحضرا ورقيا، ترىٰ الرومان كبلاء ابتليت به الإنسانية.

أما عن التشريعات والقوانين الرومانية فكان لها الطابع الهمجي إذ كان عقاب القرية المتمردة هو الحرق وقتل عُشر السكان، وكان الصلب هو أرحم أنواع العقاب لديهم، ينفذ علىٰ كل البشر ويحرّم علىٰ الروماني مهما كانت جريمته، أما عن الخيارات الأخرىٰ، فكانت الحرق للأحياء المُذنبين، أو التقاتل مع مذنبين آخرين حتىٰ الموت، ويتفننون أحيانا بأن يجعلوا المذنب يتقاتل مع حيوانات مفترسة في مدرجاتهم وسط استحسان الجمهور الروماني المتوحش، وشغفه في حين كان المواطن الروماني يتمتع بالحقوق كلها والتمييز

كله ويمنع مساءلته عن أي من أفعاله إذ كانت للسادة الرومان المتغطرسين حياة مختلفة عن باقي سكان الإمبراطورية البؤساء، ولم تتعدل هذه القوانين إلا في عهد جستنيان إمبراطور الدولة الإمبراطورية الشرقية سنة ٥٣١ ميلادية، التي كانت قد انقسمت سنة ٣٩٥ ميلادية إلىٰ قسمين كبيرين:

- الدولة الرومانية الغربية وعاصمتها روما.
- الدولة الرومانية الشرقية (بيزنطة) وعاصمتها القسطنطينية.

٣-اتساع أملاك الدوله الرومانية في الشرق

كانت مصر والشام وآسيا الصغرىٰ واليونان ضمن أملاك الدولة الرومانية الشرقية وتم استحداث قانونا بالعفو عن بعض العبيد بتحريرهم، وكانت الدولة الرومانية الشرقية تعج بالعبيد من اليهود والمصريين والسوريين وبفضل هؤلاء انتشرت بعض الديانات والمعتقدات الشرقية والمصرية كديانة إيزيس وبعل والمثراسية واليهودية وغيرها ومن ثم المسيحية بعد انتشارها بين أوساط المستعبدين في الدولة البيزنطية وبالأخص في مدينة القسطنطينية، وعلىٰ الرغم من كل مساوئ الدولة الرومانية إلا أنها كانت تتسامح مع اختلافات الأديان وكانت الحرية الدينية مكفولة في الدولة الرومانية مادام أصحاب هذه الديانة ملتزمون بدفع الضرائب وكافة القوانين الرومانية ونشبت في أرجاء الدولة الرومانية العديد من الثورات التي أخمدها الجيش الروماني بالوحشية المعتادة، كان أشهرها ثورة حنا بعل (هانيبال) البطل الفينيقىٰ [٥٥] سنة ٢١٦، وسبارتكوس والوندال والجرمان والغال وغيرهم وبعض ثورات اليهود التى سنذكرها في موضعها.

٤ - طوائف اليهود في فلسطين وخارجها:

لما عاد اليهود من السبي البابلي نجح الكهنة في جمعهم علىٰ الديانة اليهودية التي أقاموها استنادا إلىٰ تفسيرهم الخاص للتوراة فقط وهي الكتب الخمسة (تكوين، خروج،

---

(٥٥)الفينيقيون هم من العرب الساميون الذين هاجروا من الجزيرة العربية واستوطنوا الساحل اللبناني والسوري ولقدراتهم التجارية الفائقة أقاموا لأنفسهم مستعمرات تجارية في حوض البحر المتوسط ونريتأثر أسماءهم باللغة السامية

ارجع إلىٰ صفحة ١٣٠ لتفاصيل الثورة اليهودية الأولىٰ ضد الحكم الإغريقي (ماتياس الهماسوني ضد سلوقس الرابع).

لاويين، عدد وتثنية) مستبعدين كتب الأنبياء (إشعيا، نحميا وزكريا) مختلفين مع الأنبياء وتلاميذهم من أن هناك تعاليم غير مكتوبة توارثوها شفاهة جيلا بعد جيل من نبي الله موسىٰ عليه السلام وأنهم قد تلقوا الوحي بها ورفض الكهنة قبول هذه الأقوال وبالتالي ظهرت عدة طوائف بين اليهود من بينها طائفة العيسويين وكانت هذه الطائفة موجودة في فلسطين ومصر قرب الإسكندرية وكانت لهم معتقدات سرية ويفسرون التوراة تفسيرات مجازية حتىٰ لا يفهمهم إلا المطلعين علىٰ أسرارهم ويقسمون علىٰ عدم البوح بها ومن أهمها أسماء الملائكة أما الكهنة فكونوا طائفة الصدوقين (وهم جامعوا الصدقات والقرابين للمعبد) وهم أيضا المتحكمين في العبادة وبالتالي الشعب اليهودي كله، وأدىٰ الصراع بين العيسويين والصدوقيين إلىٰ ظهور طائفة بينهما تدعىٰ طائفة الفريسيين (أي المفروزين المنتقين) وهم المعتقدين بالقدرية وحلول الروح وبالتالي ظهرالأحبار (الفقهاء) وكان من أطرف الطوائف التي ظهرت كانت طائفة أصحاب الجباه الدامية وهي طائفة تكونت علىٰ اعتقاد أن سبب هوان اليهود هو عدم التزامهم بتعليمات الله وكانت تلك الطائفة تتزمت في الأوامروالنواهي إلىٰ الحد الذي جعلهم يحرمون السير في الأسواق والطرقات إلا وهم يغمضون أعينهم ليغضوا النظر عن أي امرأة لا تجوز لهم، فيصطدمون بالأشجارأوالحوائط فتدمىٰ جباههم ويكون هذا دليل دامغ علىٰ التزامهم وإيمانهم وعلىٰ الرغم من عدم أهمية هذه الطائفة في سياق الأحداث التاريخية إلا أنها توضح مدىٰ الحيرة والتخبط ومظهرية الإيمان التي عانىٰ منها مؤمنو هذا العصرونحن الآن نرىٰ تشابها بينهم وبين معاصرين من كل الأديان ينحون مثل هذا النحو ظنا منهم أن هذا هو طريق الخلاص (سوف نذكر كما سيلي تقسيما شاملا لهذه الطوائف).

عصر المسيح

كان الإيمان بظهور المسيح علىٰ أشده لعدة قرون بعد زوال ملك مملكة داوود وسليمان وهدم الهيكل الأول ومحن السبي الآشوري والبابلي فتعاظمت الأحلام بنبي مؤيد من الله بمعجزات فيكون ملكه كملك قمبيز أو تحتمس الثالث فيصل من النيل للفرات، ولم لا أليسوا شعب الله المختار وجاءت نبوءة أشعيا، والنبوءات دأبت علىٰ تكرار الوعود بقرب ظهور المسيح وتراوحت صفاته الموعودة ما بين وصف قوة المسيح المنتظر وصولته وصولجانة، ما بين الوداعة والتضحية والصبر علىٰ المكاره في سبيل التحذير

والتبشير، وقد جاء في الإصحاح الثالث والخمسين من صفات المسيح المنتظر (محتقر ومخذول

من الناس ورجل أوجاع وأحزان) وقد اتفقت الأقوال علىٰ أنه يأتىٰ مسبوقا برائد يعلن مجيئه، ونحن نعلم أن نبي الله يحيىٰ قد سبق وجوده، وأثره كنبي قبل وجود المسيح عليه الصلاة والسلام قد مهد للمسيح بالفعل، وقبله مهد إيليا عليه السلام لظهور المسيح، ولم تكن معجزة ولادة نبي الله يحيىٰ إلا لهذا الغرض إلا أن نبوءة أشعيا بظهور المخلص ووصفه مرة بالوداعة ومرة بالصولجان إنما يدل علىٰ أن المسيح نفسه عليه السلام كان يمهد لرسول الله محمد عليه الصلاة والسلام، صاحب الصولة والصولجان.

٥- نبي اللّه يحيى بن زكريا عليه السلام:

وعلىٰ عادة الشعوب المقهورة في استعجال الفرج فقد قوي الرجاء في الرسول ذو الصولة والصولجان أي المسيح الملك وليس الوديع وكان هذا الاعتقاد اعتقادا شعبيا في الأساس يؤيده ظهور إيليا (إيلياس) واعتبروة رجل الأوجاع والأحزان خاصة بعد مقتله علىٰ يد اليهود- قتلة الأنبياء- كما وصفهم المسيح فيما بعد والملاحظ في تاريخ بني إسرائيل أنه كلما ضعفت الدول المسيطرة عليهم هان خطب الثورة أمامهم وتعاظم الأمل في الإستقلال، وأحيا (سبارتاكوس) الأمل في هذه الثورة فقبل بضع سنوات من احتلال بومباىٰ لسوريا وفلسطين عام ٦٣ ق م وضمها للإمبراطورية الرومانية قامت تلك الثورة واستمرت زهاء ثلاث سنوات (من عام ٧٣- ٧١ ق م) إلا أن بومبي استطاع هزيمة هذا الثائر في نهاية المطاف، وعلىٰ الرغم من أن انتصار بومبي الذي أضاف مجدا لأمجاده إلا أن ذلك المجد الشخصي لاينطوي إلا علىٰ كارثة خفية للدولة الرومانية، فلو لم يكن هناك خللا في بنية هذه الدولة، لما استطاع عبد أعزل من أن يجمع حوله قرابة سبعين الف عبد، ويقهر به جيوش روما، هذا الخلل في بنية الدولة الرومانية، كان بسبب الوحشية والإستبداد والتعالي الروماني علىٰ الشعوب المغلوبة، والإعتماد علىٰ القوة المطلقة في نهب ثرواتها، ناهيكم عن ادعاء التحضر أمام شعوب أعرق منها وأكثر رقيا من النواحي الإنسانية والفكرية والعقائدية علىٰ الرغم من أن روما سخرت الشعوب لخدمتها ونقل خبراتها الحضارية حتىٰ أن روما كان بها أول شبكة صرف صحي بالعالم مما أدىٰ إنشاؤها لفناء عشرات الآلاف من العمال المصريين واليهود لبنائه، وفي محتوىٰ الثورة هذا، كانت تصب

أحلام اليهود وكان الأمل في نبي جديد، ذلك لأن الأنبياء يقدمون علىٰ مصاعب لا يقدر العامة علىٰ الاتيان بها، وكانوا يمتثلون نبي الله موسىٰ عليه السلام والذىٰ هزم الفرعون صاحب أعتىٰ وأقوىٰ دولة في العالم في زمانه وقد تم هذا لنبي الله موسىٰ، بمعجزة إلهية خارقة وهي عصاه فكانوا باختصار ينتظرون نبيا مؤيدا بتلك القدرات الخارقة يواجهون بها روما جبروتها، ولم يكن ظهور الأنبياء بين بني إسرائيل في هذا العصر أمراً نادرا فقد وجد منهم في العصر الواحد أربعمائة نبي ـ كما قد جاء في سفر الملوك ـ وكان قيامهم لتفسير الكتب والحض علىٰ اتباع سنن إبراهيم وموسىٰ ويعقوب عليهم السلام، وقد كان هذا الكم الهائل من الأنبياء، من البشر المنتقين، يوكل الله اليهم بتلك المهام، ولكونهم من البشر فقد كانت لهم العديد من الصفات الإنسانية – منهم أولو العزم ومنهم غير ذلك – فمنهم من كان يحيد عن دعوته [٥٦]، ومنهم من كان يلتزم بها، كان شأن أنبياء بني إسرائيل كشأن علماء المسلمين تماما، كما قال رسول الله محمد صلىٰ الله عليه وسلم "علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل"، في هذا العصر كان نبي الله زكريا عليه السلام أحد هؤلاء الأنبياء، وكان قد لاحظ عند إبنة أخت زوجته الياصابات الفتاة مريم بنت عمران وحنة، لاحظ لديها– وهي قائمة في المحراب – فاكهة في غير أوانها فسألها (يا مريم أنىٰ لك هذا) فقالت (هو من عند الله إن الله يرزق ما يشاء بغير حساب) [سورة آل عمران الآية ٣٧]، فاستيقظ عنده الإيمان بثقة البديهة، فطالما زودها الله بقدرته بفاكهة في غير أوانها كدلالة علىٰ الإعجاز فمن الممكن أن يطلب ما يشاء ولو كان مستحيلاً، وأحيا ذلك موات الأمل في نفسه، إذ لم يكن قد أنجب طوال عمره من قبل وكان شيخا، وامرأته عاقر تماما كما كان إبراهيم عليه السلام في الثمانين من عمره قبل أن يهبه الله بإسحق من سارة العاقر أيضا، (هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء، فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب إن الله يبشرك بيحيىٰ مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين، قال رب أنىٰ يكون لي غلام وقد بلغني الكبرو امرأتي عاقر ، قال كذلك الله يفعل ما يشاء) [سورة آل عمران الآية ٤٠]

ويلاحظ أن نبي الله إبراهيم قد رزق بنفس الكيفية الإلهية في الإعجاز، والملاحظ أيضا أن سارة لما عجبت– كما عجب زكريا– قائلة (يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي

---

(٥٦) يقول اله تعالىٰ في سورة الأعراف (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاويين)١٧٥.

شيخا إن هذا لشيئ عجيب) [سورة هود الآية ٧٢ &٧٣] (قالوا أتعجبين من أمر الله) كانت تلك المعجزة ماثلة أمام رهبان المعبد من الصدوقين المعاصرين لزكريا عليه السلام ولئن كانت تلك المعجزة في أمر أن ينجب نبي الله زكريا وليده يحيىٰ عليهما السلام هي مجرد تكرار لمعجزة الله في أمر أن ينجب إبراهيم وليده إسحق عليهما السلام قبل ذلك بقرون، إلا أن مجرد التكرار له عند الله مآرب لابد لها أن تستبين مع توالي ومرور الأيام والسنون، فالله عز وجل عليم بنفوس العباد وما فيها من اختلال، فربما لوكانت زوجة زكريا صبية لاتهمت كما اتهمت مريم ذلك لأن الآت من معجزات في هذا المضمار أصعب وأعقد إذ لم تكن معجزة إنجاب يحيىٰ ودوره في التمهيد لعيسىٰ المسيح هي في حد ذاتها المقصودة فحسب بل كانت قد جعلت للتمهيد لأن تنجب مريم العذراء البتول دون زواج، فالعقول القاصرة عن المقارنة لتعجز عن ربط الأشياء، ناهيكم عن ربط الخوارق والمعجزات، فالمعتاد لدىٰ البشر أن يأتي الإنجاب من تزاوج الذكر والأنثىٰ في عالم البشر وهناك من المعجزات الإلهية ما ليست للبشر أن يروها تحدث أمامهم فتعد حينها فتنة للناس وتلك هي المعجزات الفارقة[٥٧]والتي تشكل الضمير الإيماني عند البشر فكل الأنبياء لابد وأن يبتلي الله المؤمنين بهم بمثل تلك المعجزات والتي تؤدي إلىٰ فتنتهم كجواز مرور من الحالة المادية التي تعني بالإدراك الحسي إلي الإدراك الغيبي الروحي، يقول الله في القرآن (أفحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون)

وعليه فكل الأنبياء لهم معجزة فارقة ليس للبشر أن يروها فإبراهيم خليل الله عليه السلام، لم يصدق أحد أنه خليل الله وكانت فتنة للناس[٥٨] وحسبه قومه مجنونا، ولم يؤمنوا به حتىٰ عصمه الله من النارأمام أعينهم فكانت بردا وسلاما عليه فآمن البعض كذلك موسىٰ الكليم عليه السلام، إذ أصر بنو إسرائيل أن يروا الله الذي يحادث موسىٰ أمامهم، حتىٰ يطمئنوا ويصدقوا ولما خروا صعقا آمن البعض أيضا، ومعجزة ولادة عيسىٰ عليه السلام وعلىٰ الرغم من علم اليهود بأن آدم عليه السلام لم يكن له أب أو أم، وأن حواء كان لها أب ولم تكن لها أم، قد خرقا ناموس الطبيعة بإرادة الله، إلا أن اليهود ربما قد اكتفوا من الله

(٥٧)كمعجزة الإسراء والمعراج والتي هي فتنة للناس بنص القرآن.

(٥٨)المعجزات الفارقة التي لايراها الناس هي فتنة للناس بنص القرآن في الحديث عن الإسراء والمسموح للناس هو رؤية نتائج هذه المعجزات أوتلقي الأوامر المنقولة لهم عبر من مر بالمعجزة، فيرىٰ زكريا الفاكهة فيبلغنا بها، ويسمع الناس عما قاله الله لإبراهيم أولموسىٰ دون أن يكون لهم الحق ذاته مع الله أورسول الله محمد عليهم السلام في إسرائه ومولد المسيح بدون أب بل بكلمة من الله.

بهذا، ولم يعلموا بأنه هين علىٰ الله، الذي خلق الكون كله ولم يك شيئا، ولقد آمنوا وعلموا بشأن إسحق ويحيىٰ، وهما تمهيدان للمسيح، فوجود الأب والأم والعاجزان معا علىٰ الإنجاب لا يعني إلا أن إنجابهما مع هذا العجزهو تأكيد لخوارق آتية، إلا أنهم استكثروا علىٰ الله أن يفعل ما يشاء، وأن يستكمل الله للمؤمنين إعجازه بأن يخلق بشر بأم دون أب، كما خلق الله حواء بأب ودون أم، فإن كانت الملائكة قد قالت لزكريا في معرض الرد علىٰ تعجبه (كذلك قال ربك هو علي هين، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا)، فقد كان المسيح عليه السلام، هوكلمة الله القاهاعلىٰ مريم ويقول الله عز وجل في سورة النساء من الآية ١٧١ (إنما المسيح عيسىٰ بن مريم رسول الله وكلمته القاها إلىٰ مريم وروح منه)وقد جاء في الإصحاح السابع من سفر أشعيا (يعطيكم الله آية، ها العذراء تحمل وتلد إبنا وتدعو اسمه عمانويل) والمعروف أن الأسماء التي يعطيها الله لا يمكن أن تؤخذ بحرفيتها وكانت تلك المعجزة هي من الخوارق الإلهية للأنبياء التي لا ينبغي للمؤمنين رؤيتها، وليس عليهم إلا الإيمان بها وهي أمور تمثل فتنة للناس كل الناس مؤمنين كانوا أو غير مؤمنين في كل العصور، فالإيمان بالغيب هوالشرط للتقوىٰ كماجاء في أول سورة البقرة من القرآن، فقد جاءت الملائكة أيضا بعد بضع سنين لمريم وهي تصلي بالمحراب قائلة (يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسىٰ بن مريم، وجيها في الدنيا ولآخرة ومن المقربين ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن المقربين) فقالت (رب أنىٰ يكون لي غلام ولم يمسسني بشر) قالت الملائكة (كذلك الله يخلق ما يشاء، إذا قضىٰ أمرا فإنما يقول له كن فيكون)، وتمر شهور وقد بلغت مريم الثانية عشر من عمرها وإذ بالملاك يعود إليها ويقول لها، (إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا) فتعجب وتعبر عن عجبها فتعبرعن عجبها كما عجبت سارة من قبل وعجب زكريا (أنىٰ يكون لي غلام ولم يمسسني بشرولم أك بغيا) فترد الملائكة بإيضاح أكبر (كذلك قال ربك هوعلي هين)[٥٩] وهو نفس القول لزكريا، ثم يضيف الملك (و لنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا) ونفخ الله فيها من روحه فحملت به، ويكبر يحيىٰ بن زكريا والياصابات، ويولد عيسىٰ بن مريم ويكرس يحيىٰ نفسه للعبادة منذ طفولته وإن طلب منه أقرانه باللعب معهم رد عليهم (ما لهذا خلقت)، وكأنه

(٥٩) يقول الله في سورة التحريم الآية الأخيرة (ومريم إبنة عمران التىٰ أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) ارجع للجزء الثاني فنجد رسول الله محمد صلىٰ الله عليه وسلم يذكر نفس الكلمات كما هي تقريبا ص ٥٩.

يعلم دوره الموكول إليه في الحياة كمبشربالمسيح فقد كان حصورا وفي هذه الأثناء يمرض (هيرودس الكبير)، حاكم فلسطين (اليهودي بالأسم فقط) وذاع في فلسطين خبر مرضه العضال فعم الفرح أرجاء فلسطين، وتعجل موته المعلمان اليهوديان (يوداس ومتياس)فيأمرا تلاميذهما بإنزال النسر الروماني الذي أمر بتثبيته هيرودس علىٰ باب المعبد (الهيكل الكبير) تزلفا لأسياده الرومان، فما كان من هيرودس الكبير إلا أن أمر بإعدام المعلمين اليهوديين وأربعين من تلاميذهما وكان من قبل قد امر في تنفيد تعليمات الإمبراطور الروماني (أغسطس)بإجراء التعداد العام لعموم فلسطين تمهيدا لتحصيل الضرائب فقامت الثورة في الجليل، إلا انه مات في العام الرابع قبل الميلاد وقام أغسطس بتوزيع مملكته علىٰ أبنائه الثلاثة كي يضمن تنافسهم علىٰ إرضائه كما يلي:

- (آرخليوس) وهو ابنه الكبير وزوج هيروديا، فكان من نصيبه يهوذا وأدوم والسامرة، إلا أنه سرعان ما تم إقصاؤة عن ولايته لتخضع مباشرة للحاكم الروماني عام ٦ ميلادية ووضع حامية رومانية في قلعة القدس للإشراف علىٰ التعداد الذي أمر به أغسطس من قبل وذلك عقب ثورة اليهود الثانية والتي سيتم ذكرها.
- وأخذ (آنتيباس) الجليل، موطن ميلاد المسيح ويحيىٰ المغتسل عليهما السلام ، وكان أنتيباس هو ابن هيرودس الأكبر وعرف باسم هيرودس الصغير.
- وكان من نصيب (فيليبس) شمال المملكة.

٦-ثورة اليهود الثانية:

حينما تولىٰ أرخليوس (عام ٤ ميلادية) في يهوذا وأدوم والسامرة أراد ألا يبدأ حكمه بإغضاب الشعب اليهودي الذي كان واحدا منهم ولوظاهريا وحاول تهدئة الأمور فلم ينفذ وصية أبيه هيرودس في الإعدام لأشراف القوم، رأىٰ اليهود في ذلك الإحجام ضعفا منه، فتشجعوا وقاموا بثورتهم الثانية، فطالبوا آرخليوس بإعدام مستشارىٰ والده هيرودس الكبير ولما رفض، ثارت اليهودية وثار الأردن واحتل الثوار أورشليم، وحوصر الفيلق الروماني، وتم تدمير قصر هيرودس وأشعلوا فيه النيران وكانت الثورة أيضا لرفض فكرة التعداد لدفع الضرائب حيث أن فيها خضوع للكفار، غضب أغسطس من هذه الأنباء وأمر حاكم سوريا العربي

الحارث (أريتاس)بتأديب اليهود بجنوده العرب ومساعدة الجنود الجرمان، فسيطر أغسطس مرة أخرىٰ علىٰ اليهودية وجعل عليها حاكما رومانيا هو (كيرينيوس) الذي أكمل الإحصاء في يهوذا وأدوم والسامرة، وأتم التعداد الذي أمر به أغسطس، أما أرخيليوس شقيق آنتيباس (هيرود الصغير) فقد أبقاه أغسطس في روما، لكن أخاه آنتيباس الذي كان متيما بزوجته (هيروديا) ذهب بعد أشهر لروما بحجة زيارة الإمبراطور وأغوىٰ هيروديا الطموحة إلىٰ عودة تاج المُلك علىٰ رأسها، فسرعان ما فرت معه إلىٰ فلسطين وتزوجت آنتيباس وهي لا تزال زوجة لأخيه آرخيليوس مما أثار حفيظة اليهود في مملكته الجليل.

٧- ثورة يحيى الروحية:

كان الكهنة اليهود في هذه الأثناء، في موقف لا يحسدون عليه فقد أصبحوا عاجزين عن إشباع الطموح الروحي والقومي لليهود، وكان الشعب علىٰ استعداد لأن يتبع أي زعيم يدعوا إلىٰ الثورة وبعد عقود قليلة من هذا الزمن المضطرب ظهر نبي الله يحيىٰ (يوحنا المعمدان) مبشراً بالمسيح، فحبسه آنتيباس (هيرودس الصغير) وكان المسيح عليه السلام قد بدأ يبشر بعد بضعة سنين، بعد حبس يحيىٰ عليه السلام كما سنرىٰ.

كان نبي الله يحيىٰ بن زكريا متقشفا، كثير العزلة، شديدا علىٰ نفسه في تهجده ونسكه منذورا للتبتل والعبادة (وذلك معنىٰ وصفه في القرآن بالحصور)، يصوم أكثر الأيام ويقتات علىٰ الجراد والعسل البري ويرتدي الثوب الخشن والوبر، وكان من بين طائفة العيسويين المؤمنين بأن الوقت قد حان لنهاية العالم ومجيئ آخر الأيام، وفي سورة مريم: (يا يحيىٰ خذ الكتاب بقوة، وآتيناه الحكم صبيا، وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا) كان يحيىٰ كما جاء في كتاب أشعيا (صوت صارخ في البرية، أعدوا طريق الرب)، ينذر ويبشر بنهاية الأيام ومجيء المخلص ويعمد الناس من مياه نهر الأردن قائلا (توبوا إلىٰ الله لأنه قد اقترب ملكوت السماوات)، وآمن به الكثيرون حتىٰ أن المسيح عيسىٰ بن مريم نفسه عليه السلام، قبل أن يبدأ رسالته قد تم تعميده بمياه نهر الأردن عن طريق نبىٰ الله يحيىٰ، فجعل للتطهير رمزا من الإغتسال بالماء وحمل حملة شعواء علىٰ الفساد في بلاط هيرودس الذي استباح الفجوربالمحارم، وقتل الأخوة والأبناء وتدنيس العبادة بالبذخ والجسارة علىٰ المنكرات

التخلص من نبي الله يحيى بن زكريا عليهما السلام

كانت جسارة النبي يحيىٰ كفؤا لجسارة الطاغية، ووصلت شهرته كنبي يبشر بالمخلص كل آفاق فلسطين وخارجها، مما اضطر الملك (أنتيباس- هيرودس الصغير) إبن هيرودس الكبير يفكر في احتمال أن تتطور شعبية يحيىٰ وتستحيل إلىٰ ثورة شعبية جديدة فاشار عليه أعضاء السنهدرين بإلقاء القبض عليه، في نفس الوقت الذي كان فيه روح الله عيسىٰ بن مريم قد بدأ رسالته، ولكي يتم التخلص من يحيىٰ عليه السلام، فقد عمدوا إلىٰ وضعه في موقف يستدعي ذلك(٦٠) فسألوه عن رأيه في شأن زواج هيرودس الصغير من هيروديا إمرأة أخيه وزوجها أرخيليوس علىٰ قيد الحياة، فأعلن حرمة ذلك فألقىٰ هيرودس القبض عليه في بلدة اسمها ماخيروس شرق البحر الميت خوفا من أن يؤدي الإيمان به إلىٰ ثورة سياسية، وبترتيب من هيروديا، رقصت إبنتها سالومي لهيرودس - وكانت فائقة الجمال - رقصة علىٰ أن يجيب لها أي طلب مهما كان، ولما كان هيرودس الصغير لاهيا في حياة البذخ والخلاعة فقد تم ذلك بالفعل، وطلبت سالومي ـ بإيعاز من أمها هيروديا- رأس يحيىٰ (يوحنا المعمدان) انتقاما من موقفه الصلب تجاه ما اقترفته مع هيرودس الصغير من مخالفة للشريعة، وأصر أعضاء السنهدرين الحاضرين لهذه الرقصة الخليعة وكانوا علىٰ درجة من الفساد وقد تنكروا ليحيىٰ لأنهم كما يفعل رجال الدين المحترفين إلىٰ يومنا هذا، لا يرحبون بالوعاظ الذين لا ينتسبون إليهم ولا يعيشون في زمرتهم فهو يفضحهم وكان يحيىٰ شديدا عليهم، إذ يقول لهم (يا أولاد الأفاعي لا يهجسن بإخلادكم أنكم أبناء إبراهيم إن الله قادر أن يخرج من هذه الحجارة أبناء إبراهيم) إلىٰ جانب خشيتهم من أي ثورة روحية تقوض مكاسبهم، أصروا علىٰ أن يفي هيرودس بما قطع علىٰ نفسه ويقطع رأس نبي الله يحيىٰ (يوحنا المعمدان)، وتم لهم ذلك بالفعل(٦١) وبعد هذا الحدث الجليل سنة ٢٩ ميلادية ساد الإعتقادات الراسخة بقرب ظهور المسيح وخرج يحيىٰ من الميدان شهيدا، تاركا جثة ميت وكأنه بقيد الحياة، وكانت الفترة التىٰ قضاها يحيىٰ فترة عاجلة للتمهيد، حتىٰ تبدأ معركة المسيح عليه السلام الصعبة والتي لا تنحسم بين عشية وضحاها. (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) [سورة مريم -الآية ١٥]

(٦٠)وهونفس الذي اتبعه رجال الدين اليهود مع المسيح عليه السلام إلا أن الله حفظه وعصمه..

(٦١)وهونفس الذي اتبعه رجال الدين اليهود مع المسيح عليه السلام إلا أن الله حفظه وعصمه..

٨- روح الله وكلمته عيسى بن مريم عليه السلام:

عصر المعجزات: كان ميلاد يحيىٰ بن زكريا عليهما السلام من شيخ فان وامرأة عاقر آية من آيات الله (فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ * قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ* قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ) [آل عمران ٣٩- ٤١]

وقبل ميلاد نبي الله يحيىٰ عليه السلام بقليل، وفي زمن هيرودس الكبير كانت قد ظهرت بوادر حمل مريم بنت عمران في السيد المسيح بعد مولد يحيىٰ عليه السلام (وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ * يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران ٤٢-٤٣]

إلا أن الرهبان الصدوقيين الذين كانوا في المعبد، لم يرضهم أن تدنس مريم المعبد بتلك الشبهة وعقدوا العزم علىٰ تنفيذ حكم الرجم بحقها حينما لاحظوا علامات لحمل تظهر عليها فأرجأوا التنفيذ لليوم التالي (هذا علىٰ الرغم من معاصرتهم لحمل الياصبات من زكريا فوجود الأب والأم والعاجزان معا علىٰ الإنجاب لا يعني إلا أن إنجابهما مع هذا العجزهو تأكيد لخوارق آتية لمولد يحيىٰ كتمهيد إلهي لحمل مريم في المسيح) وما قد جاء في الإصحاح السابع من سفر أشعيا (يعطيكم الله آية، ها العذراء تحمل وتلد إبنا وتدعو اسمه عمانويل)، ولكن لأن الله الذي عصم نبيه موسىٰ من تدبير الفرعون وهو بالغ أمره فيوحي سبحانه وتعالىٰ ليوسف النجار خطيبها بتهريبها والجنين إلىٰ خارج المعبد ليلا إلىٰ بيت لحم موطن داوود والتي نصت الأسفار والنبوآت علىٰ ولادة المخلص هناك وكانت كل الأسر تتمنىٰ أن يولد المسيح منها وأسمياه (يهو شع) أي سعي الله، وبدأت لنبي الله عيسىٰ سلسلة لا متناهية من معجزات الحفظ والعصمة بأن كف الله بني إسرائيل عنه بتدبير الله جل وعلا وبعد ولادة السيد المسيح عليه السلام ظهر في شوارع بيت لحم يوسف وخطيبته مريم والتي كان الناس يطلقون عليها أخت هارون- إحتراما لها لقنوتها وتعبدها وتيمنا بمريم أخت موسىٰ وهارون-

ومعهما الطفل عيسىٰ المشتبه في شرعيته لديهم، لم يدركوا أن الله جعله وأمه آية لبني إسرائيل(٦٢) فتطلع الناس إليها في صدمة وقالوا

(يامريم، لقد جئت شيئا فريا، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا) فأشارت مريم إلىٰ الطفل أن اسألوه، فقالوا (كيف نكلم من كان في المهد صبيا)

وإذ بالوليد يتكلم ويقول لهم في إعجاز بلاغي من عند الله (إني عبد الله، آتاني الكتاب وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا، وبارا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا، والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) ، جميع الآيات من سورة مريم في القرآن الكريم ولم يجد الكاتب أصدق من هذا المصدر والملحوظ فيها تشابه كل ما جاء بشأن يحيىٰ وشأن السيد المسيح وليس التطابق - أما التفسير فليس الكاتب بأهل لأفضله.

(إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) [آل عمران ٥٩]

ولد السيد المسيح في منطقة الجليل مثل يحيىٰ المغتسل (يوحنا المعمدان) والتي كانت كما قلنا تحت حكم آنتيباس، وكانت منطقة الجليل في ذلك الوقت يطلق عليها جليل الأمم، والترتيب الإلهي لاختيار ذلك المكان لاشك فيه ليس لصالح الدعوة للديانة المسيحية فحسب وإنما لصالح دين الله علىٰ وجه العموم فجليل الأمم تعج بشعوب عدة تقطنها ولهذا سميت بجليل الأمم وكان أغلبها شعوب عربية ولسانها الآرامية وهي لغة السيد المسيح عليه السلام وكان العديد من شعوب الأرض تقطنها من إغريق وكلدانيون وبابليون وسوريون وإسرائيليون وهي منطقة ثورات عدة بحكم اتصالها بمختلف الشعوب، وكذلك لما بلغت إليه الحالة الإجتماعية في الجليل بالذات ولئن تصفحنا الأناجيل الأربعة ستتمثل لنا حالة البؤس واليأس التي كانت ترين علىٰ قرىٰ فلسطين والجليل بالذات فتبرز رحلات المسيح بين قرىٰ الجليل أخبار العجزة والمرضىٰ والفقراء والبؤساء من مختلف الأعمار، كان عصر الميلاد عصرا مهيض الأعصاب يحتاج إلىٰ سكين الإيمان، وكانت الأمثال السائرة علىٰ ألسنة اليهود أن (لا خير يأتي من جليلي) وفي إنجيل يوحنا أيضا ذكر لهذه المقولة، إذ يروىٰ عن رجال الهيكل قولهم (إنه لم يقم نبي قط

(٦٢) سورة الزخرف الآية ٥٩ الهسمونيون هم نسل سيمون المكابي الذي نجح في قيام حكم ذاتي لليهود في فلسطين وهم من نسل ماتياس الهسموني صاحب ثورة اليهود الإولىٰ سنة ١٦٨ ق م.

من الجليل) وفي هذا الإنجيل أيضا وفي الإصحاح الأول أن نثنائيل عجب قائلا لصاحبه (إننا وجدنا الذي أنبأ عنه موسىٰ في الناصرة)، فأجابه مستغربا (أمن الناصرة يأتي شيئ صالح).

والعنصرية هي واحدة من المصائب التي تهدد في العادة الطريق إلىٰ عبادة الله، وهو نهج إبليس الذي رفض السجود لآدم لأنه من عنصر أفضل، ألا وهي الإفراط في العنصرية إذ أن الله تعالىٰ رب لجميع البشر إلا أن اليهود قد أساءوا فهم تفضيل الله لهم فميزوا أنفسهم عن العالمين، ثم ميزوا بعضهم عن بعض علىٰ أساس أسباط يعقوب المختلفة، فمنهم من يؤثر بالنبوة، ومنهم من لاحق له فيها، وفي الحقيقة أن ظهور المسيح من منطقة الجليل إنما يثبت انتفاء عنصرية الإيمان وخصوصية شعب دون آخر، ولمكان دون آخر، ويمهد لعالمية الإيمان بالله، كما أنه لا يحدث طور من أطوار الدين أو الدنيا إلا سبقته مقدمات تمهد لحدوثه، والمسيحية لا تشذ عن هذه القاعدة بل هي تؤيدها، العصر قبل المسيح كان ينتظر المسيح، ومهيأً له عليه السلام، ولهذا فالدعوة جاءت في موعدها المحدد إلهيا، إذ كان مولده ونشأته عليه السلام، معاصرا لثورات قد مهدت الطريق لنبي الله ورسوله عيسىٰ بن مريم عليه الصلاة والسلام.

كانت ثورة (باركوكيبا)، أي الإبن البار للكوكب، وكذلك ثورة يهوذا الجليلي وغيرهم ممن سنتناولهم فيما بعد، قبل ولادته بأسابيع إنتقلت به مريم عليها السلام وهي حامل مع يوسف النجار خطيبها من مدينة الناصرة بالجليل إلىٰ بيت لحم بغرض ادراج اسمه واسم مريم في التعداد الذي أمر به أغسطس كل في موطنه الأصلي، كانت بيت لحم موطن يوسف الأصلي، وقد ولد المسيح بها، ونشأ بن مريم في مدينة الناصرة قرب طبرية (تيبريوس) التي أنشأها تيبريوس بعد دمار العاصمة القديمة بفعل الثورة اليهودية الثانية، في بيئة تعج بالآلام والفقر والأمراض، ولم يكن الإحتلال الروماني هو السبب الأوحد لهذه الآلام والفقر بل كان نتيجة من نتائج مصيبة أكبر وأصعب يمكن لأي مجتمع أن يعيشها ألا وهي الإختلال الإيماني وكذلك النفاق الإيماني ابتلىٰ به اليهود أنفسهم من قبل وأثناء وبعد نبي الله موسىٰ عليه السلام.

تأتىٰ ذلك الإختلال الإيماني (٦٣) والنفاق الإيماني كنتيجة مباشرة لما عرف عنهم من جدل في كل معطيات حياتهم، بما فيها إيمانهم وكتبهم، ومحاولاتهم الفجة لإعمال عقولهم القاصرة عن فهم الغايات الكبرىٰ من الإيمان فقد كان الإيمان بالغيب أهم ما كان عليهم الإستمساك به، واقترن جدلهم بما ورثوه من عناد ولجاجة، مما أدىٰ بهم في نهاية المطاف إلي التبعية والهزيمة من جميع الشعوب المجاورة والنائية علىٰ حد سواء ولم يمثلوا الحاكم الروماني في حكم فلسطين ذات الأغلبية من الأعراق المختلفة إلا بحبل من أسيادهم الرومان وأدت هزائمهم إلىٰ ريائهم للمنتصرين عليهم من أجل البقاء، وقد تمكن الرياء من طبيعتهم تمكنا، جعله مكونا أساسيا في ضمائرهم، وأخلاقهم، وحياتهم اليوميه، واستفحل الرياء فيهم، فطال الدين، وطال الشريعة بل وصار أساس تفكيرهم وممارساتهم الدينية، والمراءون بارعون في العادة في انتقاء الألفاظ واللعب بها، وبمشاعر العامة من الناس، وبسطاء الناس هم ضحايا التفيهق ، وأسوأ المراءون هم أولئك الذين يعكفون علىٰ قراءة النصوص والتفسيرات فيبرعون في تعجيز البسطاء، والبسطاء هم الذين ما أتىٰ الدين إلا من أجل جعل حياتهم أفضل، فقام المراؤن باختراع الحيل والتفاسير والفتاوىٰ يتخذون من الجمود والتشدد سلاحهم الماضي وأيضا من التعاويذ المدسوسة علىٰ الدين وسيلة للكسب باسم الدين، فيطغىٰ النفاق والرياء علىٰ الغرض من الدعوة الإيمانية وبهم تستحيل الرحمة الإلهية إلىٰ قسوة ويسود المظهر والشكل، علىٰ الصدق والإخلاص.

ومن المرائين من يفخر بحفظ النصوص، ويتيه عجبا بنفسه إذا ما استطاع أن يخلق العقد والعقبات من خلال الحروف والأسطر، ومعروف أن الرياء يستشري دائما مع الهزيمة، ويستشرىٰ دائما ذلك الرياء والاختلال الإيماني الذي ينطلي علىٰ جهل البسطاء، وانتهازية المنافقين. يقول رسول الله محمد صلىٰ الله عليه وسلم (إن أخوف ما أخاف عليكم، الشرك الأصغر قالوا: ما الشرك الأصغر قال:الرياء فالله إذا جزىٰ الناس بأعمالهم

---

(٦٣)الخلل الإيماني: هو النفاق العملىٰ ، ويكون فيه الفرد مؤمنا، ويتعمد إظهار ذلك لكسب في الدنيا ويظهر في فترات الهزائم وانعدام القدوة

النفاق الإيماني: هو النفاق الإعتقادي.وهو ألا يكون المرء مؤمنا وإنما يداهن بالإيمان خداعا للمؤمنين وقد كان منتشرا في صدر الإسلام بعد تمكن رسول الله من مجتمع يثرب ويظهر أثناء انتصار الدولة القائمة علىٰ أسس دينية.

التفيهق هو إدعاء الفهم الأوحد وهو التنطع والتفاخر – يقول رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم (إن أبغضكم الثرثارون المتفيهقون).

قال لهم: إذهبوا إلىٰ الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء)ويقول (لا يقبل الله عملا فيه مثقال حبة خردل من رياء)

يستشري أيضا كنتيجة لغياب القائد والقدوة، وفي حالات الهزيمة ينبري واحد من المرائين مدعيا، أنه وحده يعرف الطريق إلىٰ النصر، ويلتفت المجتمع يمينا ويسارا فلا يجد غير هذا المدعي، فلا قائد ولا قدوة فيتبعه الناس ويخشون بطشه طالما يتحدث من خلال النصوص التىٰ يحفظها وحده، أويدعي أن تفسيرها لديه وحده، دون سواه، ويصير الرياء آفة الإنسانية مدمرا للمجتمع الذي وجد فيه ويدفع المؤمنون ثمنه غاليا، ويصيرون فرائس للمرائين الجامدين، الذين يعكفون علىٰ إغلاق كل منافذ النجاة في وجوه المؤمنين، إن التظاهر الإيماني ومظاهر الإختلال هي مأساة لشريعة الله وخيبة للقائمين عليه، إذ يفخر المصلي بصلاتة فيظهر أثرها متعمدا عليه، ويرتدي من الملابس التي تنم عن التشدد، ويعلن عن صيامه ونسكه، ويغلف بضاعته بمظهر ينم عن العبوس والضجر، فيهابه البسطاء ويستمعون إليه، ويولونه أمورهم، ويعطونه أموالهم بغرض توكيله بغية التصدق، فينهبها، والمرائي حينها يكون قد استوفىٰ أجره في الدنيا وتعدىٰ علىٰ الشرع، فلا أجر له في الاخرة، بل عقاب إلهي، إن شريعة المحبة والضمير أصعب من شريعة المظاهر والكلمات، لأن الضمير معني بالنيات، وبالأعمال المخلصة وفهم الغرض من الإيمان وجدانيا، ولا يعني بالمظهر والنص.

٩- بيئة موطن الرسالة المسيحية (وشريعة المحبة)

نشأ عيسىٰ عليه السلام في تلك البيئة، وشب وسط مظاهر الاختلال الإيماني التي تأباها نفسه النبوية الطاهرة منذ نعومة أظفاره وشعر بان الرياء هو أصل البلاء، وهو أسوأ الصورالإنسانية التي يمكن لمجتمع أن يعانيها، وبالتأكيد أي مجتمع علىٰ وجه الأرض، حيث يتواریٰ الصدق والعدل والإنصاف، وتنعدم المحبة، ويسود الظلم لضحايا المجتمع من الصادقين.

أدرك المسيح عليه السلام أن عالم الرياء لايمت بصلة لعالم الضمير، فسمات الرياء هي المظاهر والكلمات والقيود، أما عالم المحبة والصدق والتفاني فهو موكول للضمير فالحب لا يقاس بالمظاهر والكلمات والقيود، ولكنه يمتاز بالتفاني فيصبح عطاءا وافرا

والمحب لا يعطي ما يطلب منه فحسب، وإنما يزيد عليه راضيا سعيدا، ولاينتظر المقابل حتىٰ لو وعد به من الله.

إن أعطىٰ المؤمن عن محبة أعطىٰ أكثر مما قد يعطيه كالتزام إيماني وفيها يقول المسيح عليه الصلاة والسلام (المعطي المسرور يحبه الرب)

- كان الكهنة الصدوقيون هم المتحكمين في العبادة وجمع الصدقات للمعبد، لايؤمنون بالبعث وبالتالي فلا حساب في الآخرة، فأي فساد يقترفونه لن يحاسبوا عليه في اعتقادهم، وهم من تنطبق عليهم صفات المرائين تماما وأصحاب الاختلال الإيماني.
- كان الفريسيون وهم المعتقدين في القدرية وحلول الروح، قد ثاروا علىٰ الصدوقيين ونافسوهم، فتزايدوا عليهم في المظاهر الإيمانية وفي التأكيد علىٰ غسل كل شيئ، وصاروا يمثلون العبئ الأكبر أمام الضمير الإيماني بين اليهود فتفوقوا في الاختلال الإيماني.
- كان أصحاب الجباة الدامية يزايدون علىٰ الفرقتين السابقتين، وتقول أن سبب هوان اليهود هو التفريط في الإلتزام بالعقيدة والشريعة بالنظر إلىٰ النساء، فمشوا في الطرقات مغمضي أعينهم كان دليل إيمانهم أن تصاب جبهاتهم بارتطامها بشيئ فكانوا بدورهم أطرف فرقة،وأكثرها تدعوا للرثاء والتندرعلىٰ مدار القرون
- وكان الآسيين (أي الذين يواسون الجراح) طائفة مستقلة في جنوب فلسطين ومصدر قوتهم هي صرامة العقيدة، وقد دلت كشوفات وادىٰ القمران عام ١٩٤٨علىٰ انتظار هذه الطائفة للخلاص علىٰ يد المسيح الموعود وكانت صومعتهم التىٰ أكتشفت هىٰ البرية التىٰ كان يلوذ بها المسيح ويحيىٰ عليهما السلام إلا أن تلك الجماعة كانت مصابة بداء القوم ألا وهو الجمود علىٰ النصوص والحروف والإنصراف عن جوهر العقيدة، فألحقوا بباقىٰ الفرق.
- وكان الغلاة الجليليون من أتباع يهوذا الجليلي، فرقة متطرفة منشقة من فرق الآسيين تدعو للقتال والثورة والتشدد.
- وكان السامريون رافضين للهيكل باورشليم ولديهم هيكلا خاصا بهم في جزريم ولا بما أضافه عزرا ويتعمدون تدنيس هيكل اورشليم، ولم يعترفوا إلا بالتوراة وأسفار

موسىٰ الخمسة، وكانوا يتعمدون الظهور بمظهر الغيورين علىٰ العقيدة بالمغالاة والتشدد فكانوا كسابقيهم من الإزدراء في أعين الناس البسطاء.

- كانت وظائف الهيكل موكولة إلىٰ السنهدريين وكانوا واحد وسبعون عضوا يرفضون فكرة المسيح المنتظر، لأنها ببساطة تتضمن الحكم بفساد الزمن الذي ظهر فيه واليأس من صلاحه واتهام القائمين علىٰ شؤون الدين بالفساد، وكان أجدادهم هم من كتبوا النص السبعيني بأمر فلادفيوس (بطليموس الثاني) وكانت وظائف الهيكل والسلطة الدينية موكولة إليهم منذ ذلك الزمان.
- علىٰ عكسهم آحاد من الناس المتفرقين يطلقون علىٰ أنفسهم النذريين لا تجمعهم فئة واحدة أو طائفة معينة وهبوا انفسهم لخدمة الله ونذر أنفسهم بالتبشير بظهور المسيح وباليوم الموعود، ويؤمنون بأن عمر الدنيا هو إسبوع إلهي واليوم فيه بالف عام، فتنقضي ستة أيام إلهية في العناء والشقاء والحروب، ثم يأتىٰ اليوم السابع فيدوم ألف سنة بقدوم المسيح فيعم السلام والرخاء ولا يزال الغربيون يعرفون الألفية بال (Mellinum) ويقال أن الناصرة هي الناذرة (نسبة إلىٰ النذريين، فالكلمتان متقاربتان نطقا في اللغة العبرية).

أغلب هؤلاء جمعتهم صفة الاختلال الإيماني بجدارة المشوب بالرياء، ما عدا القلة منهم، وكانت فلسطين كالمرجل، تنذر بالثورة....رأىٰ عيسىٰ بن مريم الرياء والمظاهر الإيمانية المفتعلة، وراعه حال البؤس الذي يعايشه الناس والفريسيون المتزمتون الذين يراعون تطبيق حرفية نواميس موسىٰ عليه السلام في النظافة والطهارة ولا يلتفتون إلىٰ طهارة النفوس وأولها نفوس من يفتشون علىٰ الإسرائيليين الفقراء والمعدمين للتحقق من النظافة وأنهم يسيرون علىٰ الناموس بغسل كل شيئ ولو كان الماء يغسل لأمروا بغسله وعيسىٰ الطفل يراقب ويتطلع في امتعاض.فما كان – حتىٰ في صغره– يطمئن إلىٰ هذا الرياء والمظهرية كان يحب الوحدة، ويحس براحة إذا ما انفرد بنفسه متأملا، وكبر عيسىٰ وأصبح بحكم الشريعة بالغا (جادول) ويعامل معاملة الرجال، وابن الناموس (إبن هاتوراة)، يفعل ما يوحيه إليه عقله، ويتحمل ما جنت يداه وكان عليه إذن أن يجد لنفسه عملا، ومهنة لكي يتكسب منها، فاحترف النجارة في حانوت يوسف، وإذا ما جاء السبت ذهب إلىٰ المعبد.

حينما أشرف موسم الحج علىٰ أورشليم في الفصح - وكان في الثانية عشرة من عمره ارتحلت الأسرة إلىٰ أورشليم، وتوجهوا إلىٰ المعبد، كان يرىٰ الصيارفة الإسرائيليون يفترشون الأرض أمام المعبد وأمامهم أكداس النقود، يستبدلون العملات المصرية واليونانية والكلدانية والرومانية بالشاقل الإسرائيلي وكان تجارالأغنام يعرضون خرافهم وعجولهم ورائحة الروث تملأ أرجاء المكان أمام المعبد وكان تجار الحمام يبيعون للفقراء ما يقدرون عليه قربانا إلىٰ الله فشعر عيسىٰ بالإنتهاك الصارخ لقدسية المكان إلا أن عيسىٰ عليه السلام قد الفىٰ حلقات العلماء علىٰ شرف عال وكان هليل العظيم موضع إحترام اليهود علىٰ هذه الشرفة ومن حوله تلاميذه من الرجال والكبراء فهفت إليه نفسه وتحدث هليل وعيسىٰ يلقي إليه سمعه شغوفا بما يسمع وحينما تحدث إليه عيسىٰ ألفىٰ إليه هليل سمعه أيضا وقلبه ينجذب للصبي، فالحكمة تتدفق من فم الفتىٰ الصغير، وتتابعت الأيام وعيسىٰ يذهب للمعبد يجلس إلىٰ حلقات العلماء يعيرهم سمعه وجاء ميقات التضحية فذهبت مريم مع يوسف زوجها لأداء الشعيرة وبعد عودتها بحثت عن الصبي فلم تجده، واستمر بحثها عنه مضنيا لثلاثة أيام إلىٰ أن هداها الله إلي أن الصبي كان شغوفا بالجلوس إلىٰ حلقات العلماء، وسماع الحكمة منهم فتوجهت إليه ولما وجدته مظهرة خوفها عليه فقال لها (ما كان الله ليضيعني) كبر عيسىٰ بن مريم وفي تلك الفترة استمرعليه السلام في تعبده، ونهل الحقيقة من الله أثناء انفراده بنفسه، وقد سمع

عن نبي الله يحيىٰ عليه السلام، فذهب إليه عند نهر الأردن وعمَده نبي الله يحيىٰ وكان يوسف النجار قد توفاه الله، وعيسىٰ يكبر ويتهيأ إلىٰ الرسالة يوما بعد يوم وفي تلك الأثناء قطعت رأس يحيىٰ عليه السلام فمات شهيدا عام ٢٩ ميلادية وعيسىٰ يتعبد إلىٰ الله وقد عقد العزم أن يمكث في الخلاء يتعبد صائما فالخلوة تطهر نفسه والمناجاة تشحذ روحه وتملأ قلبه نورا علىٰ نورلا يحس شيئا حوله وكرت الأيام والليالي وهولا يحس بما حوله

(وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل)*

وتصرمت أربعون ليلة وعيسىٰ في مناجاته وهو علىٰ قمة الجبل صائما متفردا بالمناجاة إلىٰ الله إلىٰ أن أوحىٰ الله وخلال تلك الفترة حاول الشيطان غوايته بملك الدنيا علىٰ أن يعبده وأرجعه نبي الله عيسىٰ خاسرا مذموما قائلا له (مكتوب:للرب إلهك تسجد

وإياه وحده تعبد) فقال له الشيطان (سأضل بك يا عيسىٰ بشرا كثيرا، وأبث فيهم أهواء مختلفة وأجعلهم شيعا، ويجعلونك وأمك إلهين من دون الله) .

١٠- بدء تبشير المسيح عليه السلام ورسالته الروحية:-

لم يكن الرياء وحده آفة المجتمع الإسرائيلي بل كانت مقولة الشعب المختار، قد جعلت الخيلاء القومي يمر بحالات من الهيستيريا والبارانويا القومية والمادية أيضا، مما أدىٰ إلىٰ تناقضهم السلوكي مابين ما يعتقدونه من تميز، وما يشعرون به من وضاعة، ومن هنا أراد الله تعالىٰ أن يؤيده بمعجزات روحية لا مادية لها نفس سمات معجزة ميلاده المرتبطة بالروح حتىٰ يتم تحييد جشعهم المادي، كخلق الطير، وإحياء الموتىٰ، ذلك لإحياء روحانياتهم التي طمسوها بغرور مقولة الشعب المختار، وبماديتهم، فبدأ المسيح عليه السلام يجوب منطقة الناصرة داعيا إلىٰ الرشاد وهو يقول للناس مثلما كان يقول يحيىٰ، فلما أراد الناس التحقق (كعادة البسطاء الماديين) قالوا له (أرنا آية) قال لهم المسيح بوحي من الله (أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله) فخلق شكل الطير من الطين أي من المادة ثم النفخ فيه فيتحرك ويطير مع أن مادته لم يزد عليها إلا الروح المفوخة فيه بإذن الله، إذن فالزيادة لم تكن سوىٰ زيادة روحية يحتاجها اليهود في إكمال إيمانهم، وكذلك فعل المسيح عليه السلام، فانفض الناس من حوله يظنونه ساحرا أوربما حسبوه مجنونا، فخلق الطيروإحياء الموتىٰ، والشفاء من الأمراض هي أمورموكولة لله، فغادرالناصرة إلي الجليل وعند بحيرة طبرية راح يعظ الناس والصيادين، ولما انفض الناس من حوله - كعادتهم- سار في أثره صيادان هما (أندراوس) و (يحنا بن زيدي) وجلسا يصغيان إليه وشهدا أنه رسول الله فبشر أندراوس أخيه (سمعان) الذي أسماه المسيح (بطرس)أي الصخرة أما يوحنا بن زيدي فبشر أخيه (يعقوب بن زيدي)المعروف بجيمس وبذلك تجمع للمسيح عليه السلام أربعة من التلاميذ الأوائل والشائع عند الناس إلىٰ الآن أحيانا، أن تلاميذه ماهم إلا طائفة من الصيادين الأميين في بحر الجليل (طبرية)، والواقع أنهم كانوا طائفة - * سورة المائدة الآية ١١٠ النصوص المسيحية من الأناجيل الأربعة ذكرها الله في القرآن الكريم في الصدر السابق وقد وردت في إنجيل توما وإنجيل الطفولية ولم تذكر في الأناجيل الأخرىٰ والآية الكريمة من سورة آل عمران رقم ٤٩ ونصها

(ورسولا إلىٰ بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتىٰ بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين)

تقرأ وتكتب وأيضا تتردد علىٰ مجامع الوعظ والصلاة وتراجع ما قيل عن النبوءات، صحيح أنهم لم يبلغوا من العلم مبلغ الفقهاء في زمانهم وهوخير- لهم وللدعوة - لأنهم لو كانوا من فقهاء زمانهم لركبهم الغرور ولقابلوا الدعوة إما بالتحدي والمكابرة أو بالشك علىٰ أفضل الحالات فالهداية هي لعموم الناس البسطاء وليست للمتعالمين المتفيقهين، ذهب المسيح عليه السلام إلىٰ بحر الجليل مرة أخرىٰ ورأىٰ (فيليبس) الصياد يصطاد فقال له أتبعني ولم يشعر فيليبس بنفسه إلا أن تبعه بعد أن سمع منه الهداية والدلائل علىٰ نبوته، وهجر هو الآخر مهنته في الصيد وصار من أتباع المسيح وانطلق من بعدها إلىٰ (نثنائيل) فبشره بأن من كتب عنه موسىٰ في الناموس قد وجدناه في الجليل، فقال (أيخرج من الجليل شيئ صالح) وذهب نثنائيل من فوره إلىٰ المسيح يسمع منه فبادره المسيح قائلا (هذا هو الإسرائيلي الذي لا غش فيه) فقد رآه المسيح يوما وهو يبتهل إلىٰ الله بصدق، وهجر الصيادون شباكهم ووهبوا أنفسهم إلىٰ الله وفي موسم الحج، ودخل عيسىٰ عليه السلام إلىٰ الهيكل فأحس إمتعاضا كالذي شعر به طيلة حياته من تدنيس المعبد ولكنه كنبي مرسل عزم أن يطهر الحرم المقدس ويعيد إليه مكانته للعبادة والتقديس وليس للرياء، ولا للتربح باسم الدين، فأمر التجار والصيارفة برفع المخالفات، فتسارع التجارإلىٰ الإنصياع، فقد كانوا يشعرون في أعماقهم أنهم مخطئون، وتجمهرالناس من حوله، يرقبون بإعجاب الثائرلكرامة الهيكل المقدس، ودخل المسيح يصلىٰ والجموع من خلفه مبهورة به، وبعد أن فرغ من صلاته قالوا له إن الشعب يريد أن يسمعك، فتقدم يعظ الناس، فارتجل مواعظه، فجرت كلماته علىٰ نسق سهل، يلهمه الله وتلهمه طبيعة خلقة، فتجري كلماته مجراها المألوف في قلوب الحائرين علىٰ نسق قد يظن به الجاهلون به التحضير المسبق لأنه منظم ومرسل بصياغة مسبوكة في قوالب تعبيرية غير متكلفة، بلا زيف أو رياء، كانت كلماته تبدو غريبة وقريبة في وقت واحد: غريبة لأن كلماته كانت تساورهم ولا يعرفون كيف يعبرون عنها، وقريبة بفضل بلاغة التعبير، يفهمها من اعتاد علىٰ التفكير والتألم والتأمل، واشتد علىٰ الشعب لأنهم نسوا أوامر الله، واستشعر الشعب رهبة، وإعجابا، وبدأت بوادر الإيمان، وكان أعضاء السنهدرين يرقبون كلماته وأفعاله، فحقدوا عليه إلا نيقوديموس، فقد أحس

منه الصدق، في ذلك اليوم دنا منه نيقوديموس عضو السنهدرين وكان صالحا، فقال للمسيح (نعلم أنك أتيت من الله معلما) فقال له المسيح (من لا يولد من فوق لا يقدر أن يرىٰ ملكوت السماء)، لم يفهم العضو الثالث من السنهدرين ان المسيح يعني أن الإيمان بالله ولادة من جديد، فقال للمسيح (فكيف للرجل أن يولد من فوق وقد ولدته أمه من قبل)، فقال له المسيح (أنت تعلم إسرائيل ولست تعلم هذا ؟إننا نتكلم بما نعلم ونشهد بما رأينا، ولستم تقبلون شهادتنا لكم في الأرضيات ولستم تؤمنون، فكيف تؤمنون إن قلت لكم السماويات)، أما الفريسيون فكانوا يرصدون أفعاله وكلماته بعيون الشر تماما كما فعلوا مع نبي الله يحيىٰ، لإعجاب الناس به، وهو ليس منهم، فكيف له هذا العلم وكيف له هذا القبول والإعجاب، لم يكن المسيح صاحب رسالة جديدة تنقض ما قبلها، كان كلمة الله، فينبئ به قومه إنه لا يحضر ما يقول وإنما هو كلمة الله بوحيه وكأنه يرتجل ولم يكتب مما قاله أحد حرفا إلا بعد عشرات السنين فقد كان يهيئ بدعوته بني إسرائيل ليوم آت إذ قد بعث الله المسيح للتصحيح كما قال عليه السلام (إنما جئت لأتمم لا لأنقض)

نرىٰ في تلك الكلمات نفس ما جاء في أقوال محمد رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم (إنما جئت لأتمم مكارم الأخلاق) وكما ذكرنا في مقدمة الكتاب من أن الحالة الإيمانية لبنىٰ البشر لا يمكنها أن تتحقق إلا بالتدريج وعليه فالعدد الهائل لأنبياء الله عز وجل، يمهد كل منهم للآخر الذىٰ يأتىٰ من من بعده، والملحوظ أيضا أن كل نبىٰ يخلفه نبىٰ آخر، يذكر قومه بما أرساه النبىٰ الذي بشر به من كان قبله، وعبر المسيح عليه السلام السامرة إلىٰ الجليل من أورشليم، ومعه حوارييه وهم يسيرون ورائه متعجبين فكيف لإسرائيلي مخلص أن يعبر السامرة ؟، فالكراهية متبادلة بينهم وبين السامريين، والأدهىٰ أنه التقىٰ بامرأة سامرية خاطئة، والأمّر أنه حادثها، وكانت شريعتهم التي وضعوها بأيديهم تحرم حديث رجل الدين لأي امرأة علىٰ الملأ ولو كانت زوجته، فكيف وهي ليست زوجته وسامرية وخاطئة فعجب تلاميذ المسيح ولزموا الصمت ولم يدركوا أنه مرسل للخاطئين كما هو مرسل للأخيار، طلب منها ماءا ليشرب، ثم أنبأها بأن لها خمسة أزواج، وأن الرجل الذي تعيش معه الآن، ليس زوجها وقال لها (كل من يشرب من هذا الماء يعطش ولكن من يشرب من الماء الذي أعطيه لايعطش أبدا)، عرفت المرأة أنها في حضرة نبي منذ أن أنبأها بخطيئتها، فأرادت أن تغير مجرىٰ الحديث، فقالت (آباؤنا سجدوا في هذا الجبل وأنتم تقولون أن في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يسجد فيه)، فقال لها (يا امرأة صدقيني، تأتي

ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون لله، أنتم تسجدون لما لا تعرفون أما نحن فنسجد لما نعلم) [٦٤] ذهبت المرأة من فورها لشكيم (نابلس) وجاءت بسكانها كي يلتقوا بالنبي، فغص بهم المكان وراح المسيح يبشرهم، فتفتحت قلوبهم، ودعوه أن ينزل عليهم ضيفا يعلمهم لبضعة أيام، فقبل رسول الله عيسىٰ ومعه تلاميذه، مخالفا تحريم اليهود لذلك، فقد جاء ليصحح، وتوجه نبي الله عيسىٰ عليه السلام إلىٰ كفر ناحوم، يكرز، ويبشر فيها داعيا إلىٰ الله، فجاءه نبيل من البلاط قد سمع عن المسيح، وطلب منه أن يأتي معه إلىٰ داره كي يبرئ ابنه المشرف علىٰ الموت كان إيمان النبيل بالمسيح واضحا وجليا، فقال له المسيح، بل اذهب إلىٰ بيتك تجده معافيا، ولما ذهب النبيل إلىٰ بيته وجد ابنه صحيحا معافيا، ولما عجب الناس قال لهم المسيح (إنما إيمانه قد أبرأ ابنه من علته)، وهكذا كانت معجزاته الروحية.

جاء عيسىٰ إلىٰ المرفأ، فتقاطر عليه الناس، فقد سمعت به أرجاء إسرائيل، وحدثهم المسيح وكان حديثه لا يخرج عما جاءت به التوراة ولكنه كان حديثا أخاذا يملك قلوبهم بفهم روح الشريعة وليس رياؤها، أزال عنهم جمود تعقيدات اليهود عبر القرون يذكرهم من آن لآخر بكلمات يحيىٰ فيصيح مثله (توبوا إلىٰ الله فقد إقترب ملكوت السماوات) وانصرف الناس، إلا (متىٰ العشار)والذي كرهه اليهود لأنه يجبي الضرائب للرومان، فتبعه متىٰ وكاتب يعرف الكتاب والتلمود ويعلمه للناس وانضما للحواريين كل قد ترك عمله من أجل الدعوة لدين الله الحق وأصبح مع المسيح من التلاميذ ثمانية ولما كثرالمؤمنين بالمسيح وبعدها اختار عيسىٰ إثني عشر رجلا ليلازموه ولا يفارقونه.

يجدر أن نذكرأسماء حواريي المسيح وهم كما ذكرهم متىٰ بالإصحاح العاشر (٢-٤)

١. (أندراوس) وهو أحد أتباع يحيىٰ
٢. (سمعان أو سيمون) وقد سماه المسيح كفاس أي الصخرة لصلابته وهو المعروف ببطرس حسب الترجمة اليونانية.
٣. الشقيقان (يوحنا بن زيدي)
٤. (و يعقوب بن زيدي أو جيمس)

---

(٦٤)ويقصد رسول الله عيسىٰ عليه الصلاة والسلام، اليوم الذي سيسجد الناس لله بالكعبة.

٥. (فيليبس)

٦. (نثنائيل أو سمعان القانوني) قال عنه المسيح أنه الإسرائيلي الذي لا غش فيه

٧. (توما)

٨. (برثولماوس)

٩. (يعقوب بن حلفي)

١٠. (لباوس الملقب تداوس)

١١. (نثنائيل أو سمعان القانوني) قال عنه المسيح أنه الإسرائيلي الذي لا غش فيه

١٢. (يهوذا الإسخريوطي) الذي سيأتي ذكره تفصيلا.

وراح المسيح عليه السلام، يبشر برسول من بعده، ومن ضمن ما قاله: (أقول لكم إن الحق لا يعلمه إلا إنسان اواحدا وهو الذي تتطلع إليه وتنتظره الأمم والذي تتجلىٰ له أسرار الله العليا تجليا فطوبىٰ لمن يصيخ السمع إليه)[٦٥] ثم وقف يمهد لمن سيأتي من بعده ويبشر برسالة الرحمة والمحبة قائلا: (قيل للقدماء لا تقتل، وأنا أقول لكم من يغضب علىٰ أخيه باطلا فسوف يكون مستوجب الحكم عليه)، (قيل للقدماء لا تزن وأنا أقول لكم إن كل من ينظر إلىٰ امرأة يشتهيها فقد زنىٰ بها في قلبه، فإن كانت عينك اليمنىٰ تعثرك فاقتلعها خير لك أن يهلك أحد أعضائك علىٰ أن يهلك الجسد كله في جهنم)، (قيل من طلق امرأة فليعطها كتاب طلاق، وأنا أقول لكم من طلق امرأته بغير علة الزنا يجعلها تزني ومن تزوج مطلقة فهو يزني)، واعترض الكتبة والفريسيون قائلين أنه ينقض الناموس، لم يفهموا، فقد قصد المسيح الحث علىٰ تعظيم الروحانيات في تعاملاتهم وعلىٰ مكارم الأخلاق والحذر فيما يقومون به ظنا أنهم يستخدمون حقهم فيما شرعه الله ورفع الأصرعنهم فأساؤا أيما إساءة لأنفسهم ولأخوانهم وزوجاتهم بإسم الحقوق الشرعية ولفكرة الإيمان بالله والشريعة بوجه عام قال لهم:

(٦٥)انظر ص ١٨٠ (التبشير بالفراقليط) .

(لا تكنزوا علىٰ الأرض كنوزا، حيث يفسدها السوس والصدأ، بل اكنزوا لكم كنوزا عند الله في السماء حيث لا يفسدها السوس والصدأ، حيث يكون كنزك يكون قلبك) قال لهم (سراج الجسد هو العين فإن كانت العين بسيطة فجسدك كله نيرا وإن كانت عينك شريرة فجسدك كله مظلما، فإن كان النور الذي فيك ظلاما، فالظلام كيف يكون) كلمات رائعة يهدف منها غرس الشعور بأن يكون الله هو الملاذ الأوحد، لكن من يعقل؟

شعر المسيح بكفرهم (فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) [آل عمران ٥٢]

١١- معجزات المسيح عليه السلام الروحانية:-

كانت معجزات المسيح ترنو إلي الإيمان بالروح فبالروح يشفىٰ الجسم العليل وبالروح تشفىٰ النفوس، وقد تضرع أبرص إلىٰ السيد المسيح أن يشفيه وقد كان مؤمنا بالمسيح، فمد عليه الصلاة والسلام إليه يده فبرأ الأبرص بإذن الله الذي يؤيده بالمعجزات كسائر الأنبياء من قبله، وفي كفر ناحوم جاءه قائد روماني يلتمس منه أن يشفي عبدا له، فقال له المسيح: (أنا آتيك لبيتك لأشفيه)، فتضايق اليهود أن يدخل المسيح بيت وثني فقد كان ذلك محرما، ففطن القائد الروماني لذلك، وقال له راجيا (فقط قل كلمة فيبرأ الغلام) فقل له المسيح: (إذهب وكما آمنت ليكن لك)، فأبرأ المسيح غلامه وقال لتلاميذه:

(لم أجد في إسرائيل إيمانا بقدر هذا الإيمان، وأقول لكم أن كثيرين سيأتون من مشارق الأرض ومغاربها يتكئون مع إبراهيم وإسحق ويعقوب في ملكوت السماوات).

سار موكب المسيح إلىٰ (نايين)، فجاءه تلميذان لنبي الله يحيىٰ كان قد بعثهما إليه يحيىٰ عليه السلام من سجنه بعدما سمع عن رسالة المسيح، فذهبا يقولان (أأنت هو الآتي، أم ننتظر آخر) فقال لهما المسيح تعاليا وانظرا، فمر موكب لجنازة لشاب، وأمه تولول عليه في حزن عميق، فاقترب منها عيسىٰ قائلا لها: (لا تبك)، و ذهب إلىٰ النعش ووضع يده عليه قائلا في حزم:

(أيها الشاب، قم) فدبت فيه الروح بإذن الله، وذهل الناس وتذكروا (إيليا) وصاحوا إنه نبي كريم فالتفت المسيح إلىٰ تلميذي يحيىٰ قائلا لهما: (عودا إلىٰ سيدكما وقولا له، إن

إن العمي يبصرون، والبرصىٰ يتطهرون، والعرج يمشون، والصم يسمعون والأموات يقومون، والمساكين يبشرون فطوبىٰ لمن لا يعثر في)، فقال قوم (إن الذي زارنا إنما هو إلهنا)(٦٦) وأورد برنابا قول المسيح: (إني أشهد أمام السماءوأشهد كل ساكني الأرض أني برئ من كل ما قاله الناس عني من أني أعظم من البشر، لأني بشر مولود من إمرأة وعرضة لحكم الله (٦٧)، أعيش كسائر البشر عرضة للشقاء العام) وهنا تتفق رواية برنابا مع ما جاء في القرآن الكريم في هدا الشأن (٦٨)

١٢-غضب سكان الناصرة ومحاولة رجم المسيح:

ذاعت في الناصرة أخبار شهرة المسيح عليه السلام، وكانت أحاديثهم عنه مفعمة بالفخر والزهو، كانوا في انتظاره ليعلو شأنهم في البلاد فهم الجليليون الذين لا يأتي منهم خير فماذا إن جاء منهم النبي المنتظر أو رسول، إلا أن قلوبهم التي كانت خواء من الإيمان جعلت الأمور لا تسير في مسارها المتوقع منهم، فحينما يتحالف الشعور بالدونية والنقص مع الإيمان السطحي والجهل عند جمهور متعطش تصبح النتيجة شبه معروفة، وتسير الأمور مسارا غير محمود، وفي المجمع جلس الرجال بحسب مهنتهم وجلس المسيح وأمه مريم والحواريون معه إلىٰ طائفة النجارين، وحينما دعي إلىٰ إلقاء كلمته ناوله الخازن من التابوت المقدس (الهافتراة) وأشار إليه عند درس معين من سفر أشعيا، لكن المسيح قرأ ما يناسب الحالة، إذ أن علمه بالتوراة جعله يقتبس ما يناسب وختم كلمته قائلا (اليوم انتهىٰ هذا المكتوب) فعلت صيحات الغوغاء (آتنا بمعجزة لنشهد لك فلن نؤمن بك حتىٰ نرىٰ آية) وكأن نبي الله يأتي إليهم ليقدم لهم استعراضا للمعجزات والآيات التي هي بإذن الله حتىٰ يرضوا عنه، وبدأت الحماقة تعبر عن مكنونها جلية، فانتهز الفريسيون الفرصة فجعلوا يشككون في رسول الله قائلين (أليس هذا عيسىٰ النجار، فمن أين له العلم وما كان من الربيين المتعلمين؟) فصرخ العامة من فورهم (شفيت مرضىٰ كفر ناحوم فاشف مرضانا) وكما ذكر لنا القرآن (وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتىٰ نؤتي ما أوتىٰ رسل الله، الله أعلم حيث يجعل رسالته، سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا

(٦٦)برنابا (الإصحاحين ٤٨، ٤٨) * *انجيل برنابا (الإصحاح ١:٩٤-٢).
(٦٧)قال محمد رسول الله (أنا بن امرأة كانت تأكل القديد بمكة)
(٦٨)أنظر الفصل التاسع

يمكرون) (٦٩)قال لهم المسيح (تقولون كما سمعنا بما جرىٰ في كفر ناحوم فافعل ذلك هنا أيضا والحق أقول لكم:ليس لنبي كرامة "يقصد معجزة" في قومه إن أرامل كثيرات كن في إسرائيل في زمان إيليا ولم ترسل السماء أمطارا لثلاث سنين، واحتاجت الأرامل للعون ولم يتقدم إيليا إلا لمساعدة أرملة واحدة وكان الكثيرون مصابون بالبرص زمن اليشع النبي ولم يطهرمنهم إلاالنعمان السيرياني) وغضب اليهود أن لا كرامة "معجزة" يقدمها لهم علىٰ الرغم من محاولة المسيح التوضيح لهم بأنه يدعو إلىٰ الله وللإيمان أما المعجزات فلا يمكن اعتبارها معيارا للنبوة.إلا بقدر الإيمان فالإيمان أنفس وأبقىٰ وأغلىٰ فالمعجزات والكرامات تتأتىٰ للمؤمنين وإن بعد النبي عنهم مكانا أو زمانا ويقول الله تعالىٰ في كتابه العزيز (وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله، فإذا جاء أمر الله قضىٰ بالحق وخسر هنالك المبطلون) ولم يفهموا حجج المسيح فصرخوا (يقول أننا لا نستحق المعجزات، بل هو لا يستطيع أن يأتي بمعجزة) لم يعلموا قول الله (وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب) ودفعهم الهوس إلىٰ أن يقولوا (ارجموا النبي الكذاب كما تنص الشريعة)، فانقضوا علىٰ المسيح عليه السلام وساقوه إلىٰ قمة الجبل المنحدر إلىٰ سهل (يزرعيل) ليدحرجوه علىٰ الصخور الناتئة فيقتل، وكانت إحدىٰ الطرق الشرعية لديهم للرجم، وفجأة، أحسوا كأنما يغشىٰ عليهم، وعجزت أيديهم عن دفعه، وإذ به يجتازهم وكان الله معه فحفظه وعصمه منهم.

١٣- مريم المجدلية:

علىٰ الرغم من تشوق اليهود إلىٰ مخلص ونبي، وعلىٰ الرغم من ضجر الجميع لما آلت إليه أحوال بني إسرائيل من تردي في جميع مناحي حياتهم وعلىٰ الرغم.من تمتعهم بالكرم الآلهي بظهور نبي من بعد نبي إلا أن نفوسهم كانت لاتزا ل تعاني مما تعودوا عليه من جمود، فقد كان في ذلك الزمان بيوتا للدعارة واشتهر من بينها بيتا تملكه إمرأة تدعىٰ مريم المجدلية، كانت جميلة، ولكنها كانت أيضا عاهرة، إلا أنها كانت تشعر بوخزات الضمير فتذهب مرات ومرات في الخفاء تستمع إلي كبراء حاخامات اليهود وهم يعظون استمعت إلىٰ هليل وشماي ولم تستشعر إلا الإحباط إذ لم يجد مايقولونه نفعا لروحها

---

(٦٩)سورة الأنعام الآية رقم ١٢٤ يقول الله تعالىٰ في الآية١٢٣ من سورة الأنعام (وكذلك جعلنا في كل قرية أكابرمجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون.) سورة الرعد الآية ٣٨

المتعطشة إلىٰ الإيمان والتوبة، وفي يوم مرت علىٰ تجمع حول المسيح عليه السلام يعظ الناس فاسترقت السمع ولما انتهىٰ المسيح وانصرف ومن حوله مريديه وتلاميذه، أحست وكأنها ولدت من جديد، تملاؤها مشاعر فاضلة، فعادت إلىٰ بيتها وهي عازمة علىٰ التوبة، وعادت إلىٰ بيتها لاتدرىٰ كيف تعبر عن شكرها لذلك النبي الذي هداها، بحثت عنه، عرفت أن سمعان الفريسي قد دعاه إلىٰ داره فذهبت من فورها إلىٰ ذلك الدار والفت المسيح متكئا علىٰ أريكة، فركعت تحت قدميه تصب الطيب علىٰ رجليه وهي تذرف دموع التوبة فتتساقط تلك الدموع علىٰ رجليه وحين انتهت أرادت أن تجفف رجليه فلم يسعفها أحد بشيئ تجفف به فجففتها بشعرها، وهىٰ خاشعة - صمت سمعان الفريسي متعجبا من هذا الذي يراه، فرجل طلق اللسان يدعي النبوة ويسمح لعاهرة أن تقوم بهذا معه، وفطن المسيح إلىٰ ما يدور بخلده فبادره قائلا:

(يا سمعان، كان لدائن مدينان علىٰ أحدهما دينار وعلىٰ الآخر خمسون، ولم يكن لهما ما يوفيانه، فسامحهما، فأيهما يحبه أكثر ؟)فقال سمعان الفريسي (الذي سامحه في الأكثر) قال المسيح عليه السلام (نطقت صوابا)، ففهم سمعان إلىٰ ما يرمي إليه المسيح، فهذه المرأة المثقلة بالآثام، لوغفر الله لها، سيكون حبها لله أعظم، وبمقدار خطاياها التي غفرها الله لها، وخرجت مريم وهي امرأة أخرىٰ تؤمن بالله الغفور الرحيم، وبدأت رحلة طاهرة من حياتها الجديدة، بعد أن ولدت من فوق كما كان المسيح عليه السلام يقول لنا.

جاء إليه المزارعون من كل قرية ومدينة، فراح المسيح يعظهم، ضاربا لهم الأمثال لعلهم يفهمون، فقال (خرج زارع يزرع أرضه وفيما هو يزرع سقطت بعض البذور فأكلها الطير وسقطت بعض البذور علىٰ الصخر فلما نبتت جفت إذ لم تسق بماء وسقطت بعض البذور وسط الشوك فخنقها وسقطت بعض البذور في تربة صالحة فأنبتت مائة ضعف)بعد انصراف الناس سأله حواريوه (ماذا تقصد بمثل الزرع والزراع) قال لهم: (الزرع هو كلام الله والذين علىٰ الطريق هم من يسمعون ويأتي إبليس فينزع الكلمة من قلوبهم، الذين علىٰ الصخر هم يقبلون الكلمة بفرح، ولكن تربتهم غير صالحة، وفي وقت التجربة، يرتدون، الساقطون بين الشوك، هم من يسمعون، لكنهم يختنقون من هموم الحياة فلا يثمرون أما البذور التي تسقط علىٰ الأرض الطيبة، فهم من يسمعون الكلمة، فيحفظونها في قلوبهم الصالحة، فتثمر بالصبر).

يشبه قول المسيح ما جاء في القرآن (مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ) في سورة البقرة ﴿الآية ٢٦١﴾

دعي (متىٰ) عيسىٰ والتلاميذ إلىٰ وليمة، وكان قد دعىٰ أيضا بعض الفريسيين، وبعض حواريي يحيىٰ، أما الغالبية فكانت من الفقراء والخاطئين، وراح عيسىٰ يشارك الجميع الطعام والشراب، فوقف الفريسيون بعيدا في كبرياء أن يوصموا بمشاركة الفقراء والخاطئين، نفاقهم أبعدهم إذ يشكك ذلك في تقواهم، بينما نظر حواريو يحيىٰ في إنكار لهذه الوليمة التي لا تتفق مع نسك يحيىٰ وتقشفه، همس الفريسيون لتلاميذ المسيح (لماذا يأكل مرشدكم مع الخاطئين)، ففهم نبي الله عيسىٰ نجواهم فبادرهم (لا يحتاج الأصحاء إلىٰ الطبيب، بل المرضىٰ، فاذهبوا وتعلموا، إني أريد رحمة لا ذبيحة).

فقال له تلاميذ يحيىٰ، (لماذا نصوم كثيرا، بينما تلاميذك لا يصومون) فرد المسيح (هل يصوم بنو العرس والعروس بينهم، ولكن سيأتي يوم حين يرفع العروس عنهم فيصومون)، كان عليه السلام قد أخبر بغيب أنه سيرفع، وأن وجوده بينهم الآن هو العرس الذي يحتفون به، وأضاف، (جاء يحيىٰ لا يأكل الخبز ولا يشرب الخمر، فقالوا عنه أن به شيطانا، وجاء بن الإنسان يأكل ويشرب، فقلتم هذا أكول وشريب)

وبينما هم بالوليمة، دخل بايروس مهرولا للمسيح في فزع، يرجوه ويتوسل إليه قائلا (ابنتي تموت)، فقام المسيح معه من فوره، يتبعه كل من كان بالوليمة، وفي الطريق أبلغ خادم بيروس أن ابنته قد ماتت، وقال له لا تتعب المسيح، فقال له المسيح عليه السلام (لا تخف، وآمن)، وذهب عيسىٰ عليه السلام يعقبه بايروس وبطرس ويعقوب ويوحنا ولما اقترب وجد النساء باكيات نائحات، فقال لهن، (لماذا تبكين، إنها نائمة)، فاستخفت به النساء، ودلف رسول الله عيسىٰ بن مريم إلىٰ حيث ترقد الصبية وأمسك بيدها وقال لها، (قومي بإذن الله)، فقامت من فورها،

وهنا وفي غيرها من المواقف يتبين لهؤلاء المبطلون حقيقة الدعوة للإيمان، الذين يطلبون من أنبياء الله علىٰ مر العصور، أن يأتوهم بمعجزة ودلائل علىٰ الصدق والنبوة وكأنهم إنما جاءوا من الله كي يسعدوهم وقتيا باستعراضات الحواة والسحرة، وتكون هذه المعجزات بالطلب، تماما مثل حفلات الغناء الشهيرة، فإن أنبياء الله لا يأتون بمعجرة

وكرامة حسب الطلب وإنما الله جلت حكمته هو صاحب الامرمن قبل ومن بعد. (وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله، فإذا جاء أمر الله قضىٰ بالحق وخسر هنالك المبطلون) [سورة غافر الآية ٧٨]

١٤- تعاليم المسيح والحكمة منها:

كانت تعاليم المسيح مبنية علىٰ نبذ المادية والإيمان بالروح والروحانيات وكانت كلماته عليه السلام وأخلاقه هي كلمات وأخلاق تخرج من مشكاة واحدة، من رسولا الله عيسىٰ وكذلك محمد عليهما السلام، كان تلاميذه لا يفهمون أمثاله، ولكنه عليه السلام كان يعمل علىٰ أن يفهموه ويفهموا روح رسالته بل الرسالة الإيمانية بوجه عام، فليس الدين نصوصا محفوظة بل وعي وإدراك لما يريده الله من بني البشر، وشعر عيسىٰ بقرب دنو أجله الذي حدده الله له، فهو يعلم من أين أتىٰ، وإلىٰ أين يذهب، كان يعلم أغراض رسالته فلزاما عليه إذن، أن يمهد للرحيل، فجمع تلاميذه وقسمهم اثنين اثنين وأوصاهم قائلا (إلىٰ طريق أمم لا تمضوا، وإلىٰ المدينة للسامريين لاتدخلوا بل اذهبوا بالحري إلىٰ خراف بني إسرائيل الضالة وقولو لهم اقترب ملكوت السماوات) [تثنية (١٨:١٨)] وهنا لنا وقفة، إذ منع تلاميذه من أن يمضوا لبلاد السامريين التي بشر فيها من قبل، فهل كانت كلمة (بالحري) يقصد بها (بالأولىٰ)أم كان يؤثر أن يتصدىٰ للدعوة لغيراليهود بنفسه لعلمه بقصور التلاميذ في هذه المرحلة، أم أن الوقت لن يسعفه فيما بقي من زمن رسالته فأراد أن يبدأوا بمن هم أقرب للهداية والإيمان بالغيب، إلىٰ التربة الصالحة، فقد كان يعلم ما قاله الله إلىٰ موسىٰ إذ قال له الله (سوف أقيم لهم نبيا مثلك، من بني أخوتهم، وأجعل كلامي في فمه*، ذلك الآت من البرية من الديار التي سكنها قيدار) [تكوين (٢٥:١٣)] وكما جاء ببشرىٰ أشعيا (ذاعبدي الذي أعضضه، مختاري الذي سرت به نفسي وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم لا يكل ولا ينكسر، حتىٰ يضع الحق في الأرض وتنتظر الجزائر شريعته) [أشعيا (اصحاح ٤٢)] كان يعلم أن من نسل قيدار سيأتي من يضع الحق والمسيح ليس من نسل قيدار فقد استوطن قيدار- وهو من نسل إسماعيل- مكة في جزيرة العرب وجبال فاران، أما هو فهو من نسل داوود أي من نسل إسحق لهذا فقد كان المسيح عليه السلام محددا في توجيهه إياهم وأضاف كلاما نجد أخلاق النبوةواضحا فيه (لا تقتنوا ذهبا ولا فضة) ثم يضيف كلاما يتشابه مع ما جاء به القرآن الكريم من ضمن ما قاله لهم (لا تدخلوا بيوتا حتىٰ

تستأنسوا وتسلموا علىٰ أهلها [سورة النور الآية ٢٧]، فإن كان البيت مستحقا فليأت سلامكم عليه، وإذا قيل لكم اخرجوا فاخرجوا) [سورة النور الآية ٢٨] وقال كذلك من ضمن ما قال (لا تظنوا أني جئت ألقي سلاما علىٰ الأرض بل سيفا، لأفرق ما بين المرء وأبيه والإبنة وأمها والكنة وحماتها وأعداء الإنسان أهل بيته) (٧٠) تلك الكلمات التي قالها السيد المسيح عليه السلام وكل كلمات المسيح قبلها وبعدها لا ينبغي أن تؤخذ بحرفيتها، بل بالمقصود منها فحينما يقول لا تقتنوا ذهبا ولا فضة فهو لا يحرم ذلك، وإنما يقصد أنه لا ينبغي أن يكون ذلك هو الهدف، فمن يملك أموال الدنياغير عابد للمال فلا جناح عليه، وحينما يقول لاتدخلوا بيوتا حتىٰ تستأنسوا وتسلموا علىٰ أهلها فالمقصود أن لا إكراه في الدين والدعوة إلىٰ الله والأخطر حينما يقول عليه السلام أنه ما جاء لكي يلقي سلاما علىٰ الأرض بل سيفا فالمقصود هنا ليس هو القتل بل حسم الأمور والتفرقة ما بين الحق والباطل وحينما يقول لأفرق بين كذا وكذا فليس المقصود إلا التفرقة بين من هم علىٰ الرحم بل التفرقة ما بين من هم علىٰ الحق ومن هم علىٰ الباطل والتفرقة في الوعي بالحقيقة لا تستوجب التفرقة الإجتماعية ولقد بقيت تلك الكلمات مختلف عليها زمنا طويلاحتىٰ أن المسيح عليه السلام حينما قال إن كانت عينك اليمنىٰ تعثرك فاقتلعها، لم يكن المقصود الإقتلاع المادىٰ لأي عضو في جسدك بل التحكم فيه لكن أتت علىٰ المؤمنين بالمسيحية أن اقتلعوا أعضاءهم البشرية علىٰ مدىٰ قرون تقربا لله كفهم خاطئ لروح الدعوة المسيحية ولم يقصد السيد المسيح ذلك وشوهوا أجسادهم من ظاهر الكلام حبا في المسيح ولكنهم في الحقيقة كانوا يشوهون دعوة الرسالة المسيحية.

تلك هي دائما مأساة المنافقين المتدينيين الإنفعاليين من كل الأديان خاصة إن كانوا من الأغبياء، فينقلب هوسهم إلىٰ عمل ضد ما يدعون إليه.

١٥- حنق الكتبة والفريسون على المسيح:

ذهب التلاميذ للتبشير كما أمرهم المسيح، أما هو فقد توجه إلىٰ أورشليم يوم السبت، وكان عيد البوريم، وهو ليس عيدا دينيا بل عيد دعارة، ولهو وسخرية، لكن من خلف الأبواب المغلقة، أما الفريسيون والصدوقيون، فكانوا يتجسسون في هوس ورياء علىٰ الناس كي يطمئنوا أن كل شيئ قد تم غسله جيدا، غير معترضين علىٰ الخلاعة والدعارة

(٧٠)يقول الله في القرآن (من أزواجكم وولادكم عدو لكم فاحذروهم)

والمجون، ففي التلمود الذي كتبوه بأيديهم (خطيئة الزنا مباحة مادامت تجري في الخفاء)، وهم في هوسهم بالمكتوب ولو كان مخالفا لأي عقل ويكرس الرياء، فأراد الله تعالىٰ أن يوقظ الضمائر، فانطلق المسيح آسفا لما يرىٰ فوجد رجلا مفلوجا علىٰ سريره لا يعالجه أحد أويساعده فاليوم هو يوم السبت الذي استراح فيه الله (ألا ساء ما يحكمون) ولا يحق للمؤمن أن يعمل فيه، فقال له المسيح (قم واحمل سريرك)، وأحس المفلوج بأطرافه قد شفيت، فقام فرحا يحمل سريره، وذهب الصدوقيون إليه فسألوه كيف له أن يحمل سريره مخالفا السبت فأخبرهم بمن شافاه يوم السبت، فانطلقوا في حماس إلىٰ عيسىٰ كي يمسكوا به ويحاكموه بتهمة خرق السبت، فقال لهم رسول الله عيسىٰ بن مريم، أن الله يعمل كل يوم ولا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يؤده حفظ السماوات والأرض ولا يسبت يوم السبت

﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الزخرف ٦٣]، فاتهموه بالكفر وهموا به ليمسكوه فحفظه وعصمه الله منهم وكف بني إسرائيل عنه ❋وقول الله تعالىٰ (وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين) [سورة المائدة الآية ١١٠]

عاد عيسىٰ للجليل ووافاه تلاميذه، وما كانت أنباؤهم مفرحه، بل كانت إقرارا بالفشل والإخفاق، كانوا أتقياء أصفياء، ولكن أعباء الرسالة كانت فوق طاقتهم، علىٰ الرغم من تسهيل العمل عليهم بأن أمرهم بالتوجه إلىٰ اليهود فحسب لضمان إنجاز مهمتهم، فتيقن المسيح من أن الطريق طويل وشاق ومحفوف بالمخاطر والإخفاق، كان مهموما بما رآه في يوم البوريم، فذهب بهم يوما بالمركب من كفر ناحوم ووصل إلىٰ الشاطئ، وإذ بالعامة من الناس يتقاطرون ليستمعوا إليه وهو يعظ، فقال من ضمن ما قال تعقيبا علىٰ ما رآه يوم البوريم: (إن الشيطان يحاول تعطيل الشريعة دائما، هو وحزبه من المرائين والأشرار، ذلك بتعاليم المرائين، وخلاعة الأشرار ومجونهم حتىٰ ضاع الحق)، وظل يعظهم محذرا (لا تطرحوا اللؤلؤ إلىٰ الخنازير فهي لا تصنع من اللؤلؤ شيئا ولا تعطوا الحكمة لمن لا يريدها فهم أشر من الخنازير).

كان المسيح يقصد الكفار بالخنازير، ويقصد المرائين بمن هم أشر من الخنازير، وحينما وقعت عيناه عليه السلام علىٰ الفريسيين والصدوقيين وجه الحديث إليهم قائلا (يا علماء السوء، جعلتم الدنيا علىٰ رءوسكم والآخرة تحت أقدامكم، قولكم شفاء وعملكم

داء، مثل شجرة الدفلىٰ، تعجب من رآها، لكنها تقتل من أكل منها) وأضاف كلمات طالما سمعناها من محمد رسول الله كلاما شبيها له فقد قال لهم المسيح عليه السلام (إن شر الناس عند الله، عالم يطلب الدنيا بعلمه) وصدق رسولا الله عليهما السلام فبساطة الإيمان أصلح من حذلقة العلماء.

يقول الله في كتابه الكريم في سورة التوبة

(ياأيها الذين آمنوا إن كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم) [سورة التوبة الآية رقم ٣٤] والحقيقة تظهر لنا أن رسول الله عيسىٰ بن مريم عليه السلام، يدعو بكلماته الناس إلىٰ الإيمان بالله عز وجل، وكل ما قاله يشعر منه المرء وكأن رسول الله محمدا، إما قد قاله، أو قصده، والفرق، إنما كان لأسباب، إنما تعود إلىٰ قصر زمن الدعوة التي لم تتعد السنوات الثلاث، وطبيعة الذين وجهت إليهم الدعوة.

١٦- المـــائـــدة

استمر المسيح عليه السلام في وعظه، والناس يلقون اليه سمعهم ويقولون (هذا هو نبي الله الآتىٰ إلىٰ الناس)، ونظر الحواريون فاعجبتهم كثرة بني إسرائيل الذين جاءوا يستمعون للمسيح، فأثلج ذلك صدورهم، وشعروا أن تلك الجموع تعوضهم عن إخفاقهم في تبليغ الرسالة، وتذكروا آباءهم الذين خرجوا مع موسىٰ فيطلبون الطعام فيمدهم الله بالمن والسلوىٰ، ولكن أين الطعام، أرادوا أن يمهدوا لأنفسهم بعد مائدة من الطعام طريقا ميسورا للدعوة فلا يخفقوا في المستقبل، فذهبوا للمسيح وقالوا له (ياعيسىٰ، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء) فقال لهم (اتقوا الله، إن كنتم مؤمنين) فقالوا (نريد أن نأكل منها، وتطمئن قلوبنا، ونعلم أن قد صدقتنا، ونكون عليها من الشاهدين)، فاعتزلهم عيسىٰ في أسىٰ وأحس منهم الكفر فقال (اللهم انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا، لأولنا وآخرنا، وآية منك، وارزقنا وأنت خير الرازقين)، فقال لهم الله (إني منزلها عليكم، فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين) فاخبرهم عيسىٰ بذلك وأحس أن المائدة نقمة لا نعمة ولا رحمة.

[الآيات المذكورة هي من سورة المائدة بالقرآن الكريم من آيةرقم ١١١ حتىٰ الآية رقم ١١٥]

قال رسول الله عيسىٰ بن مريم، (كم رغيفا عندكم)، وعاد إليه أندراوس وقال في قنوط (إن صبيا معه خمسة أقراص من شعير، وسمكتان) فقال المسيح (ليتكئ الناس) ولما اتكئوا، تناول رسول الله الأقراص وراح يكسر الخبزو يوزع الأسماك، فباركه الله فأشبع الجميع.

صحيح أن الله أمدهم بمائدة من السماء، ولكن الصحيح أيضا، أن أخلاق التلاميذ وإيمانهم لم يبتعد كثيرا عن أخلاق الإسرائيليين الآخرين وإن كانوا مؤمنين، فطلب المعجزة كما ذكرنا سلفا لا يصح من العباد، فما بالكم إن جاءت من الخلصاء، وكأن رسل الله إنما تقوم بعرض للمعجزات علىٰ خشبة المسرح، ففي طلب المعجزات خروجا عن آداب الإيمان، وهو أمر تعرض له نبي الله ورسوله عيسىٰ بن مريم، تماما كما تعرض له نبي الله ورسوله محمد عليهما السلام، إلا أن الفارق الكبير في أن المعجزات لم تطلب من المؤمنين بمحمد، وإنما من الكفار، أما خلصاء المسيح وتلاميذه، فقد طلبوها فيما يشبه الشرط، وهو ما جعل الله جلت حكمته ألا يجعلها رحمة.

الملحوظ أيضا، أن مثل هذه الوليمة قد أقامها رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام بأمر الله وتوفيقه، عدة مرات كما سنرىٰ عند تناول سيرة قدوة العالمين عليه الصلاة والسلام، ولكن دون طلب من المؤمنين، بل كرحمة من رب العالمين في ظروف القحط والشدائد، فهل كان للمسلمين فيمن سبقوهم عبرة أم أنهم كانوا خير أمة أخرجت للناس.

كانت الدنيا تدور علىٰ محور الشره والطمع والنفاق، وكانت العبرة باضافة قيم عليا روحية جديدة إلىٰ حساب الإنسانية، وليكن شأن الإنسانية بعد ذلك ما تستطيع، أما عن شأن الرسل فهو موكول بما يأمر الله به من تجديد تستطيع الإنسانية أن تستوعبه، كان المسيح يعلم من أين أتىٰ وإلىٰ أين يذهب، وكان يعلم مما علمه الله أن دعوته قصيرة الأمد وليست ممتدة إلىٰ سنوات وسنوات كغيره من الرسل، فلن يبق فيها إلا سنوات ثلاث في هذه الدنيا وهو يدعو لله، فكان الله جل وعلا يمده بخوارق عدة، وفي نفس تلك الليلة وبعد أن أدىٰ المسيح صلاته قام ذاهبا للبحيرة وكان الحواريون في المركب ينتظرونه وسط العواصف والرياح فمشىٰ إليهم عيسىٰ رسول الله علىٰ الماء كي يدركهم يقول لهم (لا تخافوا)، فخاف عليه بطرس أخلص تلاميذه اليه والمعروف باندفاعه قائلا (يا معلم مرني أن آت إليك) قال عيسىٰ (تعال) ولما حاول المشي علىٰ الماء كسيده هوىٰ، فصاح (غرقت

يا نبي الله فنجني) فقال له المسيح (أرني يدك يا قصير الإيمان، لو كان لإبن آدم شعيرة من الإيمان لمشىٰ علىٰ الماء).

وانطلق المركب إلىٰ كفر ناحوم وأدركها في فجر اليوم التالي فتقاطر الناس إليه تداعب نفوسهم الجشعة أمل إطعامهم فقال لهم المسيح (الحق الحق أقول لكم، إنكم تطلبونني لا لأنكم آمنتم بالآيات بل لأنكم أكلتم من الخبز وشبعتم، فاعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي، للحياة الأبدية التىٰ يعطيكم إبن الإنسان) كانوا أغفالا، لا يريدون سوىٰ الخبز، فسألوه (ماذا نفعل حتىٰ نعمل أعمالا ترضي الله) قال (أن تؤمنوا بي) فقالوا (أرنا آية حتىٰ نؤمن بك فآباؤنا أكلوا في البرية) كانت ردودهم مضحكة لنا ربما في هذا الزمان، أما في هذا المجتمع وهذا الزمان فردودهم إنما تعبر عن واقعهم، فقد كان المسيح عليه السلام يقصد من كل كلماته أن يحلق بهم في عالم الروح وهم لا يريدون إلا أن يحصلوا علىٰ الماديات فالمسيح إنما أراد أن يعلمهم أن الروح أفضل من الطعام والإنسان أفضل من السبت وغنيمة النفس أربح من غنيمة البطون والتيجان، فقال لهم (الحق الحق أقول لكم، من يؤمن بي فله الحياة الأبدية أنا هو خبز الحياة، آباؤكم أكلوا المن في البرية وماتوا، أما من يأكل من الخبز النازل من السماء فلا يموت)، كانت معجزة المشي علىٰ الماء ومعجزة المائدة بل وكل ما أتىٰ به عيسىٰ من معجزات لها هدف واحد فحسب، ألا وهو دعوة الناس إلىٰ الإيمان بالروح كسبيل للإيمان بالله وبالرسول عيسىٰ بن مريم، كانوا جهلاء أغفالا وما من حديث يلقىٰ علىٰ من لا يفهمه إلا كان فتنة، فانفضوا من حوله وواجه المسيح محنة أكبر إذ تشكك فيه بعض من تلاميذه وكأن كل المعجزات التي آتاها لهم وأمام أعينهم قد ذهبت هباءا، والملحوظ أن هذه الفتنة تشبه كثيرا فتنة الناس التي حدثت زمن محمد رسول الله بعد الإسراء والمعراج وانطلق تلاميذه صامتين، وضاق عيسىٰ بصمتهم، فأراد أن يسهل عليهم تركه فقال (لعلكم تريدون أن تمضوا) فقال له بطرس أخلص تلاميذه (ياروح الله إلىٰ من نذهب؟عندك كلام الحياة الأبدية، وقد آمنا وعرفنا أنك رسول الله) وتبخر علىٰ الفور الشك من صدور التلاميذ وشاعت فيهم الطمأنينة ورفعوا وجوههم إلىٰ السماء وقالوا (ربنا آمنا بما أنزلت، واتبعنا الرسول، فاكتبنا مع الشاهدين) وهكذا كان بطرس للمسيح بمثابة أبو بكر[٧١] لمحمد.

(٧١)في فتنة الإسراء والمعراج للناس حدث نفس الموقف لمحمد وبدأحتىٰ الذين أسلموا في الشك لولا أبو بكر الصديق.

١٧- التآمر على المسيح عليه السلام للتخلص منه:

(ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) [آل عمران ٥٤]

كان جل هم الفريسيين والصدوقيين وأعضاء السنهدرين هو التخلص من هذا النبي، بالقتل ولم لا، وقد قتلوا قبله من الأنبياء الكثيرين فلن يعجزهم ذلك الذي يكشفهم ويكشف زيفهم أمام الشعب اليهودي وربما أحسوا لوهلة أن لو كانت لديه القوة والصولجان، بمعجزات كافية وخارقة كمعجزات موسىٰ ليخلصهم من ذل سيطرة الرومان الكفار عليهم، وعلىٰ الرغم من كل مساوئ الدولة الرومانية إلا أنها كانت تتسامح مع اختلافات الأديان وكانت الحرية الدينية مكفولة في الدولة الرومانية مادام أصحاب هذه الديانة ملتزمون بدفع الضرائب وكافة القوانين الرومانية، وتلك القوانين هي نفسها التي كانت تتعارض مع الشريعة اليهودية في أمور عدة مثل منع تعدد الزوجات، ومنع رجم الزانية، ودفع الضرائب للعدو المحتل الذي فيه تعضيد للإحتلال، ولهذا كان التخلص من المسيح أمرا مطلوبا ويسير علىٰ عدة محاور:

المحور الأول وهو محاربة انبهار اليهود به، وذلك عن طريق تحديه بالإيحاء للعامة بمطالبته بمعجزات خارقة، كالتي أيد الله بها موسىٰ وسليمان وداوود إثباتا لنبوته، ولم يكن يهمهم كثيرا حديث الطفل في المهد أو خلق الطير أو إحياء بعض الموتىٰ وشفاء بعض المرضىٰ، فلو أراد الإعتراف به فليس أقل من معجزات تغرق الدولة الرومانية كما أغرق موسىٰ الفرعون أوشيئ من هذا النحو الخارق.

والمحور الثاني وهو أنه في حالة نجاحه فسيلتفون حوله كقائد وزعيم قومي أما في حالة عجزه، فليس عليهم إلا إثبات خروجه عن الشريعة، بالحصول منه علىٰ قول أو فعل يناقض الشريعة وذلك بالتأكيد أمر ميسور، فقد أغرقوا المجتمع بكم هائل من المحظورات والمحرمات المفتراة كحقول ألغام محيرة مما يصعب علىٰ أىٰ مصلح عدم الوقوع فيها كما سنرىٰ وكما رأينا.

أما المحور الثالث فكان مبنيا علىٰ الحصول منه بقول أو فعل يحض علىٰ الخروج علىٰ الدولة الرومانية وقوانينها فيسهل عليهم التخلص منه، إذ ستقوم الدولة الرومانية بذلك نيابة عنهم ولا يتم اتهامهم من الجمهور بقتله، كانت أورشليم غارقة في الإنقسام الديني بين مختلف الفرق التي وضعت الأصر والقيود علىٰ بني إسرائيل.

- فشماي وهو عضو السنهدرين يمنع في يوم السبت أىٰ عمل، حتىٰ عيادة المريض، أو الدفاع عن النفس أو حتىٰ الوطن والدين إن تعرض لهجوم العدو
- والشيوخ يحرمون حمل أي شيئ فيه ولو كان إبرة أوطقم أسنان
- بعض الفرق حرمت عملية الإخراج في هذا اليوم (بولا أوبرازا)!!
- أظهرت كل الفرق تقشفا ظاهريا للرياء، وإذا جاع اليهودي، فخير له أن يموت علىٰ أن يطهىٰ طعامه في يوم السبت
- الصدوقيون يحتكرون بيع الحمام في العيد ويضاعفون أيام الأعياد وعددها التي يتم تقديم الحمام فيه الىٰ الله تقربا وزلفىٰ.
- والفريسيون يعملون علىٰ إنقاص هذه الأعياد لبوار تجارة أعدائهم الصدوقيين.

وعلىٰ الرغم من هذا الإنقسام، فقد كانت إرادتهم موحدة علىٰ أمر واحد، إذ كان الجميع يتجسسون علىٰ نبي الله عيسىٰ عليه السلام وفي انتظار لحظة وقوعه في أىٰ محظورللتخلص منه، وفي يوم من أيام السبت عض الجوع الحواريين فهبطوا إلىٰ الحقل وقطعوا القليل من سنابل القمح وفركوها وأكلوها، وسنحت الفرصة للفريسيين كي يوقعوا بعيسىٰ فذهبوا إليه قائلين (إن تلاميذك كسروا السبت)، فرد عليهم نبي الله ورسوله عيسىٰ عليه السلام قائلا (إن داوود حينما جاع دخل بيت الله وأكل خبز التقدمة الذي لا يحل له أكله لأنه للكهنه وحسب)، ثم قال لهم (إن الله جعل السبت للإنسان ولم يجعل الإنسان للسبت والله هو رب السبت ورب الأيام كلها) (١)، توجه عيسىٰ في نفس هذا اليوم السبت للمجمع فتقدم منه عامل بناء وقعت له حادثة فتيبست يده وتوسل للسيد المسيح أن يشفيه، فتوجه نبي الله عيسىٰ للفريسيين وقال لهم (أيحق في السبت فعل الخير أم الشر تخليص نفس أم قتلها) (١) لم يردوا عليه فقال لهم (إن كان لأحد منكم خروفا وسقط في حفرة في يوم السبت ألا ينتشله) وأغرقوا في الصمت فقال (إنقاذ إنسان أفضل من إنقاذ خروف) وقال للبناء (مد يدك) فمدها فشفيت فقال (أعطاكم موسىٰ الختان والختان ليس من موسىٰ بل من الآباء وفي السبت تختنون الأولاد فإذا كان الإنسان يقبل الختان في السبت لئلا ينقض ناموس موسىٰ أفتسخطون علي لأني شفيت إنسانا في السبت) (١) فانقض عليه الفريسون كىٰ يفتكوا به فحفظه وعصمه الله منهم

وهنا وجد الفريسيون أن عليهم أن يضيقوا الخناق علىٰ المسيح وأتباعه فدعوهم إلىٰ وليمة فلما دخل الحواريون لم يغسلوا أيديهم وهموا بالطعام، وهنالك ذكروا ذلك للمسيح في عجرفة وتعال، فما كان من رسول الله عليه السلام إلا أن ذكرهم باستمساكهم بالتفاهات قائلا (وأنتم لماذا تتعدون وصايا الله وتتمسكون بسننكم تقولون لأبناء الفقراء انذروا للهيكل نذورا فينذرون القليل الذي معهم والذي يجب أن ينفقوه في عول آبائهم والله يقول أكرم أباك وأمك (٢) لكنكم حرمتم بسننكم الآباء من بر الأبناء، أيها الكذابون، أيستعمل الله هذه النقود والله يقول علىٰ لسان داوود لا ينال الله لحوم الثيران ولا دماؤها (٣) قال عنكم أشعيا، هذا الشعب يسبح لي بشفتيه وقلوبهم غلف (٤)، يعبدونني بالباطل فتعاليمهم وصايا للناس، اسمعوا وافهموا، ما يدخل فم الإنسان لا ينجسه بل ينجسه ما يخرج من الفم، كل أعمىٰ يقود أعمىٰ ففىٰ الهاوية يتردىٰ (٥))

– (١)يقول الله في سورة النحل ١٢٤ (إنما جعل السبت علىٰ الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) (٢) يقول الله في سورة النساء الآية ٣٦ (وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا) (٣)يقول الله تعالىٰ في سورة الحج الآية ٣٧ (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوىٰ منكم) (٤) يقول الله في سورة البقرة االآية ٨٨ (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ) وفي سرة النساء بالآية ١٥٥ (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا) (٥) (أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ) [سورة محمد ٢٣]

كان المسيح يدعو الناس بالحسنىٰ والموعظة الحسنة، بالرحمة يدعو الناس ويتحاشىٰ إيلام الناس ولكن أعداءة أعلنوا الحرب عليه وأشعلوا نار البغضاء، وكأن التبشير بالغفران والتوبة أكبر ذنوب الداعي الجديد، ذلك لأن الخطايا والعقوبات والتكفير عن الآثام بالذبائح والتبرعات كانت بضاعتهم التىٰ لا تنضب، فهي إذن لعبتهم المربحة ولكنهم جاءوا يسوقونه حيث يريدون إذ كان همهم الأكبر أن يثبتوا عليه أنه يبطل شريعة أو يتصدىٰ لتنفيذ مرحمة فأعنتوا عقولهم في البحث عن ألغاز، يسألونه فيفتي فيها بما يخالف الشريعة أو القوانين الرومانية الوضعية

- برز له واحد ممن دسوه عليه ليسأله عليه السلام (أيها المعلم، مر أخي يقاسمني الميراث) فما بال الرجل يسأله وهو لا يملك القضاء أو المحاسبة فلئن أمر ولم يلتزم أحد بأمره فقد مصداقيته، فما زاد أن قال (أيها الإنسان، من أقامني عليكما قاضيا أو حسيبا) وكان هذا الرد يتضمن نفيا حاسما للألوهية،

- عمدوا وهو في الهيكل أن يضطروه إلىٰ موقف الحكم أو إنكار للشريعة فاقتحموا عليه درسه ودفعوا إليه بإمرأة وصاحوا (أيها المعلم، هذه إمرأة أخذت وهي تزني وقد أوصانا موسىٰ برجم الزانية فماذا تقول أنت)إن قال ارجموها فذلك حق ولاية يدعيه ولم تخوله سلطات الإحتلال الرومانية هذا الحق فتقع الخصومة مع الإحتلال التىٰ عطلت حد رجم الزانية ويتخلص الفريسيون والصديقون منه وإن قال اطلقوها فهو يبطل الشريعة فيرجم من العامة فوقف قائما وردعليهم رياءهم بأن خط علىٰ الأرض (من كان منكم بلاخطيئة فليرجمها بحجر)المسيح هنا لم يغفر الخطيئة ولا تساهل فيها، بل قد أقربأن فساد المجتمع هو الذىٰ يؤدي إلىٰ الخطايا، وأنه لو كان بالمجتمع زمرة صالحة لما زنت المرأة بل ولما كان الإحتلال، ولو زنت لرجمها من كان بلا خطيئة.

- أبصروه يوما وهو يعظ وكان بجواره بعض الجنود الرومان، وكانت فرصتهم السانحة فأرسلوا أحد أعوان هيرودس فسأله (أيجوز أن نعطي جزية لقيصر) وهىٰ الأموال التي تجبيها الحكومة لصالح الدولة الرومانية فإن أقر دفع الضرائب للدولة الرومانية، فهومؤيد للإحتلال، ولا ينبغي اتباعه وإن لم يقر دفع الضرائب فهو معاد للدولة الرومانية ويسهل عليهم التخلص منه دون أن يتهموا بدمه، وكانت العملة المحلية هي الشاقل (الشيكل الآن وكانت من معدن رخيص)، ولكن الدولة الرومانية كانت قد صكت لها عملة ذهبية محفور عليها رأس قيصر، ولشدة حبهم لمصالحهم المادية آثروا الإحتفاظ بالعملة الرومانية لما تحتويه من الذهب رغم ما في ذلك من تثبيت للإحتلال [٧٢] فقال (لماذا تختبرونني أيها المراءون، أروني دينارا) وقال للسائل (انظر للعملة التي في يدك وقل رأس من هذه) فقال (رأس قيصر) فقال المسيح عليه السلام، (أعط ما لقيصر لقيصر وأعط ما لله لله).

(٧٢)شأن العملة الرومانية هو شأن الدولار الآن ويرىٰ الكاتب أن تشجيع العملة الغير محلية تشجيع للنفوذ الأجنبي.

للباطل جنوده، وللحق دعاته، فجنود الباطل، قساة غلاظ القلوب، فجرة لا يرعون حرمة، ولا يقفون في عداوتهم عند حد، وإن لم يحشد الحق قواه للمواجهة فسيزهق دون أن يترك أثرا في قلوب المتشوقين له، وإن كان الله هو رب الحب والرحمة، فهو رب القوة أيضا، قام عيسىٰ وحوله حواريوه وتجمعت الجموع حوله، وجاء جواسيس أورشليم مثقلين بالرياء والدهاء، وقام رسول الله يعلن علىٰ الملأ حقيقة جديدة: (من ليس معي فهو عليٰ)، دهش الناس الذين اعتادوا عليه متشبثا بأهداب السلام، كانت في عينيه قوة، يعلن ضمنا، أنه إما أن ينتصر للحق أو يهلك دونه، قال في هدوء (اجعلوا الشجرة طيبة وثمارها طيبة، واجعلوا الشجرة خبيثة ثمارها خبيثة لأن من الثمرة تعرف الشجرة) (٢)ثم وجه كلامه للجواسيس قائلا (يا أولاد الأفاعي، كيف تتكلمون بالصالحات وأنتم فجره، فمن فضلة القلب يتكلم الفم، الصالح يخرج الصالحات من الكنز الصالح في القلب والطالح يخرج الشر من الكنز الخبيث اقول لكم إن كل كلمة خبيثة ينطق بها المرء يحاسب عليها يوم الدين) (٣)انفعلت الجموع فصوت المسيح ذكرهم بصوت يحيىٰ، وخاصة تعبير (يا أولاد الأفاعي) الذي اعتاد يحيىٰ أن يطلقه عليهم، وفطن الفريسيون إلىٰ ذلك فارادوا أن يطفئوا جذوة الإيمان بالتشكيك، فقالوا: نريد أن نرىٰ آية منك وساد المكان الترقب والإنتظار فحتىٰ الجموع المرحبة بالمسيح والتي تراه نبيا صادقا أرادت أن ترىٰ آية وما دار بخلدها أن ما كان لنبي ولا رسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فرنا عيسىٰ الىٰ الجموع الغارقة في الجهالة رنوة غضب وقال، (جيل شرير وفاسق يطلب آية ولا تعطىٰ لة)، وتغيرت القلوب وهكذا استطاع الفريسيون أن يفضوا الناس من حوله، وبقي عيسىٰ وحيدا ومن حوله تلاميذة، فاقترب منه فريسي كي يكمل ما بدأوه، فلئن انفض الناس من حوله، فليس أمامهم إلا إثبات عدم التزامه بالشريعة، فدعاه وحده دون تلاميذه للغذاء ولما دلف إلىٰ المكان وجد الوجوه التي تريد الإيقاع به فجلس دون أن يغسل يديه تحديا ومتعمدا وارتسمت ابتسامات التشفي علىٰ الشفاة فقد نالوا مبتغاهم بسهولة وقالوا (لم تغسل يديك قبل الأكل) فرد عليهم رسول الله عيسىٰ بن مريم بهجوم مباغت يكشف زيفهم قائلا (أنتم أيها الفريسيون تطهرون خارج القصعة والكأس أما بواطنكم فمملوءة شرورا وخبثا، يا أغبياء من صنع الظاهر صنع الباطن ويل لكم أيها الفريسيون يا من تعشرون النعنع وتتجوزون عن محبة الرب والحق يا من تحبون الصدارة في المجامع والتحيات في الأسواق) فقال واحد من الناموسيون (أنت تشتمنا نحن أيضا بهذا القول) فراح عيسىٰ يكيل للناموسيين المتزمتين

أيضا (ويل لكم أيها الناموسيون، تضعون علىٰ عواتق الناس أحمالا لا تحملوها (٤) وتبنون قبور الأنبياء وآباؤكم قتلوهم وكأنكم ترضون بما عمل آباءكم ليقع علىٰ هذا الجيل دم جميع الأنبياء أخذتم مفتاح المعرفة فما دخلتم ولا تركتم غيركم يدخلون) ففاض غضبهم، وقاموا ليبطشوا به

*يشبه هذا الموقف ماجاء في سورة التوبة شبيه بما جاء في القرآن من سورة إبراهيم ٢١-٢٣ (كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها في كل حين بإذن ربها وكلمة خبيثة كشجرة خبيثه اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار) تتطابق معاني الكلمات مع النص القرآني من سورة النور ١٥ (إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ) سورة الصف ٢ (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ)

ولكن الله عصمه وخرج لتلاميذه ولم يركن عيسىٰ إلىٰ الراحة بل عاد إلىٰ السفينة ليتوجه إلىٰ كفر ناحوم واقتربت السفينة من الشاطئ وإذ بالصدوقيين والفريسيين في كفر ناحوم، يتناسون ما بينهما من عداء ويلتفتون للعدو المشترك عيسىٰ بن مريم وما أن بدأ يعظ الناس حتىٰ صرخ الفريسيون في وجهه (لن نصدقك حتىٰ تأتينا بآية من السماء) فعاد المسيح إلىٰ السفينة مطرق الرأس حزينا لإعراض الناس عنه وانطلقت السفينة إلىٰ بيت صيدا وفي الطريق سأل عيسىٰ الحواريين (أيعرف الناس من أنا) فردوا عليه (يقولون أنك إيليا وآخرون يقولون أنك يحيىٰ أو نبي من الأنبياء) فقال لهم، (وأنتم ماذا تقولونِ) فقال بطرس باندفاعه الصادق المعهود (أنت المسيح) فقال لهم (لا تذكروا ذلك لأحد) وانطلقوا حتىٰ بلغوا مرتقا عاليا وتوقف التلاميذ ولكن المسيح استمر في رقيه ووقف بعيدا يدعوا الله قانتا آناء الليل ساجدا وقائما، ونام الحواريون إلا أنهم هبوا من سباتهم واستيقظوا علىٰ ضوء باهر يسقط علىٰ عيسىٰ فأخذتهم رجفة وخروا علىٰ وجوههم صعقين وغشىٰ عليهم حتىٰ أتاهم عيسىٰ وراح يطمئنهم قائلا (لا تذكروا لأحد شيئا مما رأيتم) وتحقق لهم الليله أنه المسيح المنتظر، وفي يوم سبت جلس رجل أعمىٰ أمام الهيكل ورآه عيسىٰ فتقدم إليه وتفل علىٰ الأرض وجعل من التفل والتراب طينا طلىٰ به عيون الأعمىٰ وقال له (اذهب واغتسل في بركة سلوام)*و انقسم الناس بين مصدق ومكذب والرجل يقص عليهم كيف أبصر وبعد برهة توجه إليه عيسىٰ ودعاه للإيمان وقال له (أتيت ليبصر الذين لا يبصرون ويعمىٰ الذين يبصرون) كانت كلمات المسيح مجازية، ولكن من كان يفهم، فقال له

الفريسيون الذين يسترقون السمع (لعلنا نحن أيضا عميان) فقال لهم (لا تثريب علىٰ الذي ولد أعمىٰ ولكن اللوم علىٰ من أعمته الخطيئة)، فكر المسيح في أن يغادر أورشليم فعداوة الفريسيين والصدوقيين والكتبة مريرة ولكنه رأىٰ أن يعود مرة أخرىٰ للهيكل فكان في إصراره كإصرار محمد صلىٰ الله عليه وسلم في دعوة أهل مكة وكانوا لا يستحقون، وذهب إلىٰ الهيكل وقال (من لا يدخل من باب حظيرة الخراف وأتاها من مكان آخر فهو سارق أما من يأتىٰ من الباب فهو راعي الخراف يفتح له بواب الباب الأبواب وتسمع الخراف صوته فإذا دعا خرافه خرجت له فيمشي أمامها وهي خلفه أما الغريب فلا تتبعه، الحق أقول لكم إني أنا باب الخراف أنا الراعي الصالح أعرف خاصتي وخاصتي تعرفني، كما أن الآب[٧٣] يعرفني، وأنا أعرف الآب) وانفض الناس من حوله وإذا به قائم وحده في الهيكل وخرج مطرق الرأس حزينا وغادر اسوار المدينة ونظر خلفه وهو يقول (يا أورشليم يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولكنهم أبوا وأعرضوا، هاهو ذا بيتك يترك للخراب).وقال لأحد تلاميذه (أترىٰ أبنية الهيكل العظيمة، ستنقض، ولن يبق حجر علىٰ حجر)وانحدر من الجبل يدثره حزن فقد أعرضت الآب وليس الأب والآب بمعنىٰ الرب وكان (أوريجين) ORIGEUNS هو من دس في فكر الكنيسة (الأبوة والبنوة الإلهية) وهو راهب مصري عاش في القرن الثاني الميلادي وكان خصيا ومتأثر بالديانات الفرعونية وقد عمد هو وآخرون علىٰ هذا الخلل عنه أورشليم وصمت آذانها عن دعوته وناصبته العداء وبدأ يهوذا في التساؤل والغضب حزنا عما ينبئ به عن الهيكل وبكىٰ المسيح إذ تغلبت عليه طبيعته البشرية وتذكر أنهم كفروا به في الناصرة، وحتىٰ في الجليل والسامرة، فسار علىٰ شاطئ بحيرة جنيسارت ولمحه الناس فهرع اليه حواريوه ه والتف الناس من حوله فقال لهم ينعي لهم نفسه (كان لامرئ شجرة تين، أتىٰ يلتمس ثمرها فلم يجد لها ثمرا فقال للكرام: أتيت ثلاث سنين ألتمس من هذه التينة ثمرا فلم أجد عندها ثمرا، اقطعها، قال له الكرام: يا سيد دعها هذه السنة أيضا حتىٰ أصلح لها الأرض وأضع حولها زبلاً فإن أثمرت أبقيت عليها وإلا فاقطعها)

ولم يفهموا بالطبع أنه قد بقي فيهم ثلاث سنوات يحاول هدايتهم وأن وقته قد انتهىٰ، وأن ليس أمامه إلا أن يحاول إصلاح الأرض ويضع حولها مخصبات

(٧٣)وتفل نبي الله عيسىٰ إن كان قد أبصر الأعمىٰ فقد عالج رسول الله محمد علي رضي الله عنه بتفله كما في الجزء الثالث أثناء فتح خيبر.

للإيمان تمهيدا لمن يكمل الرسالة من بعده، فبعث تلاميذه مرة أخرىٰ إلىٰ بني إسرائيل مبشرين باقتراب ملكوت الله فعين سبعين من أنصاره، وخرجوا اثنين اثنين يبشرون بإقتراب ملكوت السماوات وعلم أن اليعازر مريض مرض الموت، فشاء أن يذهب لأورشليم مرة أخرىٰ، وكان (أليعازر) واحدا من أنصاره وما أن دخل الدار حتىٰ هرعت إليه مرثا ومريم المجدلية أختا اليعازر تقولان له (لوكنت هاهنا لما مات أخي) وكان قد مات منذ أربعة أيام فقال لها في هدوء (سيقوم أخوك، أين وضعتموه) فقالتا تعال وانظر عند القبر، فرنا إلىٰ القبر مدة وكان عليه حجر فقال (ارفعوا الحجر)، ورفعوا الحجر فقال (إلهي لك الشكر علىٰ ما منحتنىٰ، أبتهل إليك أن تستجيب دعائي ليؤمنوا بي)، وصرخ صرخة عظيمة (هلم أخرج) وإذ باليعازر يخرج من القبر صحيحا بكفنه وسط ذهول المعزين في وفاته وأعلن المؤمنون إيمانهم به، وذهب الذين كفروا إلىٰ الفريسيين والصدوقيين يخبرونهم فاتهموه بالسحروذهبوا إلىٰ قيافا، فأعلن قيافا رئيس الكهنة أنه (خير لنا أن يموت واحد، من ان تهلك الأمة كلها) وأحل دمه، وعلم رسول الله عيسىٰ بما بيته له الفريسيون، فبحثوا عنه ولم يجدوه وأصدروا أمرا بتحريض من يعرف مكانه أن يرشد إليه، وبدأت قوافل الحجاج تفد إلىٰ أورشليم من اليهود في العالم، واقترب العيد فذهب المسيح إلىٰ بيت اليعاذر وراحت مرثا تعد الوليمة للزائر العظيم أما مريم المجدلية فاهتمت بغذاء الروح، وراحت تسكب علىٰ رجلي المسيح قارورة من العطر باهظ الثمن وتمسحها بشعرها والتفت الحواريون إلىٰ مريم وفي عيونهم الإنكار، فما كان لامرأة أن تفعل هذا مع رجل غريب، كما أن في إهراق الطيب النادر تبذيرا يحتاج ثمنه الفقراء، فقال يهوذا: لوبعنا هذا الطيب، لحصلنا علىٰ ثلاثمائة دينار فأنفقناها علىٰ الفقراء.فقال المسيح: (دعوها لا تتعبوها لقد أحسنت إلي والفقراء معكم في كل حين أما أنا فلست معكم في كل حين).

والحقبقة أن قد يرىٰ أصحاب العقول أن الحق هو ما جاء به يهوذا، من ناحية المنطق الخالص، ولكن المسيح ومنذ البداية، يعمل علىٰ إعلاء الروح والوجدان علىٰ المنطق والمادة والعقل والحقيقة أيضا، أن لم يفهم أي من التلاميذ، أن العقيدة مسألة فكر وضمير ووجدان، فالرياء هو الكفر علىٰ أسوأ صورة عليه طلاء من شكليات التدين.

١٨- يهوذا الإسخريوطي

كان يهوذا هو خازن الجماعة المؤمنة مع رسول الله عيسىٰ بن مريم ينفق ما يتبرع به اليهود علىٰ أوجه الخير التي يراها معلمهم، كان رجلا يقارب عيسىٰ بن مريم في العمر، طويل القامة مثله تماما، ناحل الجسم، مرسل الشعر بتجعيدة خفيفة، به انحناءة خفيفة كانحناءة المسيح، لكنه أسود العينين (علىٰ خلاف المسيح) وتغطي وجهه لحية سوداء، حتىٰ ملابسه كانت أقرب إلىٰ ما يرتديه المسيح، فقد كانت الملابس التي اعتاد ارتداؤها باقي التلاميذ متشابهه بحكم وحدة بيئتهم الجليلية ومهنتهم كصيادين أما هو فلم يكن كذلك شأنه كشأن عيسىٰ عليه السلام، كل من يراه من بعيد أو في الظلام يحسبه عيسىٰ إلا من خبرهما بحكم طول المعشرة أو من قريب وفي ضوء كاف، كان الوحيد من التلاميذ الذين لا ينتمون إلىٰ الجليل بل كان من يهوذا، التىٰ تسخر من الجليليين ولا ترىٰ شيئ نافع يأتىٰ منها وكان هو خازن الجماعة سلمه الحواريون كل متاعهم وما يملكون وما يأتيهم من ترحالهم، عقله يعمل أكثر من وجدانه كعادة اليهود، وكان الغضب قد استولىٰ علىٰ يهوذا، واستبد به، وجئ بالطعام وغضب يهوذا يأكل عقله ويأكله، وصار يسأل نفسه عمن يكون هذا الرجل، وتزاحمت الأفكار في رأسه، يسترجع كل ما رآه من ذلك الرجل، وبدأ الشك يعذبه، فيسأل نفسه من هو ؟ كيف له أن يرض بلمس امرأة له -قد كانت عاهرة-.وكيف له هذا التبذير والفقراء في مسيس الحاجة، أجاء لسعادتنا ليخلصنا من الحيرة أم من أجل أن يضني أرواحنا، ويلقىٰ بذور الشك في نفوسنا، وإن كان هو المسيح، فأين الملك والصولجان، إنه يلقي المواعظ والأمثال والجموع تحتشد من حوله زمرا ثم لا شيئ سوء الإنصراف بعدها، سألوه عن الجزية فأقر إعطاء مالقيصر لقيصر، فمتىٰ يناوئ السلطان ويقيم ملك إسرائيل ومجدها من النيل إلىٰ الفرات، إنه لا يقسو إلا علىٰ الفريسيين والصدوقيين والكتبة وكل الفرق اليهودية ويجالس الخاطئين، يقول أنه ما جاء لينقض بل ليكمل، ثم يخرق السبت ولا يأت بالمجد والأدهىٰ حينما يتوعد الهيكل المقدس بالدمار والخراب، وهو ما بقي من آمال بني إسرائيل في الغد، أيكون المسيح الدجال الذي نهينا من اتباعه، وتردىٰ في حيرته لا يدرىٰ من أمره شيئ، ويعجز عن حزم أمره.

(وإذ قال الله يا عيسىٰ، إني متوفيك، ورافعك إلي، ومطهرك من الذين كفروا، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلىٰ يوم القيامة، ثم إلىٰ مرجعكم، فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) صدق الله العظيم

أوحىٰ الله إلىٰ المسيح أن أيامه علىٰ الأرض قد قاربت علىٰ الانقضاء، فدثره حزن عميق، فلم يؤمن به الناس ولم يصدقوه بعد، ولسوف يترك الناس للحواريين الذين لم يفهموا كل ماقاله لهم، فكيف يدعون الناس من بعده ؟، كان أدرىٰ بهم من أنفسهم، سيدب بينهم الشقاق ويحل الخصام وتضيع بينهم تعاليمه، فقد كانت مدة رسالته قصيرة،

١٩- العشاء الأخير (المسيح ينعي نفسه للحواريين)

في يوم الفصح، جلس المسيح مع حوارييه، وقال لبطرس ويوحنا (اذهبا وأعدا لنا الفصح) فقاما ليعداه ولما رجعا، بعدما ذبحا الذبائح وذهب عيسىٰ عليه السلام والحواريون إلىٰ المدينة المقدسة ودلفوا إلىٰ موائد الفصح وذهبوا يجلسون، فإذا بالحواريين يحاول كل منهم أن يجلس إلىٰ جوار المسيح، وارتفعت بينهم المشادات فزاد ذلك من حزنه وتأكد لديه صدق حدسه فقال لهم (اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أمضي) فرانهم الصمت ثم تناول كأسا وقال (خذوا هذه واقتسموها بينكم، لأني أقول لكم اني لا أشرب من نتاج هذه الكرمة حتىٰ يأت ملكوت السماوات) وكعادتهم لم يفهموا أو يفطنوا أنه ينعىٰ نفسه إليهم، لما فرغوا من الطعام قام عليه السلام يغسل أيديهم واحتج بطرس رافضا إلا أن المسيح عليه السلام أصر، ولما فرغ قال لهم قولا مباشرا يفهموه، إذ قال (أما ما صنعت بكم الليلة مما خدمتكم علىٰ الطعام، وغسلت أيديكم بيدي، فليكن لكم بي أسوة، فإنكم ترون أني خيركم فلا يتعاظم بعضكم علىٰ بعض وليبذل بعضكم لبعض نفسه كما بذلت نفسىٰ لكم، الحق الحق أقول لكم:أنه ليس عبد أعظم من سيده ولا رسول أعظم من مرسله وإن الذي يقبل من أرسله يقبلنىٰ والذي يقبلنىٰ يقبل من أرسلني) وصمت قليلا وقال (أنتم الذين ثبتم معي، ستكونون معي في ملكوت الله تأكلون وتشربون علىٰ مائدتي وتجلسون علىٰ كراسي تدينون أسباط إسرائيل الإثني عشر)، وشمل الوعد يهوذا، فاطمأن إلىٰ أفكاره وحزم أمره، فها هو ذا المسيح يضمن له الجنة ويعده بكرسي يدين أسباط بني إسرائيل فلو كان المسيح فسيخلص نفسه ولولم يكن كذلك، فما هو مقدم

عليه جائز طالما ضمن له المسيح الجنة، استأذن يهوذا من رسول الله عيسىٰ بن مريم في أن يذهب لقضاء حاجة له، فقال له عيسىٰ عليه السلام: (ما أنت مقدم عليه فافعله سريعا)

خرج يهوذا وانطلق للمعبد، وهو يشعر في أعماقه أن المسيح يبارك خطواته، وفي مساء ذلك اليوم وفي طرقات أورشليم انطلق رجل طويل القامة، ناحل الجسم، في طريقه إلىٰ بيت قيافا، إنه يهوذا الإسخريوطي الذي كان يحسب أنه يثأر لدين الله.واستأذن في الدخول، فأذنوا له، وجاء رؤساء الكهنة، وتحلقوا حوله، وراح يهوذا يتحدث وهم يصغون إليه وفي وجوههم دهشة وحيرة، لا يدرون أيصدقوه أم يتعاملوا معه في حذر، ها قد جاء يهوذا اليهودىٰ الحواري، يعرض عليهم أن يسلمهم سيده الذي أعياهم، والذي آمن به وأحبه وظلم بهذا نفسه ولكنها إرادة الله، فالله بالغ أمره، قد جعل الله لكل شيئ قدرا،

٢٠- التبشير بالفراقليط (الباراكليتوس) الآخر ونفي الألوهية

في هذا اليوم كان الحزن مخيم علىٰ التلاميذ إذ شعروا أن المسيح ينعي لهم نفسه فقال له توما: (يا سيد لا نعلم أين تذهب، فكيف نعرف الطريق) فقال عليه السلام: (أنا هو الطريق والحق والحياة لا يأت أحد إلىٰ الله إلا بي، لو عرفتموني لعرفتم الله أيضا)، وأنهىٰ المسيح تعاليمه في تلك الليلة بالتبشير بالفراقليط وسأله فيليبس: يا سيد أرنا الله وكفانا، فقال له المسيح: (الكلام الذي أكلمكم به لست أتكلم به من نفسي ولكن الله يوحيه إلي، إني ذاهب إلىٰ الله، فإن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الله أن يعطيكم فراقليط آخر والكلام الذي تسمعون ليس كلامي بل كلام الله الذي يوحيه إلي وأما الفراقليط الآخر الذي سيرسله الله فهو سيعلمكم كل شيئ وسيذكركم بكل ما قلت أقول لكم إني ذاهب إلىٰ الله وٍأعود إليكم، ولوكنتم تحبونني لفرحتم لأني ذاهب إلي الله وهو أعظم مني)، انزعج بطرس وصاح (يا معلم أنا مستعد أن أمضي معك حتىٰ الموت)، فقال له المسيح وقد أخبر الله بما سيحدث: (يا بطرس، لا يصيح الديكة اليوم قبل أن تنكر ثلاث مرات أنك تعرفني)، وحدث هرج في المكان، و اختلفوا حتىٰ في لحظاته الأخيرة معهم، فقال المسيح (قوموا ننطلق من ههنا)، وجلسوا علىٰ سفح الجبل، فجلس يوصيهم بالمحبة، وحذرهم قائلا:

(اذكروا الكلام الذي قلت لكم، ليس عبد أفضل من سيده، إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدوكم وإن كانوا قد حفظوا كلامي فسيحفظون كلامكم لو ما كنت قد جئت ودعوتهم إلىٰ الله ما كانت لهم خطيئة أما الآن فقد رأوا آيات الله وكفروا فلا عذر لهم[٧٤]، الذىٰ يبغضني يبغض الله، لو لم أكن قد أتيت لهم بآيات من الله ما كانت لهم خطيئة، أما الان فقد رأوا آيات الله وكفروا بالله ورسوله، بعد قليل لا تبصرونني لأني ذاهب إلىٰ الله، ومتىٰ جاء (الفراقليط) الذي سيرسله الله، روح الحق الذي هو عبده فهو يشهد لي، وتشهدون أنتم أيضا، لأنكم معي منذالإبتداء، أما الآن فأنا ماض، ولا يسألني أحد إلىٰ أين تمضي، قلت لكم هذا والآن ملأ الحزن قلوبكم ولكنه خير لكم أن أمضي لأني إن لم أنطلق لا يأتيكم الفراقليط، وهو سيرشدكم إلىٰ جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمعه يتكلم به).

فصمت المسيح برهة ثم أضاف مكررا وموضحا، (بعدقليل لا تبصرونني ثم بعد قليل أيضا ترونني، لأني ذاهب إلىٰ الله)، لم يفهم أحد لكن المسيح عليه السلام أوضح لهم قائلا: (الحق الحق أقول لكم ستبكون وتنوحون والعالم يفرح، ثم إنكم أنتم ستفرحون ويتحول حزنكم إلىٰ فرح) رفع عيسىٰ عينيه إلىٰ السماء وقال:

(يارب، قد أتت الساعة، كتب علي أن أشرب من الكأس، فلتكن مشيئتك، يا رب هذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك وأنا المسيح الذي أرسلته)، (الان علموا أن كل ما أعطيتني هو من عندك، لأن الكلام الذي أعطيتني قد أعطيتهم، وهم قبلوا وعلموا أني خرجت من عندك، وأنك أنت الذي أرسلتني، يا رب لم يعرفك العالم أما أنا فقد عرفتك، وهؤلاء عرفوا أنك أرسلتني) ، ولف الحزن التلاميذ وسار المسيح صوب وادي قدرون، ثم قال (أنا قد غلبت العالم)، وقال (كلكم تشكون في هذه الليله)، مرة أخرىٰ

(٧٤)يقول الله تعالىٰ في القرآن في سورة الإسراء بالآية ١٥ (وما كنا معذبين حتىٰ نبعث رسولا)- ويقول عز من قائل في سورة النساء بالآية رقم ١٦٥ (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس علىٰ الله حجة بعد الرسل، وكان الله عزيزا حكيمـًا).

جاءت كلمات الله حاسمة في هذا الأمر في سورة الصف بالآية ٦ (وإذ قال عيسىٰ بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين)

(إذ قال الله يا عيسىٰ إني متوفيك ورافعك إلىٰ ومطهرك من الذين كفروا، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلىٰ يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) [البقرة ٥٥]

لم يفهموا معنىٰ (تشكون في هذه الليله)، ولكن القرون التالية ستثبت ما قاله الله في القرآن الكريم (وأنهم لفي شك منه).

(وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَىٰ ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا) [النساء ١٥٧]

(كلكم تشكون في هذه الليلة)، (وأنهم لفي شك منه)، ليس علىٰ أي صاحب لبِ أن يدرك أن كلمات الإنجيل وآيات القرآن يخرجان من مشكاة واحدة، كما قال النجاشي.

*في حقيقة الأمر فكل كلام المسيح عليه السلام منذ بدأ دعوته تؤكد ما ذكره هذه الليلة، فهو عبد الله ورسوله وليس إلاها، ولا ينطق إلا بما أوحىٰ به الله له، وكل المعجزات إنما هي من الله. (إرجع إلىٰ صفحة ٨٥)معجزات المسيح في نايين، والواضح أن كلمة الفراقليط (الباراكليتوس) ليست اسما لنبي آت بعده، بل صفة له، وهذا النص هو من إنجيل يوحنا (الباراكليتوس) وهي لفظة يونانية كما نصت عليه وربما التبس عليهم لفظ باراكيتوس بدلا من باراكليتوس في النصوص المترجمة لليونانية وتعني فراقريط (باراكيتوس) كما ترجمتها جمعية التوراة الأمريكية بالمعزي أما فراقليط (الباراكليتوس) فيترجمها الدارسون المعاصرون من المسيحيين بالمحمود أكثر من غيره وهي شرح لفظي لكلمة أحمد، والأسم عند الله هو كما قلنا وصف للشخص علما بأن ما جاء في الإصحاح السابع من سفر أشعيا عن مولد المسيح (يعطيكم الله آية، ها العذراء تحمل وتلد إبنا وتدعو اسمه عمانويل) وقد أسموه عيسىٰ أويشوع أما عمانوئيل فمعناه من مع الله.

الفصل الخامس

(بنوة المسيح ونبوته)

مقدمة

في حياة البشر أعلام، وصحيح أننا لن نبحث في أعلام الاقتصاد أو الفن بأشكاله، ولكننا سنبحث في الأعلام الذين يقودون البشرية ويؤثرون عليها، فجميعهم وبلا استثناء يقومون بما يسره الله لهم من ملكات، أما فيما يتعلق بالأمور الدنيوية، فهم يعلمون تماما أن قيمتهم محصورة فيما يبرعون فيه، ولا مجال لهم في مزاحمة الأنبياء والرسل في فيما هم موكولون به.

يتولىٰ القائد الميداني القيادة ليُخرج من يقود من حال إلىٰ حال، من نصر إلىٰ نصر آخر، أو من نصر إلىٰ هزيمة، أو من هزيمة إلىٰ هزيمة أفدح، فأي هزيمة مهما صغرت تأتي بعد هزيمة ما، إلا وهي الأفدح. تكون للقائد في الغالب أولوياته، ويصدر قرارات في أغلبها حاسمة صائبة أو فادحة، لا يمكنه شرحها ولا ينبغي عليه ذلك أثناء المعارك.

في حالات الصواب - إن كانت الهزيمة قد سبقت قرار القائد - فالشك وعدم الرضا والبلبلة لا بد وأن يكون موجوداً، قيمة القائد تتحدد في النهاية بقيمة النتيجة النهائية التي حققها، فتقل قيمته إن حقق نصراً أقل من النصر الذي كان عليه، وتنعدم قيمتة إن حول النصر الذي كان عليه إلىٰ هزيمة أيا كان قدرها، ويعظم قدره إن حول الهزيمة إلىٰ نصر وإن تضاءل، وتتدله الجماهير في عشقه إن كان النصر مؤزراً وحاسماً.

يقبع العالم في معمله يجري التجارب بالمنهج التجريبي حتىٰ تقوده التجارب التي يقوم بها وبالاسلوب العلمي البحت، فيتناول الجزئيات الواقعية المادية المحسوسة والملاحظة والتجربة والتقدير الكمي والقياس ونتائج المشاهدة فيصل إلىٰ المشكلة ويجد الحل، فيخرج علىٰ العالم بنتاج البحث مؤيدا بالعلم التجريبي، فيفلح من يفهم ويطبق، فيعظم قدرالعالم بقدر ما حققة، ويعظم قدر من فهم بقدر ما يطبق.

ويتحدث المفكر والفيلسوف فيكون فكره وتكون أحكامه في صياغة نهائية في غالب الأمر، فتخرج فلسفاته إلىٰ ملأ - في بيئة تعيش حالة من التساؤل - لعامة تبحث عن إجابات وحلول، ومن عمق التساؤل وشدته يبرز الخلل في الفهم أوعدمه، فالملأ في العادة، يريد حلا سهلا وفورياً، والملأ لا يجد في مكنونه العقلىٰ فضل فكر أو فهم أو تحليل لما يتساءل عنه، وقيمة المفكر والفيلسوف تتحدد في البداية - وليس في النهاية - لدىٰ العامة، بمدىٰ وضوح الفكر المطروح وبساطته ونتائج الحلول الناجعة التىٰ يأتي بها، فإن صادفت فلسفته

وصادف فكره هوىٰ في نفس العامة، هوت إليه الأفئدة، وإن كان التكليف عليهم شاقا، أو كان فهم العامة للفكرعسيراً، نُبذ الفكر وإن كان ذا قيمة، القائد العسكري هو إنسان يتعامل مع مُعِدّة وإنسان (جندي) مثله، فإن انصاعت المعدة تظل أزمته مع الجندي، والجندي مأمور من قائده، وغالب من يقود القائد هم الجنود فالأمر العسكري إن لم يكن مفهوما لديهم، فهو واجب النفاذ.

والعالم في المعمل ينصاع له الجماد من أدواته ومواد إن هو أحسن الاستخدام، وليس للجماد إلا الانصياع.

المفكر والفيلسوف هو انسان يقود إنسان، وهو يفكر للفلاسفة والمفكرين وفي الأساس للفرد ومن أجله، فبإمكانه الاختيار بالقبول أوالرفض، وهنا تكمن معضلة المفكر والفيلسوف، فابن رشد قد رفضه عامة المسلمين فاتهموه إذ لم يفهموه، فخسروا، ولم يفهموه فاتهموه، أما من احترمه ففهمه، أومن فهمه فاحترمه، فقد ربح النبي الذي هو ليس بقائد ولا هو بالعالم التجريبي أو بالمفكر والفيلسوف، فهو أعظم وأكبر من كل هؤلاء، ومهمته أشد عسراً، وأكثر تكليفا، والأفدح أن ليس معه كتاب ولا رسالة من الله إلا ما قد سلف مما أتىٰ مع من سبقه من رسول نبي، فليست جهوده إلا في التنبؤ والتفسير والدعوة، أما الرسول فهو يحمل رسالة من الله، ووظيفته تبليغ الرسالة مهما عظم التكليف الكامن في هذه الرسالة، وبناء عليه يجب أن يتحدث مع الناس علىٰ قدر عقولهم، يعلم ما قد وصلوا إليه ويكمل، تصحيحا لعقيدة أو تعديلا لنص

١- بين البنوة وعقيدة التثليث:

نزل عيسىٰ عليه السلام علىٰ بني إسرائيل، فكان يكمل ولاينقض، يمتثل بالتوراة في كل أقواله، والرسول كما قلنا يحمل رسالة من الله، ووظيفته تبليغ الرسالة مهما عظم التكليف الكامن في هذه الرسالة، وبناء عليه يجب أن يتحدث مع الناس علىٰ قدر عقولهم يعلم ما قد وصلوا إليه ويكمل، تصحيحا لعقيدة أو تعديلا لنص، فيقتبس نبي الله عيسىٰ من مزامير داوود قوله من أن الله تعالىٰ يقول لأنبيائه في مزامير داوود: إنكم كلكم أبناء العلي، ولكنكم لا تُخّلدون، بل يحق عليكم الموت كالناس والسقوط كالرؤساء، إن هي إلا عصمة الله واصطفاءه.وفي مزامير داوود عليه السلام أيضا: أنا قلت أنكم آلهة، وفي قول آخر

لمزامير داوود عما قاله له الله: قال لي أنت إبني، أنا اليوم ولدتك، اسألني أعطيك الأمم ميراثـًا لك.

تلك هي مزامير داوود كما نصت عليه - ولا تزال - نصوص الزابور، وصحيح أن القارئ المسلم يعجب لما يقرأ، إلا أن اليهود في زمن داوود وسليمان ومن قبلهم موسىٰ عليهم السلام أجمعين وكان الأنبياء والرسل بين ظهرانيهم، يوضحون لهم أن تلك الأبوة المذكورة لا تعني أبوة بيولوجية أو أبوة تماثل ما عرفوه في الأسر من أبوة وبنوة، وإنما كان المفهوم والمراد أبوة روحية، وبنوة روحية، يتشارك المؤمنون فيها مع الأنبياء والرسل، فهم أبناء الله وأحباؤه وعبيده.

ولسنا علىٰ علم بمقدار التحريف الذي يكون قد طال مزامير داوود، إلا أننا في هذا السياق نتفهم الآيات والمقصود منها، ولقد استشهد الله جل وعلا بما هو في التوراة والإنجيل والزابور، علىٰ رغم التنويه الرباني للتحريف الذي طالهم.

ولكي نجزم بأن كلمة الرب لا تعني بالضرورة الله سبحانه، أو أنها قد تدل في بعض المواضع عن رب العمل، فليس أمامنا للمتشككين فيما ذهبنا إليه إلا أن نورد قول الله تعالىٰ علىٰ لسان نبيه يوسف عليه السلام في سورة يوسف بالآية ٤٠ & ٤١ التالي

(يا صاحباي السجن، أما أحدكما فيسقي ربه خمراً وأما الآخر فيصلب، فتأكل الطير من رأسه، قضي الأمر الذي فيه تستفتيان* وقال للذي ظن أنه ناج منهما، اذكرني عند ربك، فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين)

فكلمة ربه الأولىٰ دلت في السياق القرآني علىٰ رب العمل، وكلمة ربك التي ذكرت بعدها دلت علىٰ نفس المعنىٰ، أما كلمة ربه الثالثة فدلت علىٰ الله رب العالمين ورب يوسف عليه السلام. والمسيح عليه السلام حينما كان يعظ كان يقول مثلا (طوبىٰ لصانعي السلام، لأنهم ابناء الله يُدعون) ويقول (يا أيها الأحباء نحن أبناء الله) ويقول (صلوا للذين يطردونكم، لتكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات) إنها أبوة روحية تظلل الجميع، وما كانت اللفظة جديدة عليهم أو علىٰ مسامعهم. ويؤكد المسيح علىٰ هذا المعنىٰ حينما قال

(الحق الحق أقول لكم إن كل ما يعمل الخطيئة فهو عبد للخطيئة)، (أنا عالم أنكم ذرية إبراهيم، لكنكم تريدون قتلي لأن كلامي لايقع منكم موقعا، أنا أتكلم بما رأيت عند أبي وأنتم تعملون ما رأيتم عند أبيكم)

فأجابوه: إن أبانا إبراهيم. فقال (لو كان أباكم لعملتم عمله [٧٥]، ولكنكم الآن تطلبون دمي وأنا إنسان يكلمكم بالحق الذي سمعه من الله، فهذا لم يعمله إبراهيم وأنتم تعملون عمل أبيكم) فقالوا له: إننا لم نولد من سفاح لنا أب واحد هو الله. قال (لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لإنني خرجت من قبل الله وأتيت إليكم، إنني لم آت من نفسي بل هو الذي أرسلني، أنتم من أب هو إبليس)

ويتطابق ما جاء به عيسىٰ بن مريم من عند الله بما جاء به محمد من عند الله (صلىٰ الله عليهما وسلم، إذ نجد في القرآن الكريم في سورة آل عمران بالآيات ٣١&٣٢

(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم* قل أطيعوا الله والرسول، فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين) ولو أمعنا النظر في الكلمات المذكورة بالقرآن الكريم لوجدنا ضرورة اتباع رسول الله حينما يجيئ للبشر - أيا كان الرسول – فالله سبحانه وتعالىٰ ينسخ ما يشاء لإتمام الرسالات، ففي [سورة الجاثية بالآية ٢٨] (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق، إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون)

أما رسول الله عيسىٰ فقد أضاف بعد ذلك (إنما بنوة الله بالأعمال، وأنتم بأعمالكم أبناء إبليس)، وحديث المسيح لهم عن أبوة إبليس لهم إنما يعني أبوة الإتباع، فمعنىٰ أبوة الله هو معنىٰ مجازي وتنحصر في الأبوة الروحية، والحقيقة أن ليس هناك أوضح من هذا الذي شرحه لهم - ولنا- السيد المسيح عليه الصلاة والسلام، ونحن نستشهد من الكلمات بما نصت عليه نصوص الإناجيل الأربعة ونفسر المعنىٰ بما ورد في القرآن وعليه فالمسيح في مسألة البنوة والأبوة قد حسم الفكرة تماما، ولا مجال للخلط.

ولكن كيف وصلت فكرة بنوة المسيح لله وعقيدة التثليث ؟

أولاً: فكرة البنوة:-

أنتج الخيال المصري الفرعوني فكرة إبن الله ممثلا في الفرعون، كتطور فكري بعد عبادة النهروغيرها، وفكرة إبن الاله قد تبنتها الثقافة الهلينية نقلا عن المصريين، حتىٰ أن الإسكندر الأكبر كانت أمه قد ادعت له أنه إبن الإله (عطارد) جاء فضاجعها وحملت به، ولقد تأثر المسكين بترهات أمه حتىٰ إذا ما قام بغزو مصر، دله الفراعين الحاذقين في واحة

(٧٥)يتطابق أيضا مع ما جاء بة القرآن في الآية ٦٨ من سورة البقرة (إن أولىٰ الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا، والله ولي المؤمنين)

سيوة علىٰ معبد الإله الوثني (آمون) ما أقنعه بأنه إبن ذلك الإله، فمنحه الكهنة لقب إبن آمون !! كل ذلك قاد عقول العامة من الإغريق فلم يروا أي تعارض في انتماءالإسكندر إلىٰ عطارد بالبنوة المزعومة وبين إدعاء بنوة المسيح لله وكان منهم بني إسرائيل ومن الانتهازيين وأصحاب الكسل الفكرىٰ فعمدوا إلىٰ استسهال خلط الموروثات الشعبية بالأديان السماوية، والمعروف أن المسيح لم يكن وحده من قالوا عنه أنه ابن الله.

"وقالت اليهود عزير بن الله وقالت النصارىٰ المسيح بن الله، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل" [سورة التوبة الآية ٣٠] ويقول في [سورة الزمر بالآية رقم ٤] (لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفىٰ مما يخلق ما يشاء، سبحانه، هو الله الواحد القهار) ويقول في [سورة المؤمنون بالآية ٩١] (ما اتخذ من ولد وما كان معه من إله، إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم علىٰ بعض، سبحان الله عما يصفون) في الإسكندرية كان هنالك فيلسوفا يهوديًا اسمه فيلون ولد في مدينة فيلة عام ٣٠ قبل ميلاد المسيح بأسوان وينص مذهبه من ضمن ما ينص علىٰ أن الإنسان ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام: وليد الأرض، ووليد السماء، ووليد الله، فوليد الأرض يطلب متاع الجسد، ووليد السماء يطلب متاع الفكر، أما وليد الله فهو من تجرد عن الدنيا وأقبل بجملته علىٰ عالم فوق هذا العالم معصوما من الفناء براء من المادة، وفي زُمرة الهُداة والمرسلين.

في القرن الثاني الميلادي، آمن في الأسكندرية راهب مصري، وكان اسمه أوريجين Origeuns، وكان في الأصل متأثراً بحكم نشأته المصرية بالديانات الفرعونية، وكان قد قرأ في شبابة قول المسيح عليه السلام (أنا أتكلم بما رأيت عند أبي) فالتزم بحرفية الكلمة، فكانت الحرفية والنص الحرفي، دون إعمال العقل في المقصود، فجرت عليه وعلىٰ من اتبعوا تفسيراته الوبال، فقد سمع أيضا قول المسيح أن أناسا يخصيهم الله وأناسا يخصيهم الناس وأناسا يخصون أنفسهم في سبيل الله، فحمل الكلمات علىٰ معناها الحرفي وخصىٰ نفسه!! [الآية ١٢ من الإصحاح ١٩ – إنجيل متىٰ]

هذه رواية ثابتة في سيرة الرجل وهو من أعلام زمانه، وصحيح أنه أدرك خطأه بعد ذلك، وعدل عن هذا الفهم الحرفي لأقوال المسيح – بعد فوات الأوان بالنسبة لتشويه نفسه – إلا أن تفسيراته الأخرىٰ ظلت في وجدان الناس، فكان من الرجال من يفقأون أعينهم إذا ما أحس واحد منهم أنه قد نظر بها إلىٰ امرأة نظرة اشتهاء، ولقد أدخل مذهبه (في الفهم

الحرفي) لأقوال السيد المسيح في فكر الكنيسة الأبوة والبنوة الإلهية، معتمدا علىٰ ماتم ذكره من أقوال السيد المسيح عليه الصلاة والسلام.

يقول عز من قائل في أشهر سورة يحفظها كل أطفال العالم المسلمين لقصرها بسورة الإخلاص: (قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد *ولم يكن له كفوا أحد)

ثانياً: فكرة عقيدة التثليث:-

في أزمان ما قبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام وأثناءه، كانت فكرة الألوهية تمر بمرحلة طور التعدد، فتتخذ كل قبيلة رب، حتىٰ إذا ما غلب طور الترجيح والتغليب وكانت سلطة الدولة الموحدة، حرصت الوثنية علىٰ أن تفرض إلاها بعينه، وقد مرت شعوب الأرض بهذا الطور، ولما تعدت الشعوب ذلك الإعتقاد، وأحاط المصريون آلهتهم بأساطير شعبية أحبوها لأنها تصور الآلهة في صورة بشرية، يأكلون ويشربون ويتزوجون، ويأتون بكل ما يفعله البشر، وأشهر تلك الأساطير كانت أسطورة إيزيس وأوزوريس وحورس، فقد اعتقد المصريون في خيالهم الشعبي أن أصل الكون هو الأرض (ممثلاً للذكورة) والسماء (ممثلا للأنوثة)، وكانا متصلين ثم انفصلا[٧٦].

ولد للزوج والزوجة اثنان من البنين (أوزوريس وست)، وكذلك من البنات اثنتان (إيزيس ونفتيس)، وتزوج أوزوريس من إيزيس وتولىٰ حكم الأرض فسار في الرعية بالعدل، أما ست فتزوج من نفتيس، ولكن غاظه المكانة الرفيعة التي حظي بها أوزوريس، فسولت له نفسه قتل أخيه بخدعة وضعه في تابوت، والقاه في النيل فحمله النيل للبحر المتوسط وحملته الأمواج إلىٰ فينيقيا، فذهبت إيزيس لفينيقيا وبحثت عن التابوت، ولما وجدته أخرجته، وابتهلت فعاد للحياة، ففاجأهما ست بعد عودته للحياة بفترة قصيرة، فيمزق جسد أخيه أوزوريس ويدفن أعضاء جسده في أقاليم مصر الاثنين والأربعين، ولكن إيزيس كانت قد نجحت في أن تستولد منه إبنهما حوريس من روح أبيه !!وأخفت الوليد في الأحراش حتىٰ بلغ سن الشباب وانتقم لأبيه من عمه وينتصر، وتسلم آلهة هليوبوليس عرش مصر لحورس، ويتم تنصيب أوزوريس إلاها للموتىٰ.

---

(٧٦)فكرة اتصال الأرض والسماء وفتقهما (انفصالهما) عن بعضهما هي حقيقة مذكورة في القرآن، ومعنىٰ هذا إحتمال وجود أصل من مصدر إلهي في الخيال الشعبي لم نخبر بكيفية وصول الفراعين له من دين سماوي تم تحريفه

تلك هي أسطورة إيزيس وأوزوريس وحورس التي نستشف منها أن ما قاله الله عز وجل في شأن قابيل وهابيل موجودة في السياق بتشويه شعبي، ثم يضاف إليها تفاصيل تجعل من عقيدة التثليث ملحمة أسرية تراجيدية موغلة في الرومانسية، تتغلغل في وجدان البسطاء والحكماء من الشعب.

لم تتوقف الأسطورة عند هذا الحد، بل انتقلت إلىٰ الحضارة الفينيقية ولكن بأبطال مختلفين في الأسماء (بعل إله الخصب وزوجته عشتار إلهة الحب والحرب وأدونيس ابنهما وهو إله القوة المتجددة من الشمس) وتحويرات في الأحداث تناسب الفينيقيين، إلا أن مضمون الصياغة والتثليث والأسرة لا يزال - في السياق العام - متأثراً بما أنتجه الخيال الشعبي المصري.

أما الحضارة البابلية التي سادت المنطقة، فقد استعاروا الإله (شمس) من مصر، ولما خضعوا للاشوريين استعاروا الإلهة عشتارمن الفينيقيين ثم غزاها قورش ملك الفرس فدانت بالديانات الفارسية (المثراسية) وبعض المعتقدات الهندية

انتشرت الرسومات والتماثيل في أرجاء العالم لما يعتبرونها للسيدة مريم عليها السلام مع طفل هو المسيح كما اشتهرت فهي مأخوذة ممن عبدوا (ديميترا) وابنها من أهل الإغريق والمتأثرة بنحلة (مثرا) بعد غزو الفرس لبلاد اليونان والرومان، والتي وجدوا فيها قبولا للتشابه بينها وبين نحلة (إيزيس) المصرية، يرسمون فيها امرأة جميلة أوروبية الملامح وفي حضنها رضيع ويشع النور من وجهيهما، والجدير بالذكر أن كانت الإلهة إيزيس المصرية وهي الأم الحزينة، والمواسية والمحبة، وحاملة هبة الحياة الخالدة، تلقىٰ من التكريم، أكثر مما تتلقاه الإلهة سيبيل وكانت شعوب البحرالمتوسط تعرف كيف مات زوجها أوزوريس، وكيف قام من بين الأموات فامتلأت أوروبا وجنوب البحر المتوسط بتماثيل لأيزيس تحمل بين ذراعيها حورس إبنها الإلهي وكانو يسمونها في الأوردة والأدعية (ملكة السماء) و (أم الإله) وكان ذلك الإنتشار للإيزيسية منذ قبل الميلاد، وقد عثر مؤخرا علىٰ صورهاَ المقدسة علىٰ ضفاف نهري الدانوب والسين، وقد أدت تلك الرسومات والتماثيل وأدىٰ الخلط ما بين دين الله والديانات الوضعية، ليس إلىٰ تأليه المسيح وحده، بل إلىٰ تأليه المسيح وأمه أيضاً في الضمير المسيحي.

في هذا يقول الله تعالىٰ في [سورة النساء في الآيات من ١٧١ حتىٰ ١٧٢] (إنما المسيح عيسىٰ بن مريم رسول الله وكلمته القاها إلىٰ مريم وروح منه، فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة، انتهوا خيرا لكم، إنما الله إله واحدُ سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السماوات وما في الأرض، وكفىٰ بالله وكيلاً).

وفي هذا الشأن في [سورة المائدة بالآية ٧٣] (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم)

وفي [سورة المائدة الآيه ١٧] (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ، قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعـًا، وله ملك السماوات والأرض وما بينهما، يخلق ما يشاء، إن الله علىٰ كل شيئ قدير) ولفظ الكفر الذي أطلقة الله تعالىٰ علىٰ النصارىٰ هو كفر بالرسالة التي أتىٰ بها الله علىٰ رسوله محمد صلىٰ الله عليه وسلم، وليس كفر بالله وفي الجزء الثالث من هذا الكتاب توضيح أكبر، أما اليهود فقد كفروا من قبل برسالة رسول الله عيسىٰ بن مريم وينسحب عليهم نفس حكم الكفر برسالته صلىٰ الله عليه وسلم، كان أساس رفض اليهود للمسيح هو مضاهاة قول الذين سبقوهم ولم يتأثر الإسرائيليين بالموروثات الشعبية المحيطة في عقيدة التثليث (إيزيس وأوزوريس وحورس)، عن طريق مباشر، وإنما عن طريق أمم غير إسرائيلية آمنت بالمسيحية، وليس هناك أيضـًا ماهو أوضح من هذا، من خلال ما نعرفه ويعرفه العالم أجمع في تقصي التاريخ وعليه فأولئك الذين ضللوا مسيرة الإيمان بقصد (بولس) وبدون قصد (فيلون وأوريجن) وكذلك موروثات مرحلة ما قبل إبراهيم في مسألة البنوة والأبوة قد تم كشف العلة التي تسببوا فيها، وتم حسم الفكرة تماما فيما أورنا من قبل ونورد الآن وفيما سيأتي في أجزاء الكتاب التالية، ولا مجال للخلط أيضا.

٢- بين النُبُوة والرُبوبية:-

ولكن إن كان الأمر كذلك في أمر البنوة وعقيدة التثليث فكيف وصلت فكرة ربوبية المسيح ؟

نشأت فكرة الربوبية من عقدة تضخيم الأنا وتقزيم الآخر، فكل شعب تدفعه الحمية الدينية والقومية إلىٰ التعبير عن هذه العقدة بطريقة أو بأخرىٰ، فحينما تدفع الحمية القومية الشعوب إلىٰ افتراض أنهم الشعب المختار الوحيد كما هو عند الإسرائيليين، وتدفع

الجرمان إلىٰ اعتبار تفوق الجنس الآري علىٰ باقي شعوب الأرض الأدنىٰ في المستوىٰ بسبب سمات فيما أطلقوا عليه علم الأجناس (الانثروبولوجيا)، وينصب أيضًا ملك الفرس وهو من الجنس الآري أيضا نفسة ملك الملوك، وغيرها من الظواهر التاريخية المعروفة فمن باب أولىٰ أن تدفع الحمية الدينية الشعوب إلىٰ المبالغة في توقير الأنبياء الذين آمنوا بهم، وهم بذلك يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، فالغلو والمبالغة هي آفة كل المجتمعات البدائية، وبناء عليه فقد نشأت فكرة الربوبية من عقدة تضخيم الأنا وتقزيم الآخر.

حينما كان في مصر بلاط الفرعون يعج بالإسرائيليين من صنائع الفراعنة وخلال الفترة التي انصرمت من وجودهم في مصر، كانت اتجاهاتهم في التعبد إلىٰ ناحية التجسيم وتعدد الألهه، ويقول ريناتش في كتاب تاريخ الشعب العبري ص ١٧٦ أن اليهود اتخذوا في بيوتهم أصناما حتىٰ خرج بهم موسىٰ من مصركما يقول (وول ديورانت) فىٰ كتابه تاريخ الحضاره الجزء الثانىٰ أن الإسرائيليين لم يتخلوا قط عن عبادة العجل والكبش، والحمل سواء قبل موسىٰ أو بعده وكان ولعهم بالعجل (أبيس) شديداً.

في أزمان ما قبل المسيح عليه الصلاة والسلام وفي فترات السبي وبعدها تأثر الإسرائيليون - بعد تأثرهم بالفرعون الإله في مصر - تأثروا (ببعل) إله البابليين بعد السبي الآشوري، وكذلك (مثرا أو متراس) إله الفرس - المنقذ والمخلص - بعد السبي البابلي من ضمن ما تأثروا به، وهىٰ تلك الديانات التي ازدهرت في فارس المجاورة لبابل قبل الميلاد بنحو ستة قرون وقد كان التأثر بالغًا بالفرعون وبعل ومثرا، إذ كان كل منهم هو الرب لهذه الشعوب.

والجدير بالذكر أن المرأة الفينيقية ومن بعدها العربية تدعو زوجها بالبعل، تعبيرا عن الاحترام ومبالغة في التوقير، وهو تعبير لايزال في المجتمعات العربية حتىٰ الآن، إذ تترادف كلمة (زوجي) ببعلي في الأدبيات العربية وكلمات العامة، ونجد سارة تتحدث عن إبراهيم في القرآن وتسميه (بعلىٰ)، كما يترادف تعبير (رب البيت) و (ربة البيت) بنفس المفهوم، ورب العمل أيضا، دون أن يكون لتلك التعبيرات مفاهيم دالة علىٰ الشرك إلىٰ ما بعد الإسلام وحتىٰ اليوم.

الغلو والمبالغة هي آفة كل المجتمعات، فتنشأت فكرة الربوبية من عقدة تضخيم الأنا وتقزيم الآخركما قلنا وخاصة عن أهل الكتاب.

ويقول الله عز وجل بـ [سورة المائدة آيه (٧٧)] "قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلّوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل" ويقول سبحانه وتعالىٰ في [سورة النساء في أول الآية ١٧١ حتىٰ ١٧٢] (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا علىٰ الله إلا الحق إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَىٰ ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا باللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا *لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا)

في نايين (أونعلين) نشأت هذه الفكرة، إذ مرّ موكب لجنازة لشاب، وأمه تولول عليه فذهب المسيح عليه الصلاة والسلام إلىٰ النعش ووضع يده عليه قائلا في حزم: (أيها الشاب، قم) فدبت فيه الحياة بإذن الله، وكان علىٰ مقربة من الحدث جنود رومان، فظنوا أن المسيح عليه الصلاة والسلام لابد وأن يكون إلاها، ولاموا الإسرائيليين قائلين: لايحييٰ الموتىٰ إلا رب من الأرباب فكيف لاتعبدون ربكم، فقال قومٌ (إن الذي زارنا إنما هو إلهنا) فغضب المسيح عليه الصلاة والسلام وأورد برنابا قول المسيح:

(إني أشهد أمام السماء وأشهد كل ساكني الأرض أني برئ من كل ما قاله الناس عني من أني أعظم من البشر، لأني بشر مولود من إمرأة وعرضة لحكم الله، أعيش كسائر البشر عرضة للشقاء العام)

وهنا تتفق رواية برنابا مع ما جاء في القرآن الكريم في هذا الشأن مع آيات القرآن الحكيم وأيضا كان هذا الحدث قد جاء ذكره في القرآن بوضوح أشد ففي [سورة المائدة بالآيات ١١٦ حتىٰ ١١٩] (وإذ قال الله ياعيسىٰ ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله، قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ماليس لي بحق، إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما في نفسي ولآ أعلم ما في نفسك، إنك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربي وربكم، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت علىٰ كل شيئ شهيد *إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز

الحكيم *قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، رضي الله عنهم ورضوا عنه، ذلك الفوز العظيم)

وفي آل عمران بالآية ٧٩ &٨٠ (وما كان لبشر أن يؤتيه الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تُعَلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون)

وفي سورة المائدة الآية ١٥٨ (ما قلت لهم إلا ما أمرتني به، أن اعبدوا الله ربي وربكم، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت علىٰ كل شيئ شهيد)

وذكرنا من قبل أنه عندما برز له واحد ليسأله عليه السلام (أيها المعلم مر أخي يقاسمني الميراث) فما بال الرجل يسأله وهو لا يملك القضاء أو المحاسبة التي هي لله وحده فلئن أمر ولم يلتزم أحد بأمره فقد مصداقيته فما زاد أن قال (أيها الإنسان من أقامني عليكما قاضيا أو حسيبا) وكان هذا الرد يتضمن نفيا حاسما للألوهية، وكما ينفي المسيح محاسبة الناس ينفي الله ذلك عن محمد عليه الصلاة والسلام في قول الله (لست عليهم بمسيطر) في سورة المائدة وكما جاء بالآية ٧٢ (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ، وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم، إن من يشرك بالله فقد حرم عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار)

ويقول الله تعالىٰ في سورة النساء (آية -١٧٣-١٧٢) (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعًا * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أُجورهم ويزيدُهُم من فضله، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله وليّاً ولا نصيرا)

إن التشابه والتطابق أحيانا بين القصص المروية عن السيد المسيح والمروية عن أرباب العبادات الشرقية القديمة والمرتبطة بالمعجزات والشعائر في ديانات المصريين والبابليين والفرس والهنود والكنعانيين والفينيقيين في علم مقارنة الأديان تدل علىٰ غلبة الديانات الشمسية ويدل عليها عدد (إثني عشر) و (البروج) وعدد التلاميذ والإحتفال بيوم الشمس (الأحد) والاحتفال بالخامس والعشرين من ديسمبر كتاريخ ميلاد المسيح، في حين أنه ميلاد مثرا*، فهذا التزاوج بين الموروثات الوثنية والدين السماوي القيم، هو في

الحقيقة بمثابة ترقيع الثوب الرخيص البالي بالقشائب، وهو بالتحديد ما حذر منه السيد المسيح عليه الصلاة والسلام إذ نوه عن (وضع الخمر الجديدة في الزق القديم، أو وضع الرقعة القشيبة علىٰ الثوب الرديم).

لقد كان حرص المسيح - روح الله - ألا تنال الدعوة التحريف من تأثير الديانات الوضعية القديمة أو من التحريفات في الديانات السماوية، فكانت تلك هي كلماته التي تحذر من الزق (الوعاء) القديم والثوب الرديم، كما كان كما رأينا يحرص علىٰ هداية بني إسرائيل وحدهم حينما جاءته المرأة الكنعانية تطلب معجزاته فقال (إنما بعثت لخراف بني إسرائيل الضالة)

لم يكن هذا لعنصرية وإنما حرص علىٰ عدم ترقيع ثوب الديانات الوضعية بقشائب دين الله، أو ملئ أوعيتهم بما كان فيها من نتن وعفانة متبقية في الوعاء فيتأثر ما جاء الله به معه، فيصيبه التلوث والسموم والنصوص التالية من الأناجيل تدل نبوة المسيح وتنفي عنه عليه السلام إدعاء الربوبيه:

(إن أباكم واحد الذي في السماوات) [متىٰ إصحاح ٢٣ الفقرة ٨]

(الرب إلهنا واحد وليس آخر سواه) [مرقص ١٢:٣٠- ٣١]

(إني أصعد إلىٰ أبي وأبيكم وإلهىٰ وإلهكم) [يوحنا ٢٠:١٨]

(هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل) [متىٰ ٢١:١١]

(قد خرج نبي عظيم) [لوقا ٧:١٦]

(لا يمكن أن يهلك نبي خارج أورشليم يا أورشليم، يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين).

٣- الحفظ والعصمة وكف بني إسرائيل عنه (ولكن شبه لهم)

ذهب المسيح عليه السلام إلىٰ ضيعة (جشيماني) وكانت ليوسف الرامي صديق المسيح عليه السلام وقال لهم عليه السلام (اجلسوا هاهنا حتىٰ أمضي وأصلي هناك) ولما عاد وجدهم قد غفلوا فناموا، فأيقظهم وجلس معهم قليلا، وطلب منهم الصلاة حتىٰ يعاود الصلاة ويأتي إليهم لكنهم غفلوا مرة أخرىٰ، فقال لهم في أسىٰ، (يذهب الراعي وتتفرق

الغنم)، كانت ليلة غير مقمرة، وكان الظلام حالكا، وجلس المسيح ينتظر شيئا يعرف أنه حادث فسمع عليه السلام أصوات أقدام آتية، ولمح أضواء مشاعل تقترب، فعرف يهوذا من يكونوا، وشعر بالرهبة، فعمله الليلة البارحة تأتّي بثمار لا يعلم نتائجها أما المسيح فكان موقنا بما سيحدث، وتقدم إليهم وسألهم (من تطلبون)، قالوا (عيسىٰ الناصري)، فقال لهم (إني أنا هو) تقدموا منه حتىٰ يقبضوا عليه، وارتعب يهوذا من نتاج عمله، لكنهم وهم يتقدمون اليه ما لبثوا أن سقطوا أرضا وانطفأت بعض المشاعل، وصارت الليلة أكثر حلكة، فقاموا تجاه التلاميذ يحسبون يهوذا هو المسيح، ونظر المسيح اليهم قائلا (قلت لكم أني أنا هو فإن كنتم تطلبونني، فدعوا هؤلاء يذهبون)فقاموا تجاه المسيح وشهر بطرس سيفا وضرب به (ملخس) عبد رئيس الكهنة قيافا فقطع أذنه، فخاف المسيح علىٰ التلاميذ إذ لاقبل لهم بجنود الرومان فقال لبطرس (اجعل سيفك في غمده)في يقين من قدرة الله وقال لتلاميذه (اذهبوا)وفذهبوا كأمر المسيح لكن يهوذا لم يذهب مع التلاميذ وبقي يترقب، وتقدم رسول الله عيسىٰ بن مريم خطوات تجاه الجنود، فرجعوا إلىٰ الخلف وسقطوا مرة أخرىٰ علىٰ الأرض، ومر المسيح بينهم وحفظه وعصمه الله الحفظ العظيم والأخير وكف عنه بني إسرائيل وباقي التلاميذ من بعيد ينظرون إليه فلم يبصروه وتحقق نصف ما أخبرهم به المسيح (بعد قليل لا تبصرونني)واجتهد الحواريون في الإبتعاد يتفرقون وتحقق ما قاله منذ برهة أيضا (يذهب الراعي وتتفرق الغنم) وبقي يهوذا مسمرا في مكانه وخالجه اليقين بأن عيسىٰ هو رسول الله ومسيحه نادما علىٰ شكوكه، وتخلص من شوائب الشك وقام الجنود الرومان الغلاظ حانقين، فكيف لجنود أقوىٰ دولة في العالم أن تعجز عن الإتيان برجل واحد أعزل وبحثوا قليلا في الظلام فلم يجدوا إلا يهوذا واقفا وحده فأمسكوا به يحسبونه عيسىٰ، وشبه لهم في الظلام لما ذكرناه آنفا من وجود شبها بينه وبين المسيح، وضللهم الله أكثر بغضبهم فأوسعوه ضربا بكل ما تعلموه من فن الضرب علىٰ وجهه وهم يحسبونه المسيح حتىٰ تغيرت ملامحه من شدة بأس الضرب عليه، أما يهوذا، فقد رضي بما قسمه الله له من عقاب علىٰ ما أقترف، وتيقن أن الله أنزل عليه البلاء ليجازيه علىٰ شكه بعد كل المعجزات ذات الدلالة التىٰ أتىٰ بها المسيح، وبعد ثقة المسيح به، فلزم الصمت تكفيرا عن خطيئته، طامعا في غفران الله له، حتىٰ يستحق أن يجلس مع المسيح في مملكة السماءيدين أسباط بني إسرائيل، ترتيب إلهي، كالترتيبات التي رتبها ويرتبها الله من قبل المسيح وبعده واستهزأالله بهم.*

(تآمر الرؤساء معا علىٰ الرب، ومسيحه، قائلين: لنقطع قيودهما ولنطرح عنا ربطهما، الساكن في السماوات يضحك، الرب يستهزئ بهم) مزامير (٢: ٢- ١٤). كل الأحداث والحوارات المذكورة مأخوذة من المصادر المسيحية الإنجيلية أما التعليق فللكاتب لكن كلمات يهوذا نسبوها للمسيح ضلالا، إذ شبه يهوذا بالمسيح وتحققت نبوءة المسيح عليه السلام بأنهم كلهم يشكون في هذه الليلة

٤- محاكمة يهوذا وصلبه

غادر الجنود الرومان الضيعة وانطلقوا إلىٰ وادي قدرون واستمروا في ضرب يهوذا في فرح غامر أن أمسكوا بالمسيح كما ظنوا، ويهوذا يتحمل الضرب ممنيا نفسه بالجلوس مع المسيح في الآخرة يدين أسباط إسرائيل مع باقي الحواريين دلفوا إلىٰ الهيكل وكان بطرس أخلص الحواريين وأكثرهم إيمانا واندفاعا يقتفي آثارهم ولما أراد الدخول للهيكل رمته إمرأة واقفة عند باب الدخول بنظرة فاحصة وسألته (الست أنت أيضا من تلاميذ هذا الإنسان) فاضطرب بطرس ورد قائلا (لا لست من تلاميذه) وهم بالدخول وتحقق أول إنكار بطرس للمسيح كما أخبره المسيح

ساق الجنود يهوذا إلىٰ غرفة واسعة تضيئها القليل من المشاعل وقد جلس في نصف دائرة فريسون وكتبة، ورأس المحكمة حنان، صهر رئيس الكهنة قيافا وجمهورغفير من اليهود جاء للمشاهدة، وجاء بطرس مترددا ومتعمدا عدم الظهور في مقدمة المتفرجين في قاعة مجاورة لقاعة المحاكمة ينظر من بعيد وسط الحشود علىٰ المقبوض عليه (يهوذا) وقد شوه وجهه من شدة الضرب وبملابسه الشبيهه بملابس المسيح بعد أن تمزقت ولطخت بالدماء، فنظر إليه أحد الجنود الرومان الذين حاولوا القبض علىٰ المسيح ورأوا بطرس وهو يقطع أذن (ملخس)، فاقترب منه وسأله (ألست أنت أيضا من تلاميذه؟)، فقال بطرس (لا لست من تلاميذه)، وتحقق ثاني إنكار بطرس للمسيح، اقترب من بطرس خادم آخر من خدام قيافا الذين رأوه يقطع أذن زميله (ملخس)، وسأله (ألم أرك معه في البستان)، فرد بطرس من فوره (لا أنا لا أعرفه)

وتحقق ثالث إنكار بطرس للمسيح كما أخبره المسيح منذ سويعات بإنكاره له ثلاث مرات قبل أن تصيح الديكة، وانسل هاربا مغادرا الهيكل، وصاحت الديكة. كان بطرس هو الوحيد الذي جرؤ علىٰ متابعة الجنود الرومان لشدة حبه لرسول الله عيسىٰ بن مريم، وأيضا

كي تتحقق نبوءه عيسىٰ له، وهناك سبب آخر وأهم، إذ أن الواضح من هذا المشهد الأخير أن ظلام البستان لم يمكن الجنود من التحقق جيدا ممن قبضوا عليه، كذلك الظلام في البستان وفي الهيكل لم يجعل أحد من الجنود يتعرف علىٰ الوحيد من الحواريين الذي جرؤ علىٰ رفع سيفه لمقاومتهم، فما بالنا بالمقبوض عليه المشوهة ملامحه، لكنها إرادة الله، الذي يجعل لكل شيئ سببا، سأل يهوذا (من هم تلاميذك ؟ وما هي تعاليمك؟)، فصمت يهوذا، ولم يحر جوابا أما باقي التلاميذ، وعلىٰ رأسهم كتاب الأناجيل متىٰ ولوقا ومرقص ويوحنا، فلم يعاينوا من محاكمة يهوذا شيئا، وتلقوا الأنباء من من أفواه العامة الذين الذين لم يتحققوا منه إذ لا يعرفون المسيح كما عرفه التلاميذ، كانت إرادة الله جلت حكمته، فلئن حضروا، لعرف الجميع أنه قد شبه الله لهم ولانتشر الأمر، ولبحث الجنود الرومان وسدنة الهيكل من جديد، ولكن الله قد سبب الأسباب ليشبه لهم ولكي يهزأ بهم أما حنان فقد صاح في يهوذا قائلا له: (تكلم)، لكن يهوذا لم يتكلم، فتقدم أحد خدام قيافا ولطمه لطمة قوية قائلا ليهوذا (أجب) وغرق يهوذا في الصمت، كان قيافا يرىٰ أن من صالح الأمة اليهودية التخلص من هذا الرجل حتىٰ لا يرىٰ اليهود حربا أهلية جديدة، فأرسل يستدعي شهودا، فقالوا (هذا الرجل قال أنه يقدر أن ينقض هيكل الله وفي ثلاثة أيام يبنيه)، فقال له قيافا (ألا تجيب بشيئ ؟ ما رأيك فيما يشهدان به عليك)

وصمت يهوذا، فقال قيافا، (أستحلفك بالله أن تقول لنا هل أنت المسيح؟)، لم يشأ يهوذا أن يضيف خطيئه الكذب إلىٰ خطيئته حتىٰ لوكان كذبه سيجعلهم يتيهون في ضلالهم عن البحث من جديد عن المسيح، فقال لهم مراوغا: (أنت تقول ذلك)، ثم قال بما يؤمن به كيهودي مؤمن بالمسيح: (من الآن تبصرون ابن الإنسان جالسا علىٰ يمين القوة وآتيا علىٰ سحاب السماء)، فجن جنون قيافا ومزق ثياب يهوذا فما أضاف شيئا، وصاح قائلا، (لقد كفر فما حاجتنا إلىٰ شهود ها قد سمعتم كفره)، ووجه كلامه إلىٰ الفريسيين والصدوقيين والكتبة أعداء المسيح قائلا:

(ماذا ترون فيه)، فصاحوا فرحين وشامتين فيمن حسبوه المسيح (إنه مستوجب الموت)، أخذ يهوذا في غرفة مع الجنود يحرسونه، ولكنهم رأوا أن يسروا عن أنفسهم بضربه حتىٰ الصباح، في صباح اليوم التالي اجتمع السنهدرين في الهيكل وعلي رأسهم قيافا وبحضور نيقوديموس المؤمن بالمسيح ويخفي إيمانه وأيضا بعضوية كل أعداء المسيح الذين أتوا فرحين وشامتين، ولما نظر نيقوديموس إلىٰ وجه يهوذا المشوه بالضرب وآثار

التعذيب القاسية طأطأ رأسه أسفا علىٰ من حسبه المسيح، حتىٰ لا تظهر عليه علامات الأسىٰ فقال قيافا ليهوذا:

(إن كنت المسيح فقل لنا)، فقال يهوذا (إن قلت لكم، لا تصدقون، وإن سألت لا تجيبوني ولا تطلقوني)، أي أنه إن قال الحقيقة فلن يصدقوا أنه ليس المسيح فيطلقونه فقد اعتقد أن المسيح قد رفعه الله فإن أطلقوه، فلن يجدوا المسيح، وأضاف:

(فمنذ الآن يكون ابن الإنسان جالسا عن يمين قوة الله)، جن جنون قيافا وقال (ماحاجتنا إلىٰ شهود، سمعنا اعترافه)، قام أعضاء السنهدرين باصطحابه مكبلا وفي حراسة الجنود الذين أكملوا الضرب إلىٰ قصر بيلاطس الروماني حاكم أورشليم وقال له قيافا:

(جئنا بعيسىٰ الذي أضل كل إسرائيل بتعاليمه وآياته الكاذبة فقد راح يفسد الأمة ويحرض الناس علىٰ الامتناع عن دفع الجزية لقيصر زاعما أنه المسيح ملك اليهود)، فقال ادخلوه علي، ولما انفرد به قال له:

(سلمك الكهنة وشيوخ الشعب إلىٰ يدي، فقل الحق لأقيم العدل لأني قادر أن أطلقك وقادر أن آمر بقتلك) فقال له يهوذا كلاما واضحا بنفي كونه المسيح: (إن أمرت بقتلي فإنك ترتكب ظلما كبير الأنك تقتل بريئا)، فدعا بيلاطس رؤساء الهيكل وسألهم: (أية شكاية تقدمونها علىٰ هذا الإنسان؟) فقالوا في محاولة لإحراجه: (إذا تركت هذا الجليلي فلست محبا لقيصر فكل من يدعو نفسه ملكا يقاوم قيصر)

فتنفس بيلاطس الصعداء وسألهم (هل هو جليلي) قالوا (نعم) فقال لهم (فارسلوه إلىٰ هيرودس فهو من رعاياه ليرىٰ فيه رأيه)[٧٧]

سار رجال السنهدرين ومعهم يهوذا مكبلا وفي حراسة الجنود الرومان وفي الطريق تسابق الكتبة والفريسيون والصدوقيون والصيارفة وبائعي الأغنام والحمام في الهيكل الموتورين من المسيح ليشفوا غليلهم إذ منعهم من تدنيس الهيكل، وتباروا في الإساءة ليهوذا وضربه حتىٰ وصل الجمع إلىٰ قصر هيرودس وجيئ بيهوذا، فرماه بنظرة فاحصة، لم تكن نظرات يهوذا بها صرامة يحيىٰ الذي قطع رأسه قبل بضع سنوات وبعد أن كال قيافا التهم ليهوذا، قال هيرودس ليهوذا: (ماذا تقول أنت) فلم يحر يهوذا جوابا فقال له هيرودس (زعمت أنك نبي، فأت بآية إنا منتظرون) ولم يحر يهوذا جوابا، فراح هيرودس يسخر منه

(٧٧)حادثة إرسال يهوذا إلىٰ هيرودس مذكورة في إنجيل يوحنا فقط ولم تذكر في الأناجيل الأخرىٰ

هو ورجال بلاطه والبسه ثياب المجانين وأمر أعضاء السنهدرين بإعادته إلىٰ بيلاطس برسالة مكتوب عليها: (أقم العدل في بيت إسرائيل)

عادوا به إلىٰ بيلاطس مرة أخرىٰ تحت ضرب السياط من الجنود وضرب الأيدي من العامة لكن بيلاطس عزم أن ينقذ الرجل ولما سأل الجموع ارتفعت أصواتهم، أقتله، أقتله، كانت من عادة الحكام في أعياد اليهود أن يطلقوا سراح أحد المسجونين فأتىٰ بأحد القتلة اللصوص، وخير الشعب اليهودي بين من حسبوه نبيهم عيسىٰ وبين القاتل اللص (باراباس) ولما سأل الجموع عمن يطلق سراحه ارتفعت أصواتهم، باراباس، باراباس، فجاء بيلاطس بماء وغسل يديه قائلا:

(إني برئ من دم هذا الرجل) وأردف (خذوه أنتم فاصلبوه فإني لا أجد ما آخذه به)، فصاحوا، (دمه علينا وعلىٰ أولادنا)*، اخذه جنود بيلاطس الرومان إلىٰ داخل القصريضربونه بالسياط قبل أن يصلبوه والغوغاء يضحكون في فرح وتلاميذ المسيح يذرفون الدمع وهم يحسبونه سيدهم، وصدق عيسىٰ فالناس يفرحون وهم يذرفون الدمع وحملوا يهوذا الصليب المكتوب عليه (ملك اليهود)، وكان يهوذا خائر القوىٰ وكلما سقط من الإعياء أعادوا ضربه بالسياط، فتخور قواه، أمر أحد الجنود سمعان القيرواني وكان من اليهود الذاهبين إلىٰ الهيكل احتفالا بالعيد ولما حمل الصليب عن يهوذا صاح قيافا أن من شريعة اليهود أن يحمل المذنب صليبه بنفسه

وفي هذه الأثناء تذكر لنا الأناجيل أن أمه مريم ابنة عمران وكانت علىٰ بعد أمتار حاولت الإقتراب من يهوذا لتراه عن قرب، لانحسب أي أم تحتاج أن تقترب من ابنها حتىٰ تتأكد من كنهته حتىٰ تحزن أو لا تحزن ولكنها لم تصرخ ولم تبك! كأم كانت في شك من أنه ابنهاوصل المحكوم عليهم بالصلب يهوذا، ورجلان آخران وتم الصلب، وتهامس الناس، أن لو كان المسيح لخلص نفسه.

كانوا علىٰ حق فلم يكن المسيح الذي عصمه الله عشرات المرات ما هو أقل من ذلك، وكذلك قال له المصلوبان بجواره، فصاح يهوذا: (إلهي إلهي، لماذا تركتني) وبالآرامية قالها (الوهيم لم شبقتني) ومات يهوذا واشفق نيقوديموس ويوسف الرامي علىٰ من حسبوه المسيح، وطلبا من بيلاطس سرعة دفنه، فتم دفنه في جوف الليل بمساعدة بعض

النسوة ومن بينهن مريم ابنة عمران ومريم المجدلية – وكانت جثة يهوذا مشوهة الوجه – في ضيعة جشيماني بحديقة يوسف الرامي وهكذا استحق يهوذا أن يكون مع المسيح.

(وقولهم انا قتلنا المسيح عيسىٰ بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا❁ بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما❁ وإن من أهل اكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) [النساء الآيه من ١٥٧ إلىٰ ١٥٩]

فقد توفاه الله ولم يمت، ولسوف يعود فيؤمن به أهل الكتاب وبعدها يموت ويكون المسيح عيسىٰ بن مريم عليهم شهيدا، أما من كان علىٰ الإسلام فهو يعلم بما أخبره الله به.

٥- ظهور المسيح بعد صلب يهوذا

(وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا)

عاد نبي الله عيسىٰ إلىٰ مسرح الأحداث ولمح مريم المجدلية تبكي، فاقترب منها وقال لها (يا امرأة لماذا تبكين؟ ومن تطلبين؟)، حسبته البستالي فقال لها مرة أخرىٰ (يا مريم)، فعرفت صوته، فهرعت إليه تلمسه فقال لها (لا تلمسيني فلم أصعد إلىٰ ربي بعد ولكن اذهبي إلىٰ أخوتي وقولي لهم أني أصعد إلي أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم) وهرعت مريم المجدلية إلىٰ الحواريين تبشرهم، لكن المسيح وقبل أن تصل إليهم، التقىٰ بإثنين من تلاميذه وحادثهما طوال الليل وهما لا يعرفانه فقال لهما (يا أيها الغبيان يا قصيرا الإيمان)

ورغم ذلك لم يعرفاه، ثم تناولا الطعام معه، وتركهما ولا يدريان أهو عيسىٰ أم غيره، كانوا في شك منه !!!

لم يصرح عيسىٰ عن نفسه، فقد أراد أن يختبر حوارييه وأحبائه المؤمنين به فهل فهموا وصدقوا ما قاله لهم عن أنهم سيرونه مرة أخرىٰ وهل فهموا أسرار ملكوت الله، وإن فهموا، هل آمنوا بما قال وصدقوه ؟، فحزن رجل الأوجاع والأحزان، وقرر أن يحاول مرة أخرىٰ، علهم يؤمنون بما قاله لهم عن عودته، أما باقي الحواريين فقد اعتقدوا أن مريم المجدلية تتوهم، فذهب إليهم وهم يتحاورون عن أوهام مريم علهم يوقنون، وقال لهم (السلام

عليكم) فنظروا إليه بقامته المديدة، وخفقت قلوبهم رعبا، وراحوا يتحققوا بلمسه كما أشار إليهم قائلا:

(لا تخافوا وتعالوا والمسوني فالأرواح لا جسد لها)، وكما جاء في انجيل لوقا ٢٤ قال لهم:

(جسوني وانظروا فإن الروح ليس له لحم وعظام) وانقلب حزنهم فرحا، وتذكروا قوله لهم بأنهم يفرحون (ويتحول حزنكم إلىٰ فرح)، (بعد قليل لا تبصرونني ثم بعد قليل أيضا ترونني، لأني ذاهب إلىٰ الله)، سألهم أعندكم هنا طعام ؟، فناولوه جزءا من سمك مشوي وشيئا من شهد عسل، فأخذ وأكل.

ذهب عيسىٰ مطرقا حزينا شرقا مع أمه، فلا بني إسرائيل أصلح حالهم ولا تلاميذه استطاعوا أن يفهموا ملكوت السماء وقدرة الله بعد، ذهب ليرفعه الله إليه، ويرسل إليهم الفراقليط الذي بشرهم به، والذي صفاته موجودة في التوراة والإنجيل، يأمرالناس بالخير والفضائل وينهاهم عن الشر والرذائل والخبائث، ويحل لهم الطيبات في مأكلهم ومشربهم وملبسهم ومعاملاتهم وآدابهم التي تشقيهم وتعذبهم ويرفع عنهم التكاليف الشاقة التي كانت علىٰ الأمم السابقة والتي فرضت عليهم بسبب بغيهم وظلمهم، ويقول المولىٰ عز وجل: (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعذروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) [سورة الأعراف (١٥٧)]

ويصير دعاءهم: (ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته علىٰ الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به)

ويقول الله: (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما، يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا) . [سورة النساء - الآية ٢٦]

رفع الله تعالىٰ عيسىٰ بن مريم وأخبرة بقوله تعالىٰ كما جاء في سورة البقرة: (إذ قال الله لعيسىٰ إني متوفيك ورافعك إلىٰ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين

كفروا إلىٰ يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) [سورة البقرة (الآية٢٨٦)]

والذين كفروا برسول الله عيسىٰ من اليهود هم مؤمنين بالله وإن كانوا غير مؤمنين برسالة عيسىٰ بن مريم وهو دين الإسلام في ذلك الزمان وتلك الحقبة التاريخية.

وأيضا الذين كفروا برسول الله محمد من النصارىٰ هم مؤمنين بالله وإن كانوا غير مؤمنين برسالة محمد وهو دين الإسلام في ذلك الزمان وتلك الحقبة التاريخية.

٦-الإساءة لنبي اللّه ورسوله عيسى بن مريم:

بعد انتشار المؤمنين بعيسىٰ عليه الصلاة والسلام بين الطوائف اليهودية، لم يكن اليهود يرون في عيسىٰ إلا نبي آخر من أنبياء بني إسرائيل، حتىٰ الدولة الرومانية لم نفرق بين أتباع المسيح وأتباع موسىٰ، فالجمع كان موحداً لله، ولكن بعد بولس واختلاط المؤمنين بالأمم، وتجاوزات بولس من أجل توسيع قاعدة المؤمنين بما صاحب هذا التجاوز من مجاملة لأهل أنطاكية وآسيا الصغرىٰ وأوروبا، وخلطه دين الله القويم بالموروثات الوثنيه (برغم اعتراض جيمس أخو المسيح من أمه مريم وانفصال وبرنابة عن بولس) وبعد مبالغة المسيحيين في قدر نبي الله ورسوله باعتباره إلاها، لم يجد اليهود إلا سلاحي الدعاية المضادة والتشكيك في أصله، بل وإمكانية وجوده من الأساس.

التشكيك في أصله:

اتخذت الدعاية المضادة اسلوب إسرائيلي بحت في التشكيك، ولم يكن التشكيك منحصرا في صدق النبوة أو عدمه، بل فيما هو أفدح وأشد إيلاما، فتطاولوا علىٰ مريم ابنة عمران، بالتنويه عن إمكانية أن يكون رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ونبيه، قد أتىٰ من زنىٰ مريم عليها السلام ويوسف النجار - وسبحان الله عما يأفكون - وكأن لم يعرفوا ما هو بكتبهم من نصوص، إذ لم يكن زكريا قد أنجب طوال عمره من قبل وكان شيخا، وامرأته عاقر تماما كما كان إبراهيم عليه السلام في الثمانين من عمره قبل أن يهبه الله بإسحق من سارة العاقر أيضا، (هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء، فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب إن الله يبشرك بيحيىٰ مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين، قال رب أنىٰ يكون لي غلام وقد بلغني الكبرو امرأتي عاقر، قال كذلك الله يفعل ما يشاء)

ويلاحظ أن نبي الله إبراهيم قد رزق من قبل بنفس الكيفية الإلهية في الإعجاز، والملاحظ أيضا أن سارة لما عجبت قائلة (يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيئ عجيب، قالوا أتعجبين من أمر الله)

أما زكريا فقد كانت تلك المعجزة ماثلة أمام رهبان المعبد من الصدوقين المعاصرين له ولئن كانت تلك المعجزة في أمر أن ينجب نبي الله زكريا وليده يحيىٰ عليهما السلام هي مجرد تكرار لمعجزة الله في أمر أن ينجب إبراهيم وليده إسحق عليهما السلام قبل ذلك بقرون، إلا أن مجرد التكرار له عند الله مآرب لابد لها أن تستبين مع توالي ومرور الأيام والسنون، فالله عليم بالضعف في نفوس العباد وما فيها من اختلال، فربما لوكانت زوجة زكريا صبية لاتهمت كما اتهمت مريم ذلك لأن الآت من معجزات في هذا المضمار أصعب وأعقد إذ لم تكن معجزة إنجاب يحيىٰ ودوره في التمهيد لعيسىٰ المسيح هي في حد ذاتها المقصودة فحسب بل كانت قد جعلت للتمهيد لأن تنجب مريم العذراء البتول دون زواج.

يتجاهلون ما جاء في الإصحاح السابع من سفر نبيهم أشعيا عن مولد المسيح (يعطيكم الله آية، ها العذراء تحمل وتلد إبنا وتدعو اسمه عمانويل) ويؤكد القرآن الكريم علىٰ صحة ما جاء في سفر أشعيا في [سورة التحريم ١٢] (ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين)

التشكيك في وجود رسول الله عيسى بن مريم:

بعد انتشار المسيحية وانتصارها وجد اليهود أن لا مناص من التشكيك في قصة المسيح وكأن لم تحدث فهي - حسبما أشاعوا - من الخيال الشعبي، وعدوها أسطورة من الأساطير شبيهة بخرافات كريشنا، وأوزوريس، وأتيس ومثراس.

كان (بولونجبروك) في القرن الثامن عشر يقول أن لا وجود للمسيح إلا في خيال الأقدمين !!!وجهر (فلني)VOLNEY بهذا الشك في كتابه خرائب الإمبراطورية الذي كتبه عام ١٧٩١ م، وكذلك ذكر برونوبور عام ١٨٤٠ م، وتكررت مثل هذه الأقاويل الجاحدة ولا تزال حتىٰ يومنا هذا، ولكننا نقول أنه لو كان عددا قليلا من الصيادين البسطاء قد استطاعوا في مدىٰ جيل واحد إختراع هذه الشخصية الجذابة، وهذه المبادئ الأخلاقية السامية بما فيها من شريعة المحبة، فما قد فعلوه هو إعجاز بشري في حد ذاته، وأبعد مما

يعقل، ولقد أقر القرآن بالمسيح ونبوته، والقرآن كما ذكرنا سلفـاً يحكم علىٰ التاريخ، ولكن التاريخ لايحكم علىٰ القرآن.

التشكيك في أخلاق روح الله وكلمته:

ما هو أفدح وأشد إيلاما، هو أنهم تطاولوا علىٰ المسيح ومريم المجدلية هذه المرة، ونفاجأ بالذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا يدعون قصصاً من خيالات مريضة، حتىٰ ذهبوا في القرن الحادي والعشرين (عام ٢٠٠٨ م) أن ادعوا أن الموناليزا (الجيوكندا) لوحة الفنان ليوناردو دافنشي هي تصوير لمريم المجدلية عشيقة المسيح عليه السلام، وسبحان الله عما يأفكون.

٧- إلى أين ذهب المسيح مع أمه مريم

في سورة المؤمنون يقول الله تعالىٰ بالآية رقم ٥٠ (وجعلنا بن مريم وأمه آية وآويناهما إلىٰ ربوة ذات قرار ومعين).

الآيات التي جعلها الله تعالىٰ في شأن المسيح وأمه مريم عديدة، فحتىٰ مريم عليها السلام كان ميلادها آية من أم عاقر لاتنجب، وهي في حد ذاتها ثمرة دعاء أمها، وميلاد يحيىٰ بعدها كان أيضاً آية وتمهد للآية الكبرىٰ بميلاد المسيح، وحديث المولود تحت أمه لحظة ولادته آية، وقصة المسيح وقدراته سلسلة من الآيات المتتالية المتعاقبة، ومسلسل حفظ الله له آيات قد ختمها الله تعالىٰ بأن شبه للإسرئيليين بصلبه آية كبرىٰ، وأخيراً في اختفائهما معا، آية وإن لم تحظ بالدراسة والتنويه إلا مما ذكره الله تعالىٰ كما أسلفنا، وتدل الآية الكريمة إلىٰ إيواء الله لهما إلىٰ ربوة !!! فأين كانت هذه الربوة ؟

لم يذكر لنا التاريخ مصير السيدة مريم، ولم نسمع عن دور لها وسط من تبقىٰ من الحواريين، وليس هناك ولو مجرد تنويه عن دور لها، باختصار لم يكن لها دور، إذ لم يكن لها وجود بين الناس، فإلىٰ أين ذهبت ؟

يذكر لنا عباس محمود العقاد في كتابه (حياة المسيح) في صفحة ١٩١ التالي:

(ومن الأخبار التاريخية خبر لا يصح اغفاله في هذا الصدد، لأنه محل نظر كبير، وهو خبر الضريح الذي يوجد في طريق "خان يار" بعاصمة كشمير ويسمونه ضريح النبي أو ضريح عيسىٰ، وروي تاريخ الأعظمي الذي دون قبل مائتي سنة (وهو يناظر مائتين

وخمسين سنة من العصر الحالي) أن الضريح لنبي اسمه "عوس آصاف " ويتناقل أهل كشميرعن آبائهم انه قدم هذه البلاد قبل الفي سنة، وينقل المولوي محمد علىٰ في ترجمته للقرآن الكريم عن كتاب عربي يسمىٰ " إكمال الدين " محفوظ من ألف سنة ان اسم " عوس آصاف " مذكور فيه وانه رحالة ساح في بلاد كثيرة وان كتاب " برلام ديو شافاط " في صفحة ١١١ يذكر عن عوس آصاف انه صاحب " بشرىٰ " وانهم يحفظون مثلا من أمثاله في تعليمه يشبه مثل السيد المسيح عن الزرع والبذور)

هذا المكان في كشمير يقع علىٰ ربوة فهل هو قبر المسيح ؟

لانجزم بشيئ، ولكن الله أواه مع أمه إلىٰ ربوة ذات قرار ومعين، والقرار للستقرار والمعين للمعيشة وهذا لاشك فيه.

في كلمات العقاد ما يفيد أن خان يار هي عاصمة كشمير، ربما كانت كذلك قديما، ولكن بالبحث خلال الإنترنت تبين أن مدينة خان يار تقع في ولاية جامووكشمير وهي جزء من مدينة سرنجار عاصمة الولاية وهي علىٰ ربوة، وبها بحيرة ونهرا للمياه العذبة وبها من خيرات الأرض وثمارها ما يتيح للناس الاستقرار بها والاستعانة علىٰ مطالب الحياة فيها وإن كان الله قد أخبرنا بأنه سبحانه قد آواهما إلىٰ (ربوة ذات قرار ومعين) أفلا يدل هذا علىٰ المسيح وأمه عليهما السلام، كما وأن بها قبراً لنبي اسمه يوس آساف ((YUZ ASSAF !!.

وإن كان المسيح قد توجه مع أمه شرقاً، فماذا كان الهدف ؟

نعلم أن المسيح عليه السلام قال (ما بعثت إلا لخراف بني إسرائيل الضالة) والقبيلة العاشرة من بني إسرائيل وهي ضالة، إن لم تكن ضالة في العقيدة فهي ضالة في شرق الكرة الأرضية، وقد تكون ضالة في العقيدة والمكان.

في عصور السبي، فقدت القبيلة العاشرة من قبائل إسرائيل، أين ذهبت ؟، ذلك شيئ غامض لنا، ولكنه لم يكن غامضا للمسيح عليه الصلاة والسلام.

في كتب الأديان الفارسية والهندية وأهل التبت ذكرُ لرجل نحيف ولد من عذراء قد ترك غرب آسيا للتبشير بتعاليم كتاب الفيداس ((VEDAS وهو كتاب الهندوس المقدس، ونجد كذلك في غيركتب الهندوس ففي كتب البوذيين توافقا واتفاقا علىٰ أن المسيح توجه للبحث عن القبيلة العاشرة المفقودة من إسرائيل والتي تفرقت فيما يسمىٰ الآن ببلاد الأفغان وكشمير، وأبحاث الحمض النووي DNA التي تمت مؤخراً تثبت أن الشعوب

القاطنة في هذه الأماكن تحمل صفات وراثية لبني إسرائيل، بل أن هناك عشرات من القرىٰ في كشمير تحمل اسم عيسىٰ !

الفصل السادس

روما والمسيحية

روما والمسيحية (٣٤ - ٦٤١ ميلاددية)

بعد وفاة المسيح عليه السلام ورفع الله له، عمل الحواريون علىٰ تنظيم صفوفهم مرة أخرىٰ فبحث الحواريون عن يهوذا ولم يجدوه، فسارت شائعات بينهم أنه قد شنق نفسه ندما علىٰ ما أقترفه في حق سيده، ونسجت القصص بهذا الخصوص، إلا أنهم قد أيقنوا باختفائه وبعد السيد المسيح عليه السلام وأنشئت كنيسة الطريق القويم فيما يسمونه يوم العنصرة (الخمسين بعد إعتقاد صلب المسيح) والمعروفة الآن بالكنيسة الأرثوذكسية، وانقسمت الدعوة المسيحية إلىٰ مركزين دعويين

أحدهما برئاسة بطرس إلىٰ حين من الزمن حتىٰ لاقىٰ الإضطهاد من أعضاء السنهدرين الذين طالبوا برجمه لولا أن العامل الروماني خفف الحكم إلىٰ الجلد وبذلك تحققت جزئيا نبوءة المسيح للتلاميذ فبدأ يدعو خارج فلسطين وتولىٰ الرئاسة بعده جيمس (أي يعقوب) وهو أحد تلاميذ المسيح عليه السلام والمسمىٰ بأخي الرب (والعياذ بالله) وكان مقره بيت المقدس

الثانية برئاسة (بولس) الرسول وهو (شاؤول) ومُريديه ومقرها خارج فلسطين وكان بطرس ومرقص (وهوليس من الحواريين بل من السبعين الذين انتقاهم عيسىٰ عليه السلام)، وبعيدا عن سلطة الهيكل، في انطاكية وسائر بلاد الشام ومصر وآسيا الصغرىٰ والبلقان وروما وسائر أجزاء الإمبراطورية الرومانية.

كانت شعبة بيت المقدس أقرب إلىٰ المحافظة والحرص علىٰ شعائر العهد القديم ملحوظة المكانة في العالم المسيحي داخل فلسطين وخارجها من بلاد الدولة الرومانية ومليئة بالوصايا التي تحث علىٰ رعاية الشعائر الإسرائيلية وكانت الامتداد الطبيعي لدين الله منذ إبراهيم وحتىٰ عيسىٰ عليهما السلام فلم تكن هذه الشعبة تتصرف كأنها دين ينفصل عن دين إبراهيم وموسىٰ، وظلت رئاسة الدعوة المسيحية معقودة عليها حتىٰ مقتل بطرس وبولس، ثم التطورات في فلسطين، والتي أدت إلىٰ الثورة اليهودية الثالثة وما تبعها فتهدم الهيكل وتقوضت مدينة أورشليم وتبددت الجماعات في أطراف البلاد وآلت قيادة الدعوة إلىٰ شاؤول (بولس) قبل مقتله الذي عمل علىٰ نشرديانة المسيحية بين الأمم الغير يهودية وقد خلط مبادئها بالأفكار الدينية المحلية من كل بقعة بشر بها بالمسيحية فخرجت لا تحمل من المسيحية إلا اسمها وبعض الحقائق المشوهة عن رسول الله عيسىٰ عليه السلام

والممزوجة بالديانات الوضعية وهي الشعبة التىٰ كانت تعمل وتوجه من خارج فلسطين واختلف الإسلوب كما اختلف توجه الخطاب، فبعد أن كانت مقصورة علىٰ اليهود وحدهم- كما أوصاهم المسيح - صارت لكل الأمم، وتحولت الدعوة لدين الله من الإكمال الذي بدأه المسيح، إلىٰ التأثر بالمعبودات المحلية وفلكلورات شعبية لا حصر لها وتشكيل دين جديد هو دين بولس، ومن وضعه وتوليفه فيستخدم العهد القديم فيما يحلو له ويدس علىٰ أفعال وأقوال المسيح نصوصا وتفسيرات تتلائم مع المعبودات والعقائد المحلية في كل مجتمع، وبالتالي عم التضليل فشاؤل، قد فرىٰ فرية عزرا أو أشد علىٰ الديانة المسيحية.

١- تلاميذ المسيح عليه السلام والأناجيل:

يقول الله في سورة الحديد الآية ٢٧

(ثم قفينا علىٰ آثارهم برسلنا وقفينا بعيسىٰ بن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون)

تلاميذ المسيح

- الحواريون هم أولئك الذين آمنوا بالمسيح وعاونوه وتتلمذوا علىٰ يديه وعددهم اثنا عشر كما ذكرناهم سلفا.
- وهناك الرسل السبعون وهم الذين اختارهم المسيح وأرسلهم ليعلموا الناس.
- وهناك المائة والعشرون الذين خطب فيهم بطرس خطابا امتثلوا بعده بالروح القدس وراحوا يدعون إلىٰ المسيحية وعن طريقهم أختير من بينهم متياس بديلا عن يهوذا الخائن فأكمل بطرس الإثني عشر.

كان من تبقىٰ من التلاميذ يؤمنون بأن المسيح سيعود إليهم بعد قليل - خاصة بعدما رأوه بعد صلب يهوذا - ليقيم ملكوت الله علىٰ الأرض - ولم تحل هذه العقيدة من التمسك باليهودية واستمروا في هداية اليهود إلىٰ تعاليم المسيحية ولما كثر عددهم وتضاعف في سنوات معدودة حتىٰ وصل عددهم في فلسطين إلىٰ ثمانية آلاف مؤمن، استولىٰ القلق علىٰ الكهنة فبدأت مطاردة بطرس والقبض عليه لإعدامه والآخرين معه لكن

(جمال إيل) خفف الحكم إلىٰ الجلد، وبعد تنفيذ الحكم فر أغلبهم بقيادة إصطفانوس إلىٰ السامرة وأنطاكية وهدىٰ فيليبوس عددا كبيرا في السامرة وقيصرية ومرقص ذهب ليكرز في مصر ولاقىٰ نجاحا كبيرا في زمن قياسي إلا أن الوثنيين لم يمهلوه طويلا وقتلوه عام ٦٨ ميلادية، كما أوجد يوحنا جالية مسيحية قوية في أفسوس وبينما كان بطرس يحمل تعاليم المسيح إلىٰ البلدات اليهودية وسورية وفي عام ٤١ ميلادية قتل يعقوب بن زبيدي فتم القبض علىٰ بطرس ولكنه فر وشق طريقه إلىٰ روما وكانت له اليد الطولىٰ في إنشاء جالية مسيحية فيها زمن نيرون ولكن نيرون القىٰ القبض علىٰ بطرس لصلبه عام ٦٤ ميلادية في نفس المكان الذي بنيت عليه الكنيسة التي تحمل اسمه لليوم وبغياب بطرس من أورشليم صار يعقوب العادل رئيس الجماعة في أورشليم بعد أن قل عدد المؤمنين وقلت مواردهم لمدة سبعة أعوام ثم قتل يعقوب العادل (جيمس) نفسه عام ٦٢

بعد أربعة أعوام (٦٦م) نشبت الثورة اليهودية الثالثة ودمر المعبد (٧٠ م) علىٰ يد طيتس (تايتوس)، عقابا من الدولة الرومانية لليهود. أيقن المسيحيون أن نهاية العالم قد اقتربت، وأحسوا بسعادة غامرة لتدمير الهيكل كما تنبأ المسيح وقرب عودته كما اعتقدوا، وخرجوا من المدينة وأقاموا في بلاد الوثنيين الضالعة مع روما علىٰ الضفة الشرقية لنهر الأردن (٧٨)، فشعر اليهود بالحقد علىٰ من فرحوا بتدمير الهيكل واعتبروهم قد خرجوا من ملة اليهود، وافترقت اليهودية والمسيحية منذ تلك الساعة، واتقدت نار الحقد بين أتباع الديانتين، وكان المسيحيين السريان - الإبيونيم (الفقراء) - يجمعون بين التقشف المسيحي والناموس اليهودي حتىٰ القرن الثاني الميلادي، إلا أن الكنيسة المسيحية حكمت عليهم بالكفر، ولم تدم المسيحية اليهودية أكثر من القرن الخامس الميلادي- كما نادىٰ بها المسيح وتلاميذه وعلىٰ رأسهم بطرس - إذ كافح أتباع الطريق القويم منذ عهد الحواريين حتىٰ عصر آريوس ونسطورس، أما تعاليم بولس للمسيحية الوثنية فهي التي سادت.

---

(٧٨)في هدا الوقت فر فتيه آمنوا بالمسيحية من مطاردة اليهود والرومان ولجأوا إلىٰ كهف مكثوا فيه سنين مذكورة في القرآن حسابيا ،كان في هذا الزمن عام ٦٢ ميلادية إذ كما نعلم أن الله أعثر الناس عليهم بعد لجوئهم للكهف بثلاثمائه عام شمسي (٣٠٩ عاما قمريا) أي بعد أن غلب المسيحيون علىٰ الأمر وبعثهم الله بمعجزة تشهدللخالق بقدرته علىٰ البعث الدي شكك فيه الملاحدة عبر التاريخ كالمؤرخ البريطانىٰ إدوارد جيبون في كتابه (سقوط روما وانحطاطها) واعتبرها من الخرافات معلقا علىٰ مصدر مسيحي وحيد يدكرها بقصة (النائمون السبعة)، ثم جاءت الكشوف الأثرية عام ١٩٥٣ بإثبات وجود الكهف في قرية الرجيب (وهي تحريف لكلمة الرقيم) من أرض البلقاء بالأردن والعثور علىٰ بقايا أهل الكهف وعظام كلبهم اسفل مبنىٰ يعتقد كونه معبدا أو مسجدا

أما عن الأناجيل

فهناك أناجيل قد اختفت تماما لأسباب تتعلق بإرضاء الحكام منذ القرن الرابع الميلادي بغية تسييس المسيحية مثل إنجيل المسيح وأخرىٰ اختفت جزئيا مثل إنجيل برنابا الذىٰ كتبه في الحبشة وأناجيل قد حذف منها وأضيف إليها مثل إنجيلي مرقص ومتىٰ العشار إلا أننا نجد في [رسالة يعقوب ٤:١١-١٧] التي أفلتت من التدمير كلمات تعلمها من المسيح بها عظات سهلة دون صناعة تكلف أو زخرف تتشابه مع ما هو مذكور بالقرآن مثل قول يعقوب (لا يذم بعضكم بعضا فمن أنت حتىٰ تدين غيرك) وقو مقارب في المعنىٰ لقول الله في القرآن (لا يسخرقوم من قوم عسىٰ أن يكونوا خيرا منهم) وقوله (هلموا الآن أيها القائلون نذهب اليوم أو غدا عوضا أن تقولوا إن شاء الله)وهو مقارب لقول الله تعالىٰ (لاتقولن لشيئ إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله) .

يقول الله في سورة آل عمران (الآية ١٩) (إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب)

أما عن إنجيل لوقا الذي ينسب انجيله كله لبولس(٧٩) وهو تلميذ بولس، ورسائل الرسل التي وضعها لوقا أيضا وإنجيل يوحنا هو الذي نص صراحة علىٰ الوهية المسيح (وهو ليس حواري المسيح يوحنا بن زبدي) بل تلميذ بولس ورسائله الثلاثة ورؤيا يوحنا، ورسائل بولس الأربعة عشر، فكلها من وضع وتوجيه بولس.

ويقول الفريد جارفي (إن فلسفة الإغريق والقانون الروماني جعلا الإنجيل لا يمثل حقيقته كما أثرا في تدوينه، والباحث المنصف في تاريخ الكنيسة لا يستطيع ولو للحظة أن ينكر أن آراءً مزيفة، وأغراضا غير كريمة، ومقاصد خاطئة، كانت أسبابا رئيسية مسيطرة أحيانا، دفعت إلىٰ هذا التبديل الذي حدث في الأناجيل).

٢- بولس والمسيحية: (بولس الرسول)

هو المؤسس الحقيقي لمسيحية اليوم(٨٠) وقد نشأ في مدينة طرسوس السورية التي كانت الديانة المثراسية مسيطرة عليها بأساطيرها، يذكرشاءول (بولس)عن نفسه قوله (أنا

(٧٩)الأب بولس إلياس: يسوع المسيح ص ٢١

p. 634.5 Encyclopaedia of Relegions and Ethics Volume:Alfred E. Grarvie

(٨٠) يقول بيري (Berry) أنه هو في الحقيقة مؤسس المسيحية، ويقول ويلز (WELLS) إن كثير من الثقاة العصريين يعدونه المؤسس الحقيقي للمسيحية Outline of History Volume 3 p 695 ونحن نراه شبيها بمسيلمة الكذاب الذي ادعىٰ النبوة قبل وبعد وفاة رسول الله محمد صلىٰ الله عليه وسلم لولا أنه وجد من يصدقه ولم يحد من يمنعه

فريسي بن فريسي علىٰ رجاء قيام الأموات) [أعمال الرسل ٢٣:٦] وقد كان كفريسي متحمس أكبر مضطهد للمسيحيين من أتباع حوارييٰ المسيح وتلاميذه، يقتلهم يسطو علىٰ الكنيسة ويدخل البيوت، يجر رجالا ونساءا ويسلمهم للسجن [أعمال الرسل ٧:٦٠، ٨:٣] مستغلا كونه من مواطني الدولة الرومانية ولا يطبق عليه القانون إذا ما فعل ذلك (من رعايا الدولة العظمىٰ وله حصانة) وبقي علىٰ هذا سنوات حتىٰ إذا ما كان عام ٣٨ ميلادية في عهد الإمبراطور الروماني كاليجولا (٣٧- ٤١ م) أراد أن يستأصل المسيحية فتقدم يوما إلىٰ رئيس الكهنة وطلب منه رسالة إلىٰ دمشق - إلىٰ الجماعات - حتىٰ إذا ما وجد أناساً في الطريق يسوقهم موثقين إلىٰ أورشليم [أعمال الرسل -٢ - ٩:١]

في الطريق إلىٰ دمشق (حسب ما رواه) بغته برق حوله نورمن السماوات فسقط علىٰ الأرض وسمع صوتا قائلا: شاءول، شاءول لماذا تضطهدني؟

فقال من أنت ؟ قال الصوت أنا الرب يسوع الذي تضطهده فقال وماذا تريد أن أفعل؟

قال الصوت: قم وكرز بالمسيحية

وللوقت جعل يكرز في المجامع بالمسيح أن هذا هوالرب وابن الله [أعمال الرسل ٣:٩ - ٢٠] ودخل بولس المسيحية وأصبح معلما لها وكانت هذه هي المرة الأولىٰ التي يُنادىٰ بها المسيح علىٰ أنه الرب وابن الله وأصبح مروجا للفكرة ومعلما لها ولكن السؤال من علمه مبادئ المسيح وهو لم يلتق بالمسيح ؟

وكان لتلك المعضلة حلا سهلا شبيها بفريته الأولىٰ إذ يقول (أعرفكم أيها الأخوة أن الإنجيل الذي بشرت به، أنه ليس بحسب إنسان لأني لم أقبله من عند إنسان ولاعُلمته، بل بإعلان يسوع المسيح) [غلاطية ١: ١١-١٢]

هكذا استطاع هذا الطموح أن يدخل نفسه في زمرة الحواريين بل ويتفوق عليهم إذ ينفرد بالحديث المتواصل مع المسيح، بل وملك الحق الأوحد في الحديث عن المسيح مقررا ما يعن له من تشريع، ومعتمدا علىٰ نفسه إعتمادا كليا إلا أنه قد احتاج في بداية نشاطاته لتحقيق أحلامه إلىٰ شكل من أشكال الشرعية من الكنيسة فذهب للكنيسة والتقىٰ بمن تبقىٰ من الحواريين والتلاميذ والمؤمنين بالمسيح معلنا إيمانه وبما افتراه فاستخف الطرب بالعامة أما أغلب التلاميذ فتشككوا في فريته لكن برنابا دافع عنه وأحسن تقديمه إلىٰ هؤلاء وأصبح أخلص حواري له هو و (لوقا) الذي كتب أعمال الرسل (وهي في الحقيقة قصة حياة بولس) وانجيل لوقا الذي ينسب لبولس وحده

ووسط ادعاءات بولس أنه الوحيد الذي ائتمنه المسيح علىٰ المسيحية الصحيحة [غلاطية ١:١١ – ١٢] وهو الذي أقر بتغييرات تتميز بالتوليف والتوفيق بين المسيحية التىٰ أنزلها الله وبين الأديان المحلية والشعبية الفلكلورية، التي انتشرت في العالم الوثني زمن المسيح عليه السلام وقبله، فتصدرت المعتقدات المثراسية التي نشأ بولس متأثرا بها، ونلاحظ أن المثراسية القائمةعلىٰ عبادة الشمس حيث أن يومهم المقدس الإسبوعي هو يوم الشمس (الأحد Sunday)وخلطها باليهودية، لخلفيته الفريسية اليهودية وحتىٰ يجذب له العامة من اليهود في فلسطين ومن هم في روما وباقي الأصقاع، ولا مانع من المعتقدات اليونانية الهيلينية وفلسفاتها المتأثرة بفيلو الفيلسوف اليهودىٰ المصري.

وعلىٰ ذكر مصر فقد كانت اسطورة إيزيس وأوزوريس وحورس والمنتشرة في أوروبا خير مساعد له في اجتذاب المولعين بها في العالم القديم سواء في مصر أوفي جنوب أوروبا وكان قد روج إلىٰ مقولته الجديدة بأن المسيح هو الرب وهو ابن الله ولكن الترويكا احتاجت لإله ثالث فلم يعدم وسيلة إذ اعتبر أن الروح القدس هو الإله الثالث (عد إلىٰ صفحة ٦١ & ٦٢ التلمود البابلي والتوراة البابلية التزويرالأول)

بعد الفتح الإغريقي أصبحت الإسكندرية مركز الحياة الدينية للعالم الهيلليني الإغريقي وكان بطليموس يعد الآلهة الثلاثة إلها واحدا (٨١) كما يقول ويلز في كتابه وبالطبع عمدت مهارة بولس إلىٰ تجنب الإصطدام بالسادة الرومان فجعل طاعتهم دينا كإطاعة المسيح فراح قائلا:

(يا أيها العبيد أطيعوا أسيادكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح) [إفسس ٦: ٥ – ٧ & نيموثاوس الأول ٦: ١ & تيطس ٣: ١]

كان أول مؤيد له هو برنابا ولكنه قد أختلف معه كما اختلف معه المسيحيين الحقيقيين بعد أن ظهرت اتجاهاته وفي ذلك يقول بولس: (حتىٰ أن برنابا أيضا انقاد إلىٰ رياء الآخرين)[غلاطية ٢:٣] كان هناك صراعا مستترا وآخر واضحا بين بين بولس وأنصاره من ناحية وبين حواريي المسيح والمسيحيين الحقيقيين من ناحية أخرىٰ امتد قرونا بعد وفاة بولس

A SHORT HISTORY OF THE WORLD page 169(٨١)

ففي جانب بولس كانت قلة قليلة من المثقفين وكثرة ساحقة من الغوغاء والعامة بالإضافة إلىٰ الطبقة الحاكمة التي أعجبها توجه بولس إلىٰ الطاعة وحث أتباعه عليها وفي الجانب الآخر كان في جانب المسيحيين الحقيقيين كثرة من أولو الألباب والمثقفين المسيحيين وقلة من الغوغاء والعامة مع انعدام لطبقة السياسيين والحكام بينهم ربما يرجع ذلك إلىٰ الطلاق الأبدي ما بين السلطة الحاكمة والثروة من جانب، وبينها وبين النقاء من جانب آخر

أيدت القوة والسلطة الرومانية مسيحية بولس في نهاية القرن الرابع الميلادي وحاربت ما سواها خاصة، وأن كل من مصروآسيا الصغرىٰ واليونان كانت تؤمن بالآلهة (أوزوريس، أتيس وديونشس) التي ماتت لتفتدي بني الإنسان مطلقة عليها لفظ المنجي والمنقذ الي أطلقه بولس علىٰ المسيح(٨٢) وخاصة لفظ كريوس (Kyrios) أما سوريا ذات الحضارة الفينيقية فالإله بعل والإله مثرا نسجت عنهما أساطير نسجت عن المسيح أساطير مثلها تضاهيها

٣- فترات السبي وأثرها علي فكر اليهود وعلى سائر الديانات:

كان اليهود قد تأثروا بالعبادات والأساطير المحلية في بابل وما جاورها وخاصة تأثرهم (ببعل) إله البابليين، وكان (مثرا أو متراس) إله الفرس المنقذ والمخلص من ضمن ما تأثروا به، وهىٰ تلك الديانة التي ازدهرت في فارس المجاورة لبابل قبل الميلاد بنحو ستة قرون أي في نفس فترة السبي البابلي لليهود فأوائل المسيحيون كانوا يهودا متأثرين بخرافات الآلهة بعل ومثرا وحينما كتب يوحنا في أواخر القرن األأول الميلادي إنجيله وفي صدره تمهيدا فلسفيا كتب بعده بولس إنجيله مازجا فيه الأمثلة الدينية بصور الفلسفة ولاسيما فلسفات الحلول ولا مانع أيضا من المغالاة بتأليه المسيح متبعين الأفكر الوثنية(٨٣)

---

(٨٢)قصة الحضارة – قيصر والمسيح –المجلد السادس – الجزء ١١ – وول ديورانت.

(٨٣)في سورة النساءبالآية ١٧١ (ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا علىٰ الله إلا الحق)، وفي سورة المائدة بالآية ٧٧ (قل ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل) مقتطفات من كتاب (الله- كتاب في نشأة العقيدة) لعباس محمود العقاد – دار المعارف بالقاهرة صفحات من ١٦٧ –١٧٥.

فكان الإنجيلان معا مثار البحث بين جماعات التفسير وجماعات النصوص وأتىٰ أقوىٰ هؤلاء المفسرين وأبعدهم أثرا أوريجين إبن الشهيد ليونيداس الذي ولد بالإسكندرية عام ١٨٥ ميلادية وتعلم علىٰ يد الفيلسوف آمون ساكاس - المؤمن بثالوث الآلهة- معلم أفلوطين (المولود في اسيوط بصعيد مصر) المشهور وكان أوريجين من غلاة النساك المتعبدين فقام بالتوفيق بين ما تعلمه من آمون ساكاس وبين نصوص الأناجيل ولاسيما النصوص التىٰ يمكن تأويلها في مسألة بنوة المسيح ودلالات الثالوث والتوحيد، وخلف أوريجين، تلميذان قويان هما آريوس المصري ونسطور السوري فمضيا في التفسير والتأويل والتوفيق فخرج آريوس بنتيجة مؤداها أن المسيح إنسان حادث ونبي نافيا عنه صفة الألوهية، أما نسطور فخرج بالطبيعة الإلهية للمسيح ودخلت السياسة في هذا الخلاف فدفعت به إلىٰ أقصىٰ مداه ولم تفصل المجامع (نيقية – أفسس – خلقيدونية) في موضوع هذه التفسيرات.

ولقد ضلت طوائف من المسلمين نفس الضلال الذي ضلته المسيحية إذ أثر عبد الله بن سبأ (اليهودي الذي مارس النفاق الإيماني ولبس ثوب الإسلام في صدر دولة الخلافة مسببا الفتنة الكبرىٰ بسمومه) في عقول من استمعوا له من الخوارج أو السبئيين، فالخوارج يكفرون عليا ومن والاه، أما فريق السبئية فيؤلهون عليا بل وينكرون القول بموته، وإنما شبه للناس (هكذا) ! فقتل بن ملجم شيطانا تصور بصورة علي أما علي كرم الله وجهه فقد صعد إلىٰ السحاب!، فالرعد صوته، والبرق سوطه وموعده يوم يرجع فيه للأرض فيملؤها عدلا ويقضي علىٰ الظالمين، !!

أما البنانية (أتباع بنان بن سمعان اليهودي الفارسي) فيقولون أن روح الله قد حلت في علي ثم في إبنه محمد بن الحنفية ثم في إبنه أبي هاشم، ثم في بنان ويقولون بتناسخ الأرواح من الله إلىٰ آدم إلىٰ علي وأولاده، ويقولون كما يقول الرزامية إن الله قد حل، في إمام بعد إمام، إلىٰ أبي مسلم الخراساني صاحب إنتصارات الدعوة العباسية وإنه لم يقتل ولا يجوز عليه الموت وفيه روح الله،

ونحمد الله علىٰ محدودية تلك الفرق الإسلامية المذكورة، وليهد الله الضالين.

٤- الثورة اليهودية الثالثة ودمار المعبد:

وكما تنبأ السيد المسيح عليه السلام قبل أن يتوفاه الله ويرفعه إليه قائلا (ها هو ذا بيتكم يترك لكم خرابا) ❊فقد دمر المعبد وكان سبب هذا الدمار أن كهنة اليهود قد وافقوا علىٰ دفع الضرائب الجديدة للرومان منذ قام الرومان بتعداد السكان وطلبوا من اليهود الخضوع لهذه التعليمات إلا أن جماعة متطرفة بزعامة (يهوذا الجليلي)، حرض الناس علىٰ الثورة وقد بدأت هذه الثورة عام ٦٦ ميلادية في زمن نيرون وقامت جماعة منهم أسمت نفسها (سيكاري) بقتل دافعي الضرائب، وقامت بسرقة الأغنياء للإنفاق علىٰ دعوتهم ولم تكن هذه الثورة بأي حال من الأحوال ثورة من أجل الدين أو غيرة عليه وإنما كانت ثورة من الفقراء علىٰ الصدوقيين الأغنياء وتحديا للدولة الرومانية بسبب الفقر والمطالبة بالضرائب

تمكن الحاكم الروماني من القضاء علىٰ تلك الجماعات وقتل يهوذا إلا أن أولاده وعلىٰ رأسهم (مناحيم بن يهوذا الجليلي) عادوا لتشكيل الجماعة مرة أخرىٰ واستولوا علىٰ قلعة ماسادا الرومانية واستولوا علىٰ السلاح فيها فانضم إليهم العمونيون العرب، إلىٰ أن أرسل نيرون ٦٠,٠٠٠ جندي وعلىٰ رأسهم فاسباستيان عام ٦٧ ميلادية فانبرىٰ الأسرىٰ العبيد من اليهود المتواجدين في روما إلىٰ حرق مدينة روما عام ٦٨

قام الإمبراطور (نيرون الذي حكم من ٥٤- ٦٨ م) وهو من نسل أغسطس، سارع بمواساة الشعب وقام بإعادة بناء روما بكثير من البذخ إلىٰ الحد الذي دفعه لزيادة الضرائب والإستيلاء علىٰ كنوز المعابد

والحقيقة أنه كان يؤمن بأنه فنان وشاعر مرهف الحس، فاقترب من حافة الجنون، وتطورت الأمور معه وجعل يحرق المسيحيين علنا أمام أعين المشاهدين إلىٰ أن قتل زوجته ومعارضيه، وبازدياد هوسه انقلب عليه مجلس الشيوخ ففرنيرون وانتحر. تولىٰ الإمبراطورية تيسوس (٦٨- ٨١ م) وتوقفت الأعمال الحربية بسبب هذا الانتحار وترك فاسبستيان - بعد أن اختير ليصبح حاكم روما الجديد - ابنه (تايتوس) لقيادة الجيش

وبعد أن كان الكهنة يتعهدون بجمع الضرائب من مواطنيهم اليهود، تشجعوا بعد نجاحهم في حرق روما وانتحار نيرون وشعروا بأن مخلصهم آت ولا محالة، وأن الله سينصرهم بمعجزة، فانضموا إلىٰ الثوار ويقول المؤرخ اليهودي المصري يوسفيوس

والذي عاصر هذه الفترة ودعا اليهود إلىٰ الاستسلام فقد ذكر في الكتاب السادس من مجموعة (حرب اليهود) أن الذي دفع اليهود إلىٰ تحدي روما

" بسبب نبوءة غير مفهومة كانت موجودة في كتبهم المقدسة تقول بأن في ذلك الوقت سيخرج رجلا من بلادهم ليصبح حاكما للعالم المسكون، وكثير من الحكماء خدعوا أنفسهم نتيجة فهمهم الخاطئ "

وهدم الرومان أسوار وأبواب القدس بقذائف الحجارة ويقول يوسوفيوس بأن اليهود أنفسهم قاموا بإشعال النيران في المدينة ورفض الجنود الرومان إطفاء النيران التي راحت تنتشر في المعبد رغبة منهم في سلب مخازن المعبد من ذهب وفضة وهكذا تم تدمير المعبد عام ٧٠ ميلادية، تعمد الرومان إقامة آلهتهم مكان المعبد وحرث الرومان أساس الهيكل - وعودة لمبالغات اليهود يذكر يوسفيوس المؤرخ اليهودي أن الرومان قتلوا مليون يهودي (يتحفظ الكاتب علىٰ الرقم) وأسروا وأرسلوا ٩٩ ألفا لروما المكتظة بهم!، فترىٰ كم كان عددهم قبل الهزيمة - وضم طيتس أورشليم إلىٰ ولاية سوريا التىٰ باعوا فيها الغنائم من الأسرىٰ اليهود وأمر تاتيوس (طيتوس) بإعدام الكهنة وحرق ما تبقىٰ من مباني القدس فر البعض إلىٰ مختلف البلدان ومنهم من فر للجزيرة العربية وهم العيسويين

قام ٩٦٠ يهودي من الثوار بالتوجه إلىٰ قلعة ماسادا وقاوموا أربع سنوات ولما أدركوا أن لا أمل إلا الاستسلام انتحروا انتحارا جماعيا ولم ينج منهم إلا امرأتان وأربعه اطفال وتحققت نبوءة السيد المسيح عن خراب الهيكل وعن الشتات (يقعون بحد السيف ويسبون إلىٰ جميع الأمم)(٨٤)

هذه رؤية الكاتب الشخصية وتفسيره لما حدث في حريق روما الذي اتهم فيه نيرون ظلما.

٥- الثورة اليهودية الرابعة:

وهي من أغرب قصص التمرد فعلىٰ الرغم من مجيء رسول الله عيسىٰ إلا أن اليهود،

كانوا لا يزالون ينتظرون مسيحا يخلصهم وهو ما ذكره يوسفيوس عن زعيم مصري سماه "النبي الكذاب"

---

(٨٤) (متىٰ ٢٤، لوقا٤٣-٢١) من مقالة د.مكاري أرمنيوس سرور (باحث في التاريخ القبطي).

هذا النبي الكذاب استطاع جمع ثلاثين ألفا من اليهود حوله في الجبال استعدادا للهجوم علىٰ القدس وأعلن أن باستطاعته تدمير القدس والمعبد وإعادة البناء في ثلاثة أيام، تقليدا لما قاله المسيح

(في عهد الإمبراطور الروماني أومينان من ٨١-٩٦ م) خرج له فيليكس علىٰ رأس فرقة عسكرية وانضم إليه عدد كبير من اليهود وهزمه وأسر عدد كبير من الثوار أما المصري فقد فر مع مجموعة من أتباعه وعلىٰ الرغم من عدم أهمية هذه القصة في السياق التاريخي لهذه الحقبة إلا أنني رأيت ضرورة ذكرها لتوضيح المحنة الإيمانية التي عانىٰ منها أولئك الذين لا يزالون حيارىٰ بين الطفولة الإيمانية والحضارية والنضج الإيماني والحضاري، فاليهود والمسيحيين كانوا يمثلون معا الأمة المؤمنة الوحيدة بين بني البشر، وكانوا يدركون تميزهم الإيماني عن سائر خلق الله، وكانت معجزات موسىٰ عليه السلام بالنسبة إليهم هي المقياس الذي يقيسون به ما يمكن أن يأتي من الله فإذا نظرنا للآيات التي أمد الله بها موسىٰ، أو سليمان وجدناها آيات قد مكنته ومكنت شعب إسرائيل من إلحاق الضرر بالدولة الفرعونية وبالفرعون نفسه، وكذلك بنجاتهم من الأسر والعبودية بل من الجوع والعطش بسيناء، أو علىٰ أقل تقدير سيادة اليهود علىٰ أرض الميعاد، أما مجيء عيسىٰ عليه السلام بآيات روحية كإحياء الموتىٰ وشفاء الأكمه والأبرص وغيرها، فلم تكن- في نظرهم قصير الأمد- إلا أعمالا سحريه لا تحقق لهم أمل سيادة العالم أو حتىٰ سيادتهم علىٰ أرض الميعاد، فكان الإحباط من نصيبهم

جاء ذلك النبي الكذاب من يهود مصر وأعلن استطاعته تدمير القدس والمعبد وإعادة البناء في ثلاثة أيام آمنوا به، فهم ينتظرون ملكا كسليمان قادر علىٰ معجزات تخلصهم وتسيدهم بسهولة علىٰ من حولهم، ولا ينتظرون الهداية.

حاول اليهود بعدها استرداد القدس عدة مرات كما سنرىٰ في آحداث الثورات المتتابعة مما يؤكد المبالغات الرقمية والانفعالية للمؤرخين اليهود

٦- الثورة اليهودية الخامسة:

ما بين سنة ١١٥-١١٧ للميلاد (في عهد الإمبراطور الروماني تراجان ٩٦- ١١٦ م) فإن يهود الإسكندرية وليبيا الذين استوطنوا علىٰ الساحل الليبي المصري في منطقة كانت تسمىٰ (سيرينيكا) وتقع شمال غرب مصر بدءا من الإسكندرية وحتىٰ بني غازي وكذلك

يهود قورنيه وقبرص - في عهد الإمبراطور تراجان قد قاموا بثورة دمروا فيها منازل الأهالي ونهبوها كما قاموا بتدمير المعابد الإغريقية والمصرية ويقتلون كل من ليس يهوديا فقتلوا حسب رواية المؤرخ ديو ٢٢٠,٠٠٠في قورنية و٢٤٠,٠٠٠ في قبرص و١٥٥,٠٠٠ في الإسكندرية وليبيا، فتصدت لهم الحامية الرومانية وساند المصريون الرومان دفاعا عن أنفسهم ومعابدهم ومنازلهم، وانتهت الثورة في عهد هادريان الذي أتىٰ بنفسه لمصر للقضاء علىٰ ثورة اليهود بها وبنىٰ معبد سرابيس(٨٥) (وهو معبود وثني مصري) بدلا من الذي هدم، وتم استعباد الآلاف من الثوار اليهود الجدد في روما التي أصبحت تعج بهم.

٧- الثورة اليهودية السادسة (باركوكيبا):

ظلت مدينة أورشاليم بعد تدميرها وتدمير الهيكل لمدة واحد وستين عاما أنقاضا لا يسكنها أحد، إلىٰ أن زارها الإمبراطور الروماني هادريان عام ١٣٠ ميلادية (١١٦ – ١٣٨ م)، وقرر لذلك إعادة بناءها، وأطلق عليها "إيليا كابيتولينا" وأقيم معبد لإله الحرب الروماني جوبيتر فوق أرض المعبد اليهودي القديم ونظرا لتسامح الرومان الديني إلا تجاه اليهود هذه المرة، وأقيم معبدا آخر لفينوس وآخر لجونو (هذه المعابد هدمت في القرن الرابع الميلادي بعد أن آمن قسطنطين بالمسيحية في القرن الرابع الميلادي) وعاد اليهود عام ١٣٢ ميلادية للقدس وسرعان ما قاموا بثورة جديدة ضد الرومان قادها "سمعون بن كوسيبا"أو سمعان بن كساب الذي أطلقوا عليه "باركوكيبا"، أي ابن النجم أوالإبن البار للكوكب ووأعلن أنه المسيح المنتظر واستمرت هذه الثورة من ١٣٢ حتىٰ ١٣٥ ميلادية، فقضىٰ الرومان علىٰ الثورة وقتلوا باركوكيبا وأتباعه وتم بيع باقي اليهود كعبيد في بلاد الرومان، وحرم الإمبراطور هادريان علىٰ اليهود والمسيحيين من أصل يهودي دخول منطقة القدس منذ ذلك الوقت وبانتشار اليهود والمسيحيين من أصل يهودي كأسرىٰ في مختلف أرجاء الإمبراطورية الرومانية صار أكثرهم كرديف ووقود لانتشار المسيحية في الدولة الرومانية فيما بعد، وبدأ اليهود نغمة عداء السامية، رغم أن أغلب من يحيطون بهم كانوا من العرب الساميين، وقد حاول اليهود بعد قرنين عام ٣٦٠ م في عهد يوليانوس الذىٰ ارتد عن المسيحية أن يتحدىٰ نبوءة المسيح ويعيد بناء الهيكل إلا أن الله غالب علىٰ أمره فقد أعلن الفرس

---

(٨٥)الموسوعة المصرية: تاريخ مصر القديم وآثارها – العصر اليوناني الروماني المجلد الأول – الجزء الثاني ١٩٧٨

ظل هذا التحريم قائما حتىٰ زمن عبد الملك بن مروان وقد أخطأ في قراره حيث تم تسليم القدس لعمر بن الخطاب رضي الله عنه بشرط إبعاد اليهود عنها.

يحاول اليهود في القرن الحادي والعشرين ميلادية بناء هذا المعبد

الحرب علىٰ روما وسقط يوليانوس في القتال وفشلت جهود تحدي نبوءة السيد المسيح عليه السلام

٨-المسيحية وعصر الشهداء

كان رد فعل جميع الأباطرة الرومان هو القتل والتنكيل للمؤمنين بالدين الجديد رغم ما عرف عنهم من تسامح في المعتقدات إلا أن ثورات اليهود وحرقهم لروما إلي جانب إعتبار اليهود والمسيحيين ديانة واحدة جعلت أباطرة الرومان ينحون هذا النحو إلا أن اضطهاد المسيحيين قد بلغ أقصاه في عهد الإمبراطور الروماني (دقلديانوس) والذي حكم الإمبراطورية من عام ٢٨٤-٣٠٥ م خاصة بعدما لوحظ من إنتشارالمسيحية بين سكان الإمبراطورية في السر، ومن غير اليهود وفي سوريا ومصر بالتحديد والتي هي المورد الرئيسي للغلال للإمبراطورية، وقد حاول أخيليوس الإستقلال بمصر وإعلان نفسه ملكا عليها، ولما رؤي إستحالة تهجيرالمسيحيين الجدد من جميع أرجاء الإمبراطورية فكان الإضطهاد والحرق والعنف هو الحل البديل، وعلىٰ الرغم من القسوة البالغة إلا أن المسيحية المسالمة والمقهورة ازدادت إنتشارا بعد أن تشكلت الطقوس الكنسية والفكرة الفلسفية التي بدأ تصوراتها بولس واكتملت من بعده، بفسيفساء دينىٰ من كل الثقافات المحيطة، وقبل القرن الثالث الميلادي، كان- كما يذكر لنا وول ديورانت - ٢٥٪ من من سكان الشرق الإمبراطورية و٥٪ من سكان غربها من المسيحيين، وكانت الجالية المسيحية في روما وحدها مكونة من ١٠٠ الف روماني وفي قرطاجة كان ترتليان المولود في قرطاجنه عام ١٦٠ م وابن أحد القواد الرومان الذي اعتنق المسيحية ثم ارتد عنها علىٰ الرغم من انتشار المسيحية في افريقيا، ومنذ بدء الدعوة للمسيحية، وهم ينتظرون عودة المسيح بعد قليل وبعد حريق روما ومقتل نيرون، توقعوا عودته خلال عام، ولما لم يتحقق هذا، ساد شعور الإحباط فقيل في رسالة منسوبة إلىٰ برنابا أن المسيح سيعود خلال ألف عام، حين يفنىٰ اليهود عن آخرهم، وكانت تلك المقولة هي التي أقامت صرح المسيحية بعدها، وظل السوريون يعبدون بعل، واستمر المصريون يعبدون إيزيس وآلهتهم الحيوانية العديدة

بإخلاص وولاء، واحتفظ إيزيس ومثرا بالأتباع من الغالبية حتىٰ نهاية القرن الرابع الميلادي واستمروا كأقلية بعدها حتىٰ القرن الثامن الميلادي (بعد ظهور الإسلام) واستمرت القرابين تذبح لجوبيتر في روما وسائر آلهة الرومان القديمة، لكن هذه الأديان القديمة فقدت حيويتها بالتدريج ،و بعد العديد من المصائب التي عمت الإمبراطورية الرومانية كثر اللادينيون بعد أن فقدوا إرادة الحياة، وتناقصت أغلبيتهم بعد أن عمدوا إلي الإسراف في تحديد النسل وإنهاك أجسامهم بالتسري الحرام، وقتل مئات الآلاف في الحروب والقتال مع الوندال، والجرمان، والقوطيين والفرس، والحروب الأهليه، إلىٰ الحد الذي أفقد الهياكل الوثنية عبادها، وسبب وجودها وعند بدئ احتضارالوثنية، ظهر فيلسوف مصري هو أفلاطون (أفلطونيس)، وكان كما أطلق عليه مسيحيا بدون مسيح وكانت لفلسفته أبعادا روحية قبلتها المسيحية كلها تقريبا وهنا كسبت المسيحية طائفة مثقفة من المؤيدين انتشرت المسيحية في كل أرجاء الدولة الرومانية وخارجها (دولة الحيرة والغساسنة واليمن ومصروشمال إفريقيا والحبشة) وكان الإمبراطورقسطنطين أكثر من أفلاطون حكمة فأدرك أن الدين الميت لا يستطيع أن ينجي روما.

٩- قسطنطين والمسيحية (روما المسيحية):

نخرج عن السياق إن ذكرنا الفترة المملة فيما يتعلق بالفوضىٰ التي سادت الحكم في الدولة الرومانية منذ منتصف القرن الثاني الميلادي حتىٰ بداية القرن الرابع الميلادي والتي تناوب الحكم فيها عددا غفيرا من الأباطرة الفشلة والقساة إلا أن ما أن تنازل دقلديانوس ومكسميان عن الحكم في احتفال مهيب عام ٣٠٥ ميلادية وأصبح جالريوس وقنسطنطينوس إمبراطورين للشرق وللغرب، وتعيين سفيرس ومكسمنيوس قيصرين ومرت الأحداث المكررة والقائمة علىٰ الصراعات علىٰ السلطة إلىٰ أن أبقىٰ جليريوس قسطنطين إبن قنسطنطينوس رهينة عنده الذي فر من حراسه وانضم لأبيه فنودىٰ قيصرا هو الآخر

في نفس الأثناء نودي بمكسنتينوس إمبراطورا، وسادت الفوضىٰ في الدولة الرومانية، إذ أصبح في الدولة ستة أغاطسة، وبدأت التحالفات للإقلال من بعضم البعض وإذ بقسطنطين يتحالف مع ليسينيوس ضد الآخرين، ولاحظ قسطنطين أن مكسنتينوس يرفع لواء أرليان (لواء الشمس التي لا تقهر) وأن أغلب جنود

مكسنتينوس أعداءه من المسيحيين، وقسما لابأس به من جنوده كذلك، فرأىٰ أن يكسب جنود أعداءه أو يحيدهم علىٰ الأقل، أما جنوده من غير المسيحيين، فولاءهم له لايمكن أن يشوبه شائبة بحكم خبرتهم معه وخبرته معهم، ففكر في أن يأتي بلواء يضمن له النصر ولم يجد في جعبته إلا بما أتاه بولس فيستحوذ علىٰ الدولة بالدين الفتي الصاعد بين الجنود، ومن فوره ادعىٰ نفس إدعاء بولس بأنه رأىٰ في منامه (حسب رواية يوسبيوس ولكتنيوس)[٨٦]أن صوتا يأمره بأن يرسم جنوده حرف X علىٰ دروعهم وينثني في وسطه إلىٰ الأعلىٰ خطا بعلامة الصليب - والذىٰ عرف فيما بعد (باللبارم) -ورسم عليه الحرفان الأولان من اسم المسيح يربطهما صليب، وبذلك كان أغسطس أول من رفع لواء الصليب في الحروب وتحقق له مراده وانتصر قسطنطين علىٰ مكسنتيوس ودخل روما وأصبح سيد غرب الدولة بلا منازع، فالتقىٰ بحليفه ليسينيوس في ميلان وزوجه أخته واتفقا علىٰ إصدار مرسوم ميلان الشهير، الذي يؤكد علىٰ إعلان جليريوس من التسامح الديني وأعادا بهذا

المرسوم للمسيحيين أملاكهم، ورفعا الإضطهاد عنهم، وأصبحا إمبراطورين وحيدين للدولة، وبدأت مرحلة قسطنطين الثانية من العمل علىٰ الإستئثار باللقب، واتجها كل في طريقه للقضاء علىٰ باقىٰ الأغاطسة عام ٣١٤ م، وانتصر قسطنطين إلا أن ليسينيوس في رأيي أن هذه أول حرب صليبية في التاريخ ولسوف يقوم قسطنطين باستغلال هذه الراية عديدا، وينتصر.

قد هزم في الشرق (آسيا الصغرىٰ) ذات الأغلبية المسيحية بين الجنود، وهنا أحس ليسينيوس بصعود شعبية قسطنطين بين الجنود مما دفعه إلىٰ النكوص عن إعلان ميلان، وعاود اضطهاد المسيحيين في إمبراطوريته الشرقية في مصر وسوريا وآسيا الصغرىٰ، وتحقق لقسطنطين ما أراد، واستغل غزو البرابرة تراقيا واستغل عجز ليسينيوس، فتدخل قسطنطين بجيشه وانتصر عليهم، وأكمل الحرب ولكن ضد حليفه ليسينيوس هذه المرة وانتصر عليه بعد مغازلة جنود العدو باللبارم وأصبح الإمبراطور الوحيد للدولة عام ٣٢٣ميلادية، وأعلن صراحة مسيحيته ودعا الشعب إلىٰ المسيحية.

---

(٨٦)وهو كاتب تاريخ تلك الحقبة

١٠- إنتشار المسيحية بحد السيف

لم يكن قسطنطين يعني كثيرا بالتعاليم التي تتضمنها الديانة الجديدة التي اعتنقها، كانت المسيحية بالنسبة إليه وسيلة لا غاية، يأمل من خلال الدين المسالم أن يكون إمبراطورا مطلق السلطان، ذلك لأنه قد بدا له أن النظام الكنسي يقيم نظاما روحيا يناسب سلطة الدولة لإرضاء العامة وتوحيدهم تحت إمرته، فشجع الكنيسة ومنحها إعفاآت ضريبية ووراثة كل الموتىٰ الذين لا ورثة لهم، ونمت المسيحية نموا عظيما لما لها من سلطات روحية وهبات للفقراء وبدأ عهد شبه متحضر للدولة الرومانية، إلا أن قسطنطين لم يحسب حساب الإنشقاقات الفكرية والروحية الكامنة في فهم الدين الذي لم يشغل نفسه في التعمق فيه، وقبل مضي عام واحد أصر أساقفة غرناطة علىٰ طرد الأساقفة في أرجاء الدولة الذين سلموا الكتاب المقدس للشرطة الرومانية قبل إعلان مسيحية الدولة وبدأ الشقاق .وفي هذه السنين نفسها كان هناك قسا آخرمن الإسكندرية هو آريوس[٨٧]وكانت شعبيته طاغية في مصر، لم يكن يؤمن بألوهية المسيح، أوبالإله الثلاثي ولم ير المسيح إلا كنبي قد خلت من قبله الرسل، وانتشرت هذه الدعوة انتشارا حادا بين المسيحيين في مصر وسائر أرجاء الإمبراطورية وخاصة بين رجال الدين، إذ جاءت ردا علىٰ تهكمات الوثنيين علىٰ المسيحية، الذين لم يروا في الدين الجديد، إلا تقليد الديانات الوثنية التي هم عليها، فقررالأسقف الكسندر تجريد آريوس وأتباعه، فتدخل قسطنطين، وأرسل رسالة إلىٰ آريوس، وإلىٰ الكسندر يناشدهما التوفيق فلما رفضا، عقد مؤتمرا في نيقية عام ٣٢٥ ميلادية تقررفيها طرد ولعنة وحرمان آريوس ومؤيدية من الكنيسة ونفاهم وانتهىٰ الأمر بقتلهم ولم تكد الكنيسة تظفر علىٰ أعداءها حتىٰ امتنعت بقوة سلاح الإمبراطورية عن المناداة بالتسامح.

وعلىٰ الرغم من ذلك، فقد أحرزت الآريوسية انتصارات عديدة مؤزة في الأوساط الشعبية لدىٰ من آمن بالمسيحية في أوروبا ومصر وسوريا وشمال إفريقيا وتراقية وعلىٰ الرغم من ذلك، فقد أحرزت الآريوسية انتصارات عديدة مؤزة في الأوساط الشعبية لدىٰ من آمن بالمسيحية في أوروبا ومصر وسوريا وشمال إفريقيا وتراقية موطن القوط الغربيين،

(٨٧)آريوس كاهن مصري حذا حذوه نسطورس بعده باعتبار مريم بشر فهي أم نبىٰ الله عيسىٰ الذىٰ هو ليس إلاها فالبشر من النساء لا يلدن آلهة – كان نسطور بالشام له نفس الرؤية بعد قرن

وانحدر منهم الجرمان، وبذلك كانت كل القبائل التي غزت روما فيما بعد تقريبا من الآريوسيين وكانت الممالك التي أقاموها تدين بالآريوسية في البلقان وغالة وأسبانيا وإيطليا وافريقيا من الناحية الرسمية حتىٰ القرن السادس الميلادي كما أخفىٰ العديد من المصريين والسوريين معتقدهم الآريوسي أو النسطوري خوفا من بطش الدولة الرومانية، والذي استمر من القرن الرابع حتىٰ القرن السابع الميلادي زمن الفتح الإسلامي، كانت الشعوب الرازخة تحت السلطة الرومانية ترىٰ في معتقدها تأكيد علىٰ التمرد علىٰ هذه الدولة أبرزهم أقباط مصرالذين اضطهدوا مرتين:الأولىٰ علىٰ يد الأباطرة الوثنيين في روما، والثانية علىٰ يد الأباطرة المسيحيين في القسطنطينية، فقام دقليديانوس بقتل*عشرات الآلاف منهم في عصرالشهداء المعروف اليوم بالتقويم القبطي رغم ذلك لماعفا عنهم فأقاموا له عمود السواري ولا يزال قائما بالإسكندرية لليوم، ثم عاد لاضطهادهم من جديد ولكنهم ثبتوا، وفر الرهبان إلىٰ أديرة الصحراء، أما المرة الثانية ففي عصر الدولة الرومانية الشرقية بالقسطنطينية التي حاولت ربط مصر بصورة مباشرة باتجاهات الأباطرة البيزنطيين الذين أصروا علىٰ تفسيراتهم ومبادئهم الدينية فكان ذلك وراء التوتر الذي ساد بين الكنيسة الأورثوذكسية القبطية بالأسكندرية والكنيسة الأورثوذكسية في القسطنطينية وكان الإضطهاد أشد عنفا وقتلا من عنف الوثنيين ومن ثم أصبح رجال الدين المسيحي بمثابة الزعماء الوطنيين المصريين إلىٰ جانب كونهم رجال الدين الروحانيين، وكانت فداحة الضرائب تثقل كاهل المصريين كل ذلك لم يتحرر منه اهل البلاد إلا بعد الفتح الإسلامي عام ٦٤١ م واستمرت الإمبراطوريتين الشرقية والغربية في فرض الديانة المسيحية والمذهب الذي يرونه بقوة السلاح دون هوادة بالتفسيرات والإتجاهات التي يراها الأباطرة حتىٰ القرن التاسع عشر الميلادي وربما حتىٰ اليوم بالغزو والتنكيل أو بأساليب أخرىٰ، وقد عانت المسيحية من الإنقسام وعدم وضوح الغرض منها، وقد ظهرت العشرات من المذاهب كلما حاولت تلك المذاهب الإقتراب من الحقيقة حوربت بضراوة، فقد كانت النسطورية[٨٨] أيضا إحدي تلك المذاهب وكان عميدها الراهب نسطوريوس الذي كان أكبر من انتقدوا تأليفات بولس ودسه علىٰ الكتاب المقدس وكان يطلب الإستشهاد بما يجهر به

(٨٨)يقول الله في سورة البقرة الآية ٢٥٣

(وآتينا عيسىٰ بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولوشاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يشاء)

من شكوك فيما أورده بولس بشأن مريم أم المسيح عليه السلام وكان يرىٰ أن سفر أيوب ما هو إلا قصيدة مأخوذة بتعديل من مصادر وثنية مثلها مثل نشيد الإنشاد المأخوذ من إحدىٰ أغاني الفرس ذات معان شهوانية صريحة وأن الكثير من النبوءات في العهد القديم التىٰ يزعم الزاعمون أنها تشير للسيد المسيح ليست إلا حوادث وقعت قبل المسيحية.

بدأ أقباط مصر تقويمهم بعام الإضطهاد ٢٨٤ م - يقول الله في سورة المائدة بالآية ١٤ (ومن الذين قالوا إنا نصارىٰ أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلىٰ يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون)

الأهم أن مريم ليست أم الله، بل هي أم للمسيح النبىٰ البشري، ورفع نفسه للنقاش في كرسي الأسقفية في القسطنطينية عام ٤٢٨ ميلادية والتفت حوله الجموع لبلاغته وفصاحته، فقد كانت كثرة المسيحيين يرون أن مريم من البشر ولا يمكنها أن تحمل في الله، وكنتيجة لذلك الزخم الفكري زاد مؤيدوه والقىٰ (سيريل) كبير أساقفة الإسكندرية موعظة في يوم القيامة عام ٤٢٩ ميلادية، أعلن فيها العقيدة التي يؤمن بها كثرة المسيحيين، وهي أن مريم ليست أم الله بل هي أم نبي الله المسيح عليه السلام، فاستشاط البابا سلستين الأول غضباً وعقد مجلساً في روما عام ٤٣٠ ميلادية وطالب برجوع نسطوريوس عن آرائه ولما رفض عزلوه وحرموه من الكنيسة ونفوه إلىٰ ليبيا مع من يؤمنون به من رجال الدين عام ٤٣١ ميلادية واحتضر فيها فنقلوا أتباعه إلىٰ شرق سوريا في الرها وبقوا حتىٰ الآن يرفضون عبادة مريم وبقي كرسي الإسكندرية يعارض كرسي القسطنطينية حتىٰ تفرعت المسيحية إلىٰ أكثر من سبعين نحلة تكفر الأخريات، وقد روع الآباء المسيحيين ما وجدوه من تشابه يصل للتطابق بين دينهم والمثراسية والإيزيسية، إذ كانت الإلهة إيزيس المصرية وهي الأم الحزينة، والمواسية والمحبة، وحاملة هبة الحياة الخالدة، تلقىٰ من التكريم، أكثر مما تتلقاه الإلهة سيبيل وكانت شعوب البحر المتوسط - كلها - تعرف كيف مات زوجها أوزوريس، وكيف قام من بين الأموات فامتلأت أوروبا وجنوب البحر المتوسط بتماثيل لأيزيس تحمل بين ذراعيها حورس إبنها الإلهي وكانو يسمونها في الأوردة والأدعية (ملكة السماء) و(أم الإله) وكان ذلك الانتشار للإيزيسية منذ قبل الميلاد حتىٰ أن مدينة باريس هي تحريف (لباراإيزيس) وقد عثرمؤخرا علىٰ صورها المقدسة علىٰ ضفاف نهري الدانوب والسين وكشف عن آثار معبد لها في لندن وكان اليوم السابع من الإسبوع يوما مقدساً لإله الشمس

(Sunday) وعلىٰ الرغم من ذلك أفادت الكنيسة المسيحية -المهجنة بالوثنية - الإنسانية كثيرا في أمور عدة ماكان لليهود الإتيان بها، فقبل مضي القرن الثامن الميلادي زرعت في بيئات العالم رفض العبادات القديمة والأوثان وعلىٰ الرغم ما استعارته لها من عاداتها وخرافاتها، وأيضا قامت بتقليد الإغريق في صنع التماثيل ورسم اللوحات لمن تخيلوهما المسيح عليه السلام ومريم، قدست الكنيسة مريم، واحتقرت المرأة واعتبرتها أصل كل البلاء، كما نبذت تعدد الآلهة وإن كانت قد آمنت في مجملها بالثالوث في إطار إله واحد يمثله الثالوث، وأشاعت الأمل في الغد وأكدت علىٰ الحياة الأبدية في نهاية العالم ومبدأ الثواب والعقاب في السماء، فباعت صكوك الغفران كتذاكر دخول للجنة بعد الممات فأثرىٰ رجال الدين بالنصب وخديعة البسطاء، حثت علىٰ مكارم الأخلاق والتسامح ولم تمارسها أوتجبر الأباطرة علىٰ ممارستها بل حثت علىٰ نشر المسيحية بالقوة والسلاح في أوروبا الوثنية، وفي إفريقيا والأمريكتين فإما التنصير أوالقتل.

وفي الأندلس في زمن محاكم التفتيش إما التنصيرأو القتل أوالطرد، أضفت القدسية علىٰ الزواج والعفة وإن عجزت عن فرضها علىٰ الأباطرة أوالعامة أوعلىٰ رجال الدين وكان من أشهرهم راسبوتين، كما منعت الطلاق وتعدد الزوجات وهي تشريعات رحيمة في بعض الأحيان للطرفين فثارعليها من هم ليسوا علىٰ قناعة بها ونشأت مجتمعات مسيحية لا تنضوي تحت ذلك التشريع فظهرت الديانة البروتوستانتية وفرق المورمون وغيرها، ونادت بالتراحم بين بني البشر وإن أقرت العبودية والإستغلال وشجعتهما وكان القول (أنا مسيحي) إنما يعني (أناابيض البشرة) فشجع القساوسة والرهبان العنصرية في أرجاء العالم حتىٰ اليوم ربما، فكانت السبب في الثورات الشعبية ونبذ الكنيسة ومن أشهرها الثورة الفرنسية والبلشفية، دعت إلىٰ السلام الذي بشر به المسيح وبدأت حروبها الصليبية لإرغام العالم علىٰ مسيحية بولس الوثنية منذ عهد قسطنطين حتىٰ عصرنا الحالي مرورا بالطبع بحروب صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد، وفي مجمل الأمر ساد العالم تنويرا روحيا ونضوجا حضاريا وإيمانيا، فأعطت الكنيسة روما وأوروبا أبعادا حضارية مفتقدة إلا أن الشعوب التي اقتربت كثيرا من النضج الحضاري افتقدت القدوة في انتظار الدين الخاتم بالنبي الخاتم الذي لايمكن إلا اعتباره، قدوة للعالمين.

١١ – روما والصراعات:

استمرت روما- كدولة من ناحية-في مواجهة طموح قبائل الجرمان والغال والقوطيين المتاخمة لها سواء من الشمال أو الغرب أو شمال الشرق، صراعاتها الداخلية حيث نودي سبعة وثلاثين رجلا نودي بهم أباطرة في الخمسة والثلاثين عاما بين الكسندر سفيرس وأورليان–ومن ناحية أخرىٰ- مع الشعوب المغلوبة ذات الحضارات القديمة العريقة في شمال إفريقيا وجنوب وشرق البحر المتوسط،

الصراعات الخارجية

الثأر التاريخي لدولة الفرس في شرق العالم التي تنتظر الفرصة للثأر لدارا من روما ومن أوروبا كارهة فتح الأسكندر الأكبرلدولة الفرس.

صراعات روما الداخلية

كانت روما علىٰ صراع في العقيدة مع الوثنيين، وأصحاب التفسيرات المغايرة للمسيحية من داخل الدولة المسيحية التي لم تنجح لا في بسط المسيحية فيما تملكه من أرض وشعوب ولا في الدفاع عن تفسيراتها ورؤيتها الدينية للمسيحية وفرض مذهبها

١٢ – روما وعوامل الفساد والإنهيار:

لاستشراء الفسادوالظلم بين طبقة الحكام وأصحاب القوة العسكرية من الرومان وطبقة النبلاء وانتشار العاهرات والتخنث والتسري الحرام والشذوذ الجنسي والموت في الحروب والعمل علىٰ تحديد النسل بينهم بالمقارنة بأعدائهم وخاصة الجرمان المنضبطين الخشنين شديدي التكاثر وأيضا كان لاستشراء الفساد بين طبقة رجالات الدين أصحاب إدعاآت القوة الروحية وكانت القوة الروحية مشكوك فيها لاستشراء الفساد المالي والخلقي والجنسىٰ أيضا بين رجلات الدين من ناحية وبينهم وبين الراهبات، وتواطؤ الكنيسة مع الحكام والنبلاء في قهر الشعوب باسم الدين، وصمت الكنيسة عن المظالم الموروثة والمستجدة التي استمرت لقرون، فعلىٰ سبيل المثال لا الحصر أغمضت الكنيسة عينها عما كان يطلق عليه (حق السيد النبيل) في فض بكارة عروس العبد قبل زواج العبد بها، واستمر هذا التقليد في مجمل أوروبا المسيحية حتىٰ القرن التاسع عشر، إلا أن الثورة

الفرنسية كانت قد أبطلت هذا لحق في نهاية القرن الثامن عشر ولم يكنت للكطنيسة أي يد في هذا الإبطال.

بدأت بوادر الإنهيار في الدولة الهرمة وصار من اليسير علىٰ زنوبيا الإستقلال بسوريا واحتلال مصر مدعية أنها سليلة كليوباترا، كما أعلن بعدها أرخيليوس استقلالة بمصر، واستقلت بريطانيا وأصبحت انجلترا عام ٤٠٩ ميلادية بقيادة الملك آرثر (آرتيريوس) واستمرت غزوات الهون الآسيويين، والقوط الغربيين والشرقيين من عام ٣٧٢ حتىٰ ٣٧٨م وهزمت جيوش روما في هذا العام منهم أشنع هزيمة وهلك ثلثا الجيش الروماني وزحفت علىٰ روما ولما عجزت عن اختراق روما عاث القوط في البلقان والجبل الأسود، وتغيرت التركيبة السكانية للدولة في القرن الخامس الميلادي فأصبح الرومان ستة ملايين (أقل من ٩٪)، في حين أصبح الغاليين عشرين مليونا، والوندال أربعة عشر مليونا، واللمباردين عشرين مليونا، وتناقص الإغريق إلىٰ سبعة ملايين، وانقضىٰ عهد الفتوح وبدأعصر التقهقر والتراجع، وكانت كل القبائل التي غزت روما فيما بعد تقريبا من الآريوسيين، كانت الممالك التي أقاموها تدين بالآريوسية في البلقان وغالة وأسبانيا وإيطليا وافريقيا من الناحية الرسمية حتىٰ القرن السادس لميلادي، وظهر أتباع نسطورس فنفتهم روما إلىٰ بلاد العرب.

وهكذا قضت روما علىٰ نفسها من الداخل بسبب انقسام الشعب علىٰ نفسه وفساد أخلاقه والنزاع الطبقي والديني وحكومته الإستبدادية الفاسدة وحروبها المهلكة باسم نشر المسيحية وكره شعوب الأرض لها، وكانت الدولة العظمىٰ قد انقسمت قبل ذلك سنة ٣٩٥ ميلادية إلىٰ قسمين كبيرين:

- الدولة الرومانية الغربية وعاصمتها روما وديانتها المسيحية الكاثوليكية
- الدولة الرومانية الشرقية (بيزنطة) وعاصمتها القسطنطينية وديانتها المسيحية الأورثوذكسية.

لم يكن الانقسام السياسي هو الانقسام الوحيد في المسيحية بل تعدىٰ الانقسام الدولة وانتقلت للعقيدة وكان الأساس في قضية متفرعة من معضلة (نبوة المسيح وربوبيته):

١) مذهب النساطرة (أو النسطوريين)والذي يرىٰ أن مريم لم تلد إلاها لأن المخلوق لا يلد الخالق وقد جاء اللاهوت لعيسىٰ بعد ولادته واتحد عيسىٰ بعد ولادته بالأقنوم الثاني.

٢) مذهب الأرثوذوكس (المذهب اليعقوبي) نسبة إلىٰ يعقوب البرادعي وهو رد فعل لمذهب النساطرة وأعلن في مجمع نيقية سنة ٤٣١ م بما يوافق عقيدة البابا كيرلس بطريرك الإسكندرية والذي يقضي بأن للمسيح طبيعة واحدة بمشيئة واحدة في أقنوم واحد بعد الإتحاد بدون اختلاط فالعذراء هي والدة الإله وهي أم الله.

٣) مذهب الكاثوليك (المذهب الملكاني) نسبة إلىٰ حضور زوج الملكة مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ ويقول بأن للمسيح طبيعتين ومشيئتين فله أقنوم بحت ولكن له ذاتان وكيانان هما الله والإنسان وهو مذهب متأثر بالنسطورية مع الإختلاف عن نسطور بأن مريم ولدت الاثنين معا.

٤) المذهب الماروني نسبة إلىٰ يوحنا مارون سنة ٦٦٧م والذي دعا إلىٰ أن للمسيح طبيعتين بمشيئة واحدة لالتقاء الطبيعتين في أقنوم واحد.

لم تكن تلك هي المذاهب وحدها ما انقسمت عليها المسيحية، بل انقسمت إلىٰ مئات العقائد والنحل وهكذا تسبب بولس في ابتعاد المؤمنين بالمسيح عليه السلام عن دين الله الذي أرسله إلىٰ إبراهيم ويعقوب وموسىٰ ومحمد عليهم السلام.

ولم يكن الاختلال قاصراً في الروم والفرس علىٰ الوجهة السياسية والإدارية ولكنه كان تناول الأحوال الاجتماعية والدينية بما تفاقم فيها من الانقسامات المذهبية مما هومعروف، فقد كان الروم حوالي القرن السادس للميلاد في منتهىٰ التضعضع لتعدد الفرق وتشعب المذاهب وخصوصاً في ما يتعلق بالطبيعة والطبيعتين والمشيئة والمشيئتين - وأكثر اختلافهم علىٰ الألفاظ والجوهر واحد - وكان لهذه الانقسامات تأثير شديد في السياسة لاختلاط السياسة عندهم بالدين، حتىٰ آل ذلك أحياناً إلىٰ خروج أمم بأسرها من حوزة الروم إلىٰ الفرس، كما حصل بالأرمن فإنهم لما حرّم المجمع القسطنطيني بدعة الطبيعة الواحدة جعل الإمبراطور يشدّد النكير علىٰ متبعيها والأرمن منهم فأفضت بهم الحال إلىٰ تسليم بلادهم إلىٰ الفرس، وكذلك فعل القبط بمصر يوم جاءهم عمرو بن العاص فقد كانوا عوناً له في فتحها للسبب عينه.

١٣- روما والصراع مع اليهود وثورات التمرد

هذا بالإضافة إلىٰ ما كان من التباغض القوي بين اليهود والروم بنوع خاص لما اقتضاه تعصّب تلك الأيام، وقد بلغ هذا التباغض حدّه في أيام هرقل فثار اليهود في أنطاكية فقتلوا بطريركها ومثّلوا بجثته تمثيلاً قبيحاً، فأرسل إليهم هرقل فقتل منهم جمعاً غفيراً، وثاروا في (صور) عاصمة فينيقية وقتلوا واليها، وتآمر يهود صور ويهود فينيقية وفلسطين علىٰ أن يدخلوا مدينة صور ليلاً ويقتلوا النصارىٰ، فاطّلع مطران صور علىٰ المكيدة فأخبر الوالي بها فنبّه الوالي الحامية والبوّابين والحرّاس أن يكونوا تلك الليلة علىٰ حذر، ولما جنّ الليل هجم اليهود من خارج السور فردّهم الجند علىٰ أعقابهم فرجع اليهود إلىٰ الأديرة والكنائس بجوار المدينة فهدّموها وسلبوا آنيتها، وفعلوا مثل ذلك في ما جاورها من القرىٰ، فعاقبتهم الحكومة فقتلت كل يهود صور.

ولم يكن التباغض محصوراً بين اليهود والروم لكنه كان بينهم وبين النصارىٰ علىٰ الإجمال، وكانت حكومات النصارىٰ إذا سنّت قانوناً خصّصت بنوداً منه بشأن اليهود لمعاملتهم بالاحتقار.

فهل نستغرب بعد ذلك إذا كان اليهود عوناً للعرب المسلمين علىٰ حكامهم المسيحيين، ؟

الفصل السابع

الفرس والدولة الساسانية

(٥٨٧ ق م – ٦٣٤ ميلادية)

١ - تمهيد

بعد استيلاء نبوخذ نصر (بختنصر) - الملك البابلي -علىٰ بعض من شمال بلاد العرب سنة ٥٨٧ ق م، وكان قد زحف علىٰ مملكة إسرائيل واستولىٰ عليها وهزم فرعون مصر واستمر زاحفا حتىٰ استولىٰ علىٰ مملكة يهوذا أيضا وقام بتدمير معبد سليمان (هيكل سليمان) وبسبي كل الشعب الإسرائيلي إلىٰ بابل سنة ٥٧٦ ق.م وجاء الفرس علىٰ أنقاض البابليين فاحتل (قورش) ملك الفرس كل الإمبراطورية البابلية دون قتال ما بين عامي (٥٣٨-٥٤٠ ق م) وهاله عدم تجانس الشعوب المختلفة فسمح للشعوب المأسورة بالعودة إلىٰ البلاد التي أتت منها ومن بعده قام قمبيز بن قورش بالهجوم علىٰ مصر عام ٥٢٥ ق م وأصبح قمبيز أول ملك (بعد تحتمس الثالث قبل ذلك بألف عام) ملكا علىٰ منطقة واقعة بين النيل والفرات، وتمكن اليهود من إقناع دارا الأول (داريوس الأول) ببناء معبد أورشليم علىٰ أن تتحملها خزانة عبر الفرات.

فىٰ عهد الملك (أحشويروش) الفارسي الذي وقع في غرام (أستير) ابنة أخت وزيره (مردخاىٰ) أعطىٰ هذا الملك أمرا إمبراطوريا ببناء مدينة أورشليم، وتعيين مردخاىٰ واليا علىٰ يهوذا في منتصف القرن الخامس ق م إلا أن بعد ذلك بقرنين من الزمان تقريبا سقطت الإمبراطورية الفارسية علىٰ يد الإسكندر الأكبر المقدوني الذي سيطر علىٰ معظم أرجاء العالم بما فيها فارس ومصر (٣٣٢ ق م) بعد هزيمة داريوس الثالث (دارا الثالث) كما ذكرنا سلفا، واستمروا في حكم البلاد مجزأة حتىٰ عام ٢٣٠ ميلادية بما عرف بملوك الطوائف، ثم عادت القوة مرة أخرىٰ لبلاد فارس في عهد الملك أردشير.

٢ - المجتمع الفارسى

ظلت إيران – صاحبة حضارة من أعظم الحضارات النهرية في التاريخ - قرونا تلعق جراحها، إلا أن إرادة هذا الشعب الآري العظيم ما لبث أن استعاد وعيه، ومجددا حضارته، وحضوره علىٰ الساحة الدولية، قصر الزمن أو طال، وتلك هي سمات الشعوب العريقة، كان لفظ إيران في القرن الثالث الميلادي أوسع معنىٰ من لفظ فارس، فإيران هي أرض الآريين، وكانت تشمل أفغانستان وبلوخستان وستجدانيا، والعراق وفارس المعروفة اليوم جغرافيا باسم إيران، والقبائل الجرمانية أيضا تنتمي لهذا العرق الآري، والفرس في الأغلب

نحاف الجسم، وتميل بشرتهم للسمرة، شعورهم طويلة شعثاء سوداء، وكذلك لحاهم، إلا أن طبقة الحكام كانوا يهذبون لحاهم وشعورهم، ويغلب على الشعب الكبرياء والأنفه ودماثة الأخلاق، يميلون إلىٰ الرياضة الشاقة والخطرة، ثيابهم فخمة ويلبسون العمائم علىٰ رؤسهم والسراويل المنتفخة علىٰ سيقانهم، وكان أغنياءهم عادة يلبسون العباءات من الصوف والحرير ويتمنطقون بمناطق يحملون عليها سيوفهم، أما الفقراء فكانوا يكتفون بملابس من القطن، كان الرجل الفارسي، سريع الإنفعال، كثير التقلب والحماس، أميل إلىٰ الدهاء منه إلىٰ الشجاعة ولكنهم أرقىٰ أخلاقا من الإغريق، فما بالنا بالرومان، لهم طرائق ديبلوماسية في الحديث والتعاملات الدولية، سرعان ما أخذها عنهم الرومان، وكان الحكام يحثون الشعب علىٰ التزاوج والإنجاب كي يقوىٰ إله النور (أهورامزد) علىٰ إله الظلام (أهرمان)، وكانت ديانتهم الزرادشتية المجوسية، تسمح بتعدد الزوجات، وكان الزنىٰ منتشرا في كل الأوساط، أما الزوجات الشرعيات فكن في العادة يبقين في أجنحة خاصة بهن في البيوت العادية أو القصور، ويستعان بهن في تربية الأبناء علىٰ المبادئ الدينية والعقائد المتوارثة والأعمال المنزلية، وكان دور الرجال في تنشة الصبيان منصبا علىٰ الرياضة البدنية وضرب النبال والقنص وركوب الخيل ولعب الشطرنج، وكانت إهتماماتهم بالجياد عظيمة، فلم تكن تفوق الخيل الفارسية إلا الجياد العربية الأصيلة في تسلسل أنسابها وجرأتها وجمالها وسرعتها.

٣ - الثقافة والعلوم

ظلت اللغة الفهلوية (الهندي – أوروبية) لغة فارس هي المستعملة في البلاد، وكان الكهنة الزرادشتيون هم حفظتها وناقليها، حتىٰ أتاها الفتح الإسلامي فتأثرت لغتهم بالعربية، وكان الملوك الساسانيون ملوكا مستنيرين يناصرون الأدب والفلسفة خاصة كسرىٰ أنوشروان الذي عمل علىٰ ترجمة كتب أفلاطون وأرسطو إلىٰ اللغة الفهلوية ولما أغلق جستنيان (الإمبراطور الروماني) مدارس أثينة، فرّ أساتذتها لفارس في حماية كسرىٰ أنوشروان، وحينما طلب منه جستنيان عودتهم اشترط عليه ألا ينالهم أذىٰ عام ٥٣٣ م،

٤ - المعتقدات

كان الفرس مولعين بعلوم الفلك والتنجيم والسحر، يعتقدون أن مصائر البشر معلقة بالنجوم، وعلىٰ الرغم من سيطرة الديانة الزرادشتية المجوسية، إلا أن ملوك فارس كانت

لديهم عادة حضارية في التسامح مع كل الديانات في العالم، فكانت البوذية واليهودية إلى جانب المجوسية ونشأت فيها ديانات عدة ومنها المثراسية (إله الشمس) الذي كان يعد نفسه إلاها مساعدا (لأهورامزدا)، كما نشأ فيها ديانة أخرى دعا إليها (ماني) ٢١٦ - ٢٧٦ م الذي كان ينادي بالعزوبة والسلام والهدوء، وكان يعتبر نفسه رسول رابع مكمل لبوذا وزرادشت والمسيح، إلا أن الكهنة الزرادشت المجوس طالبوا بصلبه، وقد وجد كثير من اليهود ملجأً لهم بعد السبي البابلي، في الولايات الغربية (فارس والعراق)، وكذلك ثبتت المسيحية دعائمها في هذه الولايات، إلا أن المسيحيين آذروا الدولة البيزنطية المسيحية ضد شهبور كما حدث في نصيبين عام ٣٣٨ م فأمر شهبور بقتل القسيسين والرهبان (١٦٠٠٠ مسيحي)، وفي عهد كسرى شهبور بن اردشير ظهر (مزدك)*، وقام بالدعوة الى الإباحية، فتبعة قباذ بن فيروز كما تبعه كثير من رعيته، وخلف قباذ كسرى أنوشروان، وكان يكره هذا المذهب، فقتل المزدك وكثيراً ممن دانوا بمذهبة، ولما جلس يزدجرد الأول على العرش عام ٣٩٩ م رد للمسيحيين حريتهم الدينية وساعدهم على بناء كنائسهم وقررمجلس أساقفة الفرس استقلال كنائسهم عن الكنيستين اليونانية والرومانية عام ٤٢٢م.

٥ – دولة الفرس عى أنقاض بابل

قلنا أنه بعد ظهور الملك البابلي نبوخذ نصر (بختنصر) ٥٩٥ ق م والذي قام بغزوات في اتجاه الغرب من الشام حتى الجزيرة العربية عام ٥٨٥ ق م وكانت سياسته تقوم على أساس نقل الشعوب من موطنها لمواطن بديلة، وبعدما انهارت الدولة الآشورية فورثتها الدولة البابلية الناشئة وقيام بختنصر بسبي اليهود في بابل وهدم هيكل سليمان عام ٥٧٦ ق م، كانت الأمور تسير على هذا المنوال حتى انهارت الدولة البابلية عام ٥٤٠ ق م وقامت دولة الفرس على أنقاضها.

احتل قورش ملك الفرس مدينة بابل عام ٥٣٨ ق م فاعتبر فارس وريثة شرعية للدولة البابلية وسمح للشعوب المأسورة بالعودة لبلادها، وكا بنو إسرائيل من الشعوب التي عادت لموطنها الذي سبيت منه، وبتأثيرهم قام قمبيز بن قورش بالاستيلاء على مصر وبهذا أصبح قمبيز بن قورش الفارسي ملكا على بلاد الفرس وملحق بها أرضا تمتد من النيل للفرات.

لما كان نفوذ بني إسرائيل متغلغلا في سدة الحكم بزواج الملك الفارسي أحشويروش (داريوس الأول) من أستير اليهودية، فقد أمر ببناء مدينة أور شليم وتعيين (نحميا) واليا علىٰ منطقة يهوذا في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد.في عهد اريوس الثالث وبعد سقوط الإمبراطورية الفارسية علىٰ يد الإسكندر الأكبر المقدوني عام ٣٢٣ ق م، عادت دولة الفرس مستقلة ولكن مقسمة لدويلات.

٦ – دولة الفرس والملوك الساسانيين

توحيد دولة الفرس

تذكر لنا الروايات التاريخية الفارسية أن ساسان كاهن أصطخر كان له ابنا (باباك) حاكما لخور الذي قتل جوزهر حاكم ولاية فارس وأعلن نفسه ملكا عليها عام (٢٢٠- ٢٢٢ م)، ولما مات تولىٰ ابنه شهبور (٢٢٢-٢٢٤م) الحكم الذي مات بعدها في حادث وتولىٰ من بعده ابنه أردشير (٢٢٤- ٢٤١ م) الذي حارب آخر ملوك الفرس البارثيين وأعلن نفسه ملك الملوك مكتسبا تأييد رجال الدين بإعادة العقيدة الزرادشتية إلىٰ مكانتها، ثم مد حدود مملكته بأن أعلن أنه سينتقم للفرس من النفوذ الهلنسي (الإغريقي) في. فارس وأثار كبرياء الفرس بالثأر لدارا الثاني من ورثة الإسكندرالأكبر فاستولىٰ علىٰ العراق ونهرجيحون (٢٣٠ م)، ووضع التاج علىٰ رأس ابنه شهبور عام (٢٤١ -٢٧٢م) قبل مماته وأوصاه بمحاربة اليونان والرومان في البحر المتوسط، فغزا شهبور سوريا وانطاكية وأرمينيا وأسر الإمبراطور الروماني فيليريان عام ٢٦٠ م.

ما بين عامي ٢٧٢- ٣٠٢ م لم يحكم الفرس ملوكا أكفاء إلىٰ أن جاء هرمز الثاني (٣٠٢- ٣٠٩ م) الذي شيد المشروعات في أرجاء البلاد وعاشت الدولة في زمن البناء والسلم، وما أن حكم ابنه شهبور الثاني (٣٠٩- ٣٧٩ م) وهو في السادسة عشرة من عمره وهو الذي هزم وقتل يوليانوس عام ٣٦٠ م فغزا شرقي الجزيرة العربية والحدود الرومانية والأباطرة الرومان ٤٠ سنة إلىٰ أن سالمه جوفيان وتنازل له عن أرمينيه والولايات الرومانية الممتدة علىٰ نهر دجلة وبلغت دولة الفرس أوج مجدها.

في عهد الملك بهرام الخامس الساساني (٤٢٠ – ٤٣٨ م) غزا الهون البيض (وهي قبائل طورانية) المنطقة بين نهري سيحون وجيحون فحاربهم بهرام الخامس وانتصر عليهم إلا أنهم استطاعوا في عهد ابنه فيروز شاه (٤٥٩ – ٤٨٤ م) أن ينتصروا عليه ويقتلوه

وأرغموا الشاة الذي بعده أن يدفع لهم الجزية حتىٰ جاء الملك كفادة الأول أو قباذ بن فيروز

ولما جاء الملك كفادة الأول أو قباذ بن فيروز (٤٨٨- ٥٣١ م) بدأ حكمه والصراع لا يزال قائماً بين القصر وبين رجال الدين والأشراف ففكر في إضعافهم بأن شجع الديانة المزدكية التي كان يدعي قائدها أنه مرسل من عند الله وأنه يدعو إلىٰ أن الناس سواسية ويحرم الزواج وأباح كل النساء لكل الرجال بدون زواج وأباح الزنا بالمحارم واستيلاء الفقراء علىٰ المال من الأغنياء، وبهذا اعتقد أنه قد قصم ظهر رجال الدين والأشراف الأغنياء، إذ استولت الجماهير علىٰ قصورهم وسبوا نساءهم، ولكن الكهنة والأشراف تغلبوا عليه وأخمدوا ثورة المزدكيين وأودعوا كفادة السجن إلىٰ أن فر بعد ثلاث سنوات، واستعان بأعداء البلاد من الهون البيض الطورانيين، وأجلسوه علىٰ العرش مرة أخرىٰ ٤٩٩ م، وبعد أن جلس علىٰ العرش مرة أخرىٰ قضىٰ علىٰ المزدكيين تماما وقتل مزدك وأتباعه وتوجه إلىٰ الهون البيض وغدر بهم بعدما استتب له الأمر وقضىٰ عليهم، وأجلس ابنه خسرو علىٰ العرش قبل وفاته.

كان الملك يستمد سلطانه من الآلهة ويعتبر نفسه ولي الله علىٰ الأرض ويضارع الآلهة في قوة أحكامهم، فيلقب نفسه أحيانا بملك الملوك وملك الآريين وغير الآريين وسيد الكون وابن الآلهة وأخا الشمس والقمر ورفيق النجوم، كان عليه أن يرتدي ثيابا مثقلة بالجواهر وأن يجلس علىٰ عرش من ذهب، ويضع علىٰ رأسه تاجا يبلغ من الثقل حدا لابد معه أن يعلق التاج علىٰ مسلفة قريبة من رأسة، وكان علىٰ الذين يدخلون عليه أن يسجدوا أمامه ويقبلوا الأرض بين يديه وألا يقفوا إلا إذا سمح لهم ورغم كل ذلك لم تكن الضرائب ثقيلة علىٰ الشعب عكس ما كان عند الرومان الوثنيين والرومان المسيحيين علىٰ السواء وكانت الخزائن الفارسية أكثر وفرة من الخرائن الرومانية بمراحل عده، نظرا لحسن إدارة الدولة بالمقارنة بالرومان.

٧- عام الفيل

كان خسرو أو كسرىٰ الأول أنو شروان (أي الروح الخالدة) (٥٣١ – ٥٧٩ م) هو صاحب العرش وكان اخوته الأكبر من سنا قد ائتمروا به فقتلهم جميعا وقتل جميع أبنائه ما عدا واحدا منهم، ورغم هذا أطلق عليه الفرس لقب العادل ويثني الطبري الفارسي الأصل

عليه وعلىٰ نفاذ بصيرته فقد نظم كسرىٰ الأول الحكم علىٰ أسس جديدة واختار أعوانا من ذوي الكفاءة بغض النظر عن طبقتهم ونظم الجيش من جديد وشجع الزواج وأرغم الناس عليه وعلم الشعب علىٰ نفقة الدولة وقرب إليه الفلاسفة والأطباء والعلماء وأنشأ الطرق والجسور وأنشأجامعة غنديا سبور، ووقع مع الإمبراطورالروماني الشرقي عام ٥٣٢ م جستنيان صلحا ما لبث أن نقده عام ٥٣٩ م، وزحف علىٰ سوريا وأنطاكية التي هدمها ما عدا كنيستها وفي عام ٥٤٣ أدىٰ له جستنيان الجزية علىٰ أن تقف الحرب خمسين عاما ونزل عن حقه في بلاد القوقاز والبحر الأسود لصالح كسرىٰ، وهو الملك الذي ولد في زمانه رسول الله محمد صلىٰ الله عليه وسلم، وفي عهده كان عام الفيل عام ٥٧٠ م ومحاولة أبرهة المسيحي التابع للدولة الرومانية هدم الكعبة وبعدها استنجد اليمانيون بالفرس، وقاموا بمقاومة الحبشة حتىٰ أجلوهم عن البلاد، ونالوا الأستقلال في سنة ٥٧٥م بقيادة معد يكرب بن سيف ذي يزن الحميري، وكان جستيان قد خرق الهدنة عام ٥٧٢ م وهزم كسرىٰ الأول عام ٥٧٨ م وبموته عام ٥٧٩ م حكم بعده هرمز الرابع (٥٧٩ – ٥٨٩ م) إلىٰ أن خلعه قائد الجيش بهرام عام ٥٨٩ م وأعلن نفسه وصيا علىٰ كسرىٰ أبرويز الثاني إبن هرمز، الذي لجأ إلىٰ هيرابوليس إمبراطور بيزنطة الرومانية وكسرىٰ أبرويز الثاني إبن هرمز (٥٩٦ – ٦٢٨ م).الذي ساعده الإمبراطور البيزنطي موريس علىٰ تولي الحكم علىٰ أسنة الرماح البيزنطية مقابل التنازل عن أرمينيا عام ٥٩٦ م،

٨- غلبت الروم وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين:

وفي عام ٦٠٣ م استولىٰ فوكاس علىٰ الحكم من موريس صديق كسرىٰ أبرويز الثانىٰ فأعلن الأخير الحرب عام ٦١٤ م علىٰ فوكاس نصرة لصديقه فاستولىٰ علىٰ مدينة دارا الحدودية وحلب ودمشق وهيرابوليس وأعلن الحرب الدينية علىٰ المسيحيين فانضم إليه فورا٢٦,٠٠٠ يهودي للثأرمن الدولة الرومانية التي حرمتهم من مدينة القدس –أورشاليم منذ عهد هدريان عام ١٣٨ م، ونهبت جيوش كسرىٰ أبرويز الثاني عام ٦١٤ م أورشليم وقتلت ٩٠,٠٠٠ مسيحي، وأحرقت الكنائس وما اعتقده المسيحيين الضريح المقدس وأخذ ما كانوا يعتقدون أنه الصليب الحق إلىٰ بلاد الفرس وكان جيش فارسي آخر قد استولىٰ علىٰ خلقيدون علىٰ مضيق البسفور واستولىٰ علىٰ الإسكندرية في مصر عام ٦١٧ م

ودخلت مصر كلها في حوزة ملك الملوك (أبرويز)، واستسلم له المصريون ظنا منهم أنه سيخلصهم من ظلم الرومان بل وساعدوه، إلا أنه ما أن تمكن منهم حتىٰ طلب منهم بالخديعة أن يصطفوا خارج القرىٰ ولما تم له ذلك قتل ٢٢٦٠٠٠ رجلا قبطيا، ممن تقاعسوا عن نصرته.

(كان قد مر علىٰ الدعوة الإسلامية أربع سنوات وقد أنبأنا القرآن بنصر الروم في نهاية الأمر)

وتولىٰ هرقل (عظيم الروم) الحكم بعد فوكاس، وأرسل له كسرىٰ أبرويز رسالة تقطر غطرسة كان فيها (من كسرىٰ أعظم الآلهة وسيد الأرض كلها إلىٰ هرقل عبده الغبي الذليل، إنك تقول أنك تعتمد علىٰ إلهك، فلم إذن لم ينقذ أورشليم من يدي)، ولأن الله غالب علىٰ أمره، فقد سبب الأسباب بحيث ترك كسرىٰ الثاني مهام الحرب لقواده، مغترا بما أنجز، وذهب يلهو في قصره بعد انتصاراته المذهلة والحاسمة عام ٦١٨ م.

وفي سورة الروم من الآية ١-٧

(الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ *فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ * فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ * بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ * يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ)

وعلىٰ الجانب الآخر، لم يكن باقيا للإمبراطورية البيزنطية إلا عدد قليل من الثغور الآسيوية وقليل من أرض إيطاليا وافريقيا وبلاد اليونان وعاصمة محاصرة واسطول لم يهزم، فلبث هرقل بضع سنين ينشئ جيشا جديدا ودولة جديدة من أنقاض الجيش القديم والدولة القديمة، ولما تم له ذلك لم يحاول هرقل ان يتجه تقليديا إلىٰ الحرب عبر البسفور إلىٰ خلقيدونية، بل أبحر باسطوله إلىٰ البحر الأسود ثم اخترق أرمينية وهاجم بلاد الفرس من حيث لم يحتسبوا، من خلف الإمبراطورية المنتصرة، ودمر مدينة كلوروميا وهي مسقط رأس زرادشت ردا علىٰ تدمير كسرىٰ لأورشليم، وأطفأ نارها المقدسة، ردا علىٰ أخذ كسرىٰ الصليب المقدس لدىٰ هرقل، وكلما أرسل كسرىٰ له جيشا هزمه هرقل الذي طارد كسرىٰ إلىٰ أن فر إلىٰ طيسفون عام ٦٢٤ م ولكنه قد عاد، واستمرت القلاقل حتىٰ خلعه

قواد جيشه، و لما يأسوا من النصر، فحبسوه وقتلوا جميع أبناءه أمام عينيه، وقُتل كسرىٰ أبرويز الثاني إبن هرمز (٥٩٦ – ٦٢٩ م) علىٰ يد ابنه الأخير كفادة الثاني شيرويه عام ٦٢٩م.

(في هذه الأثناء كان رسول الله محمد صلىٰ الله عليه وسلم قد أرسل له رسالة يحملها عبد الله بن حذافة السهمي يدعوه فيها للإسلام بعد صلح الحديبية وفتح خيبر، فمزق كفادة رسالة رسول الله إليه، فقال رسول الله (مزق الله ملكه) وكانت نبوءة رسول الله قد تحققت فقد أرسل كفادة إلىٰ قباذة عامله باليمن بجلب رسول الله إليه حيا، فأرسل إليه قباذة رجلين ليأتيا به صلىٰ الله عليه وسلم، فما كان من رسول الله أن أعطاهما موعدا لليوم التالي، وفي اليوم التالي أبلغ الله رسوله بنهاية كفادة، فأبلغهما بذلك ولما بلغهما صدق نبوءة رسول الله وخبر موت كفادة آمنا برسول الله)

ومزق الله ملكه إذ بعد تولي الإبن القاتل العرش بدلا من أبوه باسم كفادة الثاني الذي عقد صلحا مع هرقل وتنازل رسميا عن مصر وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرىٰ بعدما استردها هرقل وكذلك، وغربي الجزيرة العربية، كما أعاد الأسرىٰ ورد بقايا الصليب الذي نقله الفرس إلىٰ بلادهم،

- عام ٦٢٩ م كان قد فشا وباء في بلاد فارس أودىٰ بحياة الآلاف من الفرس ومنهم الملك كفادة نفسه
- وعلىٰ أثر موته، نودي بإبنه أردشير الثالث ٦٢٩ م الذي لم يتجاوزالسابعة من عمره ملكا علىٰ البلاد، بل إمبراطورا عليها، مما أثار حفيظة قواد الإمبراطورية العسكريين
- فقتل قائدا عسكريا الغلام وهو (شهر براز) ٦٢٩ م وأعلن نفسه إمبراطورا
- فقتله جنوده وسحلوه بأن جروا جثته علىٰ الأرض في شوارع المدائن وهي عادة فارسية ربما وسادت الفوضىٰ في البلاد بعد أن عمها الفساد الأخلاقي
- بعدها قام تسعة من الحكام يتنازعون عرش الإمبراطورية في خلال أربع سنوات، ثم اختفوا كلهم مقتولين أوهاربين،
- أعلنت بعض الولايات إستقلالها، إلي أن تم تنصيب يزدجرد الثالث ٦٣٤ ميلادية، سليل بيت ساسان وابن جارية زنجية إمبراطوراعلىٰ البلاد، والذي انهارت الإمبراطورية علىٰ يديه وأيدي المسلمين.

الفصل الثامن

مصر والحبشة

١ـ مصر من عصر الهكسوس حتى عصر الرومان



لوحة تمثل أحمس الأول يقاتل الهكسوس.

في استعرضانا تاريخ مصر استعراضا لمصر المؤثرة فيما حولها من أحداث حتىٰ تكتمل عند القارئ الفكرة المرجوة من الكتاب، فمصر قد أهلها الله سبحانه وتعالىٰ لاستقبال أبو الأنبياء إبراهيم بدخول الحيثيين الهكسوس إليها، يحكمون ذلك البلد ويظلمون شعبها لا لشيئ إلا للجوء إبراهيم ها، ثم تستقبل يوسف ونسل بني إسرائيل حتىٰ خروجهم من ذلك البلد، وعليه فلا ضرورة لاستعراض تاريخمصر بالكامل، إلا في الحد الضروري لخدمة الرؤية الكاملة للأمم التىٰ أحاطت بالجزيرة العربية،

غزو الهكسوس (العرب العماليق)

الهكسوس هم شعوب بدوية من أصول مختلفة، دخلت مصر من الشرق في فترة ضعف خلال نهاية حكم الدولة الوسطىٰ تقريباً في نهاية حكم الأسرة الرابعة عشر.

لم يتفق خبراء التاريخ علىٰ أصلهم، ولكن الراجح أنهم أصحاب أصول سامية وآسيوية متعددة، ومنهم من كان سامي الأصل، بحيث كانت أسماء ومعبودات الهكسوس سامية مثل بعل وعانة، يتحدثون لغة سامية هي أقرب للكلدانية التي تحدث بها إبراهيم ويوسف، وانتقلوا إلىٰ بلاد الشام ثم إلىٰ مصر، ويقول مانيتون أن الهكسوس استوطنوا

مصر كرعاة في بادئ الأمر، إلىٰ أن زاد عددهم فهاجموا أرض مصر بأعداد ضخمة لم يقدر المصريون علىٰ مقاومتها، وقاموا بحرق المدن، وتدمير المعابد وسبي النساء والأطفال وبعد حرب شرسة مع المصريين ١٧٢٥ ق م واتخذ الهكسوس عاصمة لهم في شرق الدلتا أطلقوا عليها اسم "زوان" والتي كانت تعرف بأورايس، وتركزت مملكة الهكسوس بشكل أساسي في الدلتا ومنتصف مصرفساد الهكسوس تدريجياً لا بشكل مباشر، وانما بالاختلاط بين الشعب المصري المقهور بحكمهم.

كانت مصر السفلىٰ (في شمال مصر) تخضع لحكمهم المباشر، أما مصر العليا (طيبة) وبلاد النوبة، فكانتا تخضعان للحكم المصري، واستمراحتلال الهكسوس لمصر حوالي ثلاثمائة عام، ولم تكن إقامتهم فيها هادئة ؛ بل قوبلت بكثير من الثورات والمقاومة من الشعب المصري، لم تضف فترة احتلال الهكسوس إلىٰ التاريخ المصري شيئاً يذكر؛ بل كانت فترة سلب ونهب وتخريب، قدم الهكسوس لمصر بعض من التكنولوجيا الحربية التي كانت تستعملها الشعوب السامية من عربات تجرها الخيول والأقواس المركبة والفؤوس الخارقة والسيوف المنحنية، وبعد قرون من النضال والصبر ُطرد الهكسوس من مصر بمعارك بدأت بحروب شرسة شنها عليهم المصريون وانتهت بطردهم نهائياً، علىٰ يد الملك أحمس الأول في عصر الاسرة الحديثة، ولم تقم بعدها لهم في تاريخ البشرية قائمة بعد ذلك.

في عهد الملك سقنن رع الثاني نحو (١٥٨٠ ق.م) كانت طيبة قد بلغت من القوة والمكانة العسكرية والسياسية شأناً جعل الصدام مع الهكسوس أمراً لا مفر منه، وهذا ما دفع ملك الهكسوس «أبوبي» إِلىٰ اختلاق الأعذار لبدء الصراع بغية إجهاض اليقظة المصرية في مهدها، وحقق سقنن رع في هذا الصراع بعض النجاح إِلا أنه سقط فيه صريعاً (١٥٧٥ ق.م)، في معركة خاضها مع الهكسوس وقد لوحظ وجود جروح وإصابات قاتلة في جمجمته بعد مقتل الملك سقنن رع في حروبه ضد الهكسوس، وكانت دولة مصر العليا المصرية محاصرة من الهكسوس شمالاً ومن ملوك النوبيين جنوباً وخلفه في عرش طيبة ابنه الأكبر كاموس (١٥٦٠- ١٥٧٠ ق.م)، وهو آخر ملوك الأسرة الثامنة عشر، تابع فيها الحرب التي شرعها أبوه، فشن هجوماً مفاجئاً علىٰ معاقل الهكسوس المتاخمة لحدوده بقوات من الجيش وأسطول نيلي كبير، وراح يتقدم شمالاً حتىٰ بلغ عاصمة الهكسوس نفسها، واستولىٰ علىٰ ثلاثمئة مركب مصنوعة من خشب الأرز المجلوبة من الشام

ومشحونة بالأسلحة والذهب والفضة والمؤن، وبطش بالإسرائيليين (الطابور الخامس) حلفاء الهكسوس وبالمصريين الذين كانوا أيضا يمثلون الطابور الخامس في مصر ويساعدون أعداء البلاد في إذلال المصريين ويهادنون العدو.

والشعب المصري مسالم بطبعه، لا يخوض الحروب طمعا في أرزاق البلاد المجاورة، فلا يحارب إلا بعد صبر طويل، ولغرض الدفاع فحسب

في خضم القتال، قبض رجال كاموس في تلك الأثناء علىٰ رسول بعث به ملك الهكسوس إِلىٰ أمير النوبة في كوش، يحثه علىٰ مهاجمة أراضي طيبة من الجنوب، فلم يتردد كاموس في إرسال قوة إحتلت واحة البحرية التابعة للنوبة، محبطاً خطط أعدائه، ثم ارتد عائداً إِلىٰ طيبة

بانتهاء موسم الحملات وبعد أن قضىٰ علىٰ تمرد قام به أحد أتباعه تعرض لعملية إغتيال وقتل الملك كاموس، ثم انتقل الحكم إلىٰ أخيه أحمس الأول الذي لم يكن يبلغ إلا ١٠ أعوام وقامت والدته بحثه علىٰ التدرب علىٰ القتال مع المحاربيين القدامىٰ، وتنفس الهكسوس وأعداء مصر الصعداء لتخلصهم من كامووس، ولكن عندما بلغ أحمس سنه ال ١٩ سنة قام بعض من رجاله بالتقاط رسالة مبعوثة من ملك الهكسوس إلىٰ ملوك النوبة مرة أخرىٰ يحثونهم بالزحف علىٰ طيبة، مما أدىٰ إلىٰ قيام أحمس بالهجوم علىٰ الهكسوس هذه المرة وهزمهم في عدة معارك، وقام بشن عدة هجمات خارجية عليهم في أراضيهم الأصلية بالشام

لم تقتصر جهود أحمس الحربية علىٰ مقاتلة الهكسوس، فقد تحول بعدها إِلىٰ جنوب مصر فقاد ثلاث حملات كبيرة متوالية استهدف فيها بلاد النوبة لتأديب أميرها الذي تعاون مع الهكسوس مرتين مرة علىٰ أخيه ومرة عليه وبذلك أصبحت الحضارة المصرية القديمة تحت حكم ملوك طيبة المصريين مختلفة عما قبلها.

تغيرت العقيدة القتالية المصرية من الدفاع إلىٰ الهجوم والغزو وذلك بعدما اتضح لهم أن جيرانهم من الشعوب الأخرىٰ والقبائل الهمجية، يريدون احتلال أرضهم ولذلك يجب الدفاع عن مصر بخلق بُعد استراتيجىٰ لها في أراضي أخرىٰ مما جعل الدولة الحديثة التي أسسها كاموس الأخ الأكبر لأحمس تؤسس جيشاً نظامياً محترفاً ومدرباً لأول مرة

في مصر التي هي من فرط رقيها، لا تجعل الحرب هدفها الوحيد نحو الرفعة كباقي الشعوب الهمجية

وقد حدّث أحمس من أسلحته مما جعلهم يوسعون حدود مصر ويقيمون أول وأكبر إمبراطورية في العالم آنذاك من الأناضول شمالاً إلىٰ القرن الأفريقي جنوباً ومن الصحراء الليبية غرباً الذين كانوا هم أيضا يشنون الغارات علىٰ مصر من آن لآخر، إلىٰ الفرات شرقاً.

هذا الجيش الجديد كان يعاونه الأسلحة المشتركة وأسطول بحري، لأن الجيش المصري أيام حكم الفراعنة الآوائل وحتىٰ الهكسوس كان من المشاة لأن الفروسية كانت الحصان والعربة

بعد نهاية حكم الهكسوس بدأ عصر النهضة الثاني في مصر وكان بداية الشروق للإمبراطورية المصرية والتي عرفت أقصىٰ امتداد لها في عصر الملك العظيم تحتمس الثالث حيث تحولت الإستراتيجية المصرية من الدفاع داخل الأرض المصرية إلىٰ الدفاع من خارجها، فامتدت الدولة المصرية من العراق إلىٰ ليبيا ومن تركيا إلىٰ الجندل الرابع في السودان حالياً.



أقصىٰ مدىٰ من أراضي مصر القرن الخامس عشر قبل الميلاد في عهد الدولة الحديثة

امتدت حدود مصر في آسيا لأول مرة أيام الفتوحات الخارجية كحرب وقائية ضدها حتىٰ الفرات بالعراق أيام الملك تحتمس الأول وحفيده الملك تحتمس الثالث الذي قام بتوسعة الإمبراطورية المصرية إلىٰ أقصىٰ اتساع وصلت إليها من حدود إيران شرقاً إلىٰ حدود تونس غرباً حالياً ومن جنوب تركيا إلىٰ القرن الأفريقي وكذلك الملك رمسيس الثاني الذي هزم الحيثيين (وهم الامتداد العرقي للهكسوس) ويعد رمسيس الثاني أشهر ملوك الدولة الحديثة للحفاظ علىٰ وحدة البلاد وقد أنهىٰ خصومته مع ملك الحيثيين بتوقيع أول معاهدة سلام في التاريخ بعد معركة قادش التي تبين للملكين عجزيهما عن تحقيق نصر حاسم ضد الآخر

عاشت مصر في رقي حضاري لا تدانيها أمة في العالم ثم مرت علىٰ البلاد أوقاتا عصيبة إلىٰ أن غزاها الإسكندر الأكبر، ووقعت مصر تحت حكم الإغريق، ثم الرومان

شعب مصر يعتنق المسيحية

كانت مصر ملجأ للعديد من اليهود الفارين من السبي الآشوري والبابلي، وقد استوطنت الجاليات اليهودية جزيرة فيلة والإسكندرية كان من بينهم فيلسوفا يهودياً اسمه فيلون ولد في مدينة فيلة عام ٣٠ قبل ميلاد المسيح بأسوان يدعو للتجرد عن الدنيا، وقد قامت من مصر العديد من ثورات اليهود ضد الدولة الرمانية وكان اليهود يبشرون بالمسيح المخلص وقرب ظهوره وكانت مصر كعادتها تعج بالفلاسفة ومنهم فيلسوف مصري قبل مولد المسيح هو أفلاطون (أفلطونيس)، أطلق عليه مسيحيا بدون مسيح ويدعو بفلسفته إلىٰ أبعاد روحية قبلتها المسيحية كلها تقريبا حينما وصلت مصر وهنا كانت التربة المصرية مؤهلة لاعتناق المسيحية فقد كسبت المسيحية طائفة مثقفة من المؤيدين فكان من اليسير ذلك والمعلوم أن هاجرت العائلة المقدسة من فلسطين إلىٰ مصر وقضت السيدة مريم ويوسف النجار بضعة أعوام مع وليدها عيسىٰ علية الصلاة والسلام في مصر فرارا من بطش هيرودس وبعد وفاة المسيح ذهب مرقص ليكرز في مصر ولاقىٰ نجاحا كبيرا في زمن قياسي إلا أن الوثنيين لم يمهلوه طويلا وقتلوه عام ٦٨ ميلادية

في القرن الثاني الميلادي كثر الرهبان المسيحيون في مصر وبدأت تنشر المسيحية في مصر وخارجها، كان رد فعل جميع الأباطرة الرومان هو القتل والتنكيل للمؤمنين بالدين الجديد رغم ما عرف عنهم من تسامح في المعتقدات إلا أن اضطهاد المسيحيين قد بلغ أقصاه في عهد الإمبراطور الروماني (دقلديانوس) والذي حكم الإمبراطورية من عام ٢٨٤-

٣٠٥ م خاصة بعدما لوحظ من انتشار المسيحية بين سكان الإمبراطورية في السر، ومن غير اليهود في مصر بالتحديد والتي هي المورد الرئيسي للغلال للإمبراطورية، فكان الإضطهاد والحرق والعنف هو الحل البديل، وعلىٰ الرغم من القسوة البالغة إلا أن المسيحية المسالمة والمقهورة ازدادت إنتشارا بعد أن تشكلت الطقوس الكنسية والفكرة الفلسفية التي بدأ تصوراتها أفلاطونيس واكتملت من بعده، بفسيفساء دينىٰ من كل الثقافات المحيطة، وقبل القرن الثامن الميلادي، كان ٣٥٪ من من سكان مصرمن المسيحيين، واستمر المصريون يعبدون إيزيس وآلهتهم الحيوانية العديدة بإخلاص وولاء، واحتفظت إيزيس بالأتباع من الغالبية حتىٰ نهاية القرن الرابع الميلادي ولكن استمروا في التناقص بعدها حتىٰ القرن الثامن الميلادي

في القرن الرابع الميلادي كان الإمبراطورقسطنطين أكثر من أفلاطون حكمة فأدرك أن الدين الوثني الميت لا يستطيع أن ينجي روما، وتحقق لقسطنطين ما أراد وأصبح الإمبراطور الوحيد للدولة عام ٣٢٣ ميلادية، وأعلن صراحة مسيحيته ودعا الشعب إلىٰ المسيحية وكانت المسيحية بالنسبة إليه وسيلة يأمل من خلال هذا الدين المسالم أن يكون إمبراطورا مطلق السلطان، إلا أن قسطنطين لم يحسب حساب الإنشقاقات الفكرية والروحية الكامنة في فهم الدين الذي لم يشغل نفسه في التعمق فيه وفي هذه السنين نفسها كان هناك قسا آخرمن الإسكندرية هو آريوس وكانت شعبيته طاغية في مصر، لم يكن يؤمن بألوهية المسيح، أوبالإله الثلاثي ولم ير المسيح إلا كنبي قد خلت من قبله الرسل، وانتشرت هذه الدعوة انتشارا حادا بين المسيحيين في مصر وسائر أرجاء الإمبراطورية إذ جاءت ردا علىٰ تهكمات الوثنيين علىٰ المسيحية، الذين لم يروا في الدين الجديد، إلا تقليد الديانات الوثنية التي هم عليها، فقررالأسقف الكسندر تجريد آريوس وأتباعه فتدخل قسطنطين، وأرسل رسالة إلىٰ آريوس، وإلىٰ الكسندر يناشدهما التوفيق فلما رفضا، عقد مؤتمرا في نيقية عام ٣٢٥ ميلادية تقررفيها طرد ولعنة وحرمان آريوس ومؤيدية من الكنيسة ونفاهم وانتهىٰ الأمر بقتلهم ولم تكد الكنيسة تظفر علىٰ أعداءها حتىٰ امتنعت بقوة سلاح الإمبراطورية عن المناداة بالتسامح.

أخفىٰ العديد من المصريين معتقدهم الآريوسي أوالنسطوري أو مذهبهم اليعقوبي خوفا من بطش الدولة الرومانية، والذي استمر من القرن الرابع حتىٰ القرن الثامن الميلادي كان أقباط مصر قد اضطهدوا مرتين:الأولىٰ علىٰ يد الأباطرة الوثنيين في روما، والثانية علىٰ

يد الأباطرة المسيحيين في القسطنطينية، فقد قام دقليديانوس بقتل عشرات الآلاف منهم في عصر الشهداء المعروف اليوم بالتقويم القبطي وفر الرهبان إلىٰ أديرة الصحراء، أما المرة الثانية ففي عصر الدولة الرومانية الشرقية بالقسطنطينية التي حاولت ربط مصر بصورة مباشرة باتجاهات الأباطرة البيزنطيين الذين أصروا علىٰ تفسيراتهم ومبادئهم الدينية فكان ذلك وراء التوتر الذي ساد بين الكنيسة الأورثوذكسية القبطية بالأسكندرية والكنيسة الأورثوذكسية في القسطنطينية وكان الإضطهاد أشد عنفا وقتلا من عنف الوثنيين ومن ثم أصبح رجال الدين المسيحي بمثابة الزعماء الوطنيين المصريين إلىٰ جانب كونهم رجال الدين الروحانيين ونشط الرهبان من أقباط مصر في التبشير بالمسيحية في الحبشة وجنوب بلاد العرب من نجران.

ظلت مصر ولاية رومانية ذات المذهب الملكاني حتىٰ نهبت جيوش كسرىٰ أبرويز الثاني عام ٦١٤ م أورشليم وقتلت ٩٠٠٠٠ مسيحي، وأحرقت الكنائس والضريح المقدس وأخذ الصليب الحق إلىٰ بلاد الفرس وكان جيش فارسي قد استولىٰ علىٰ الإسكندرية في مصر عام ٦١٧ م ودخلت مصر كلها في حوزة ملك الملوك (أبرويز)، واستسلم له المصريون ظنا منهم أنه سيخلصهم من ظلم الرومان بل وساعدوه، إلا أنه ما أن تمكن منهم حتىٰ طلب منهم بالخديعة أن يصطفوا خارج القرىٰ ولما تم له ذلك قتل ٢٢٦٠٠٠ رجلا قبطيا، ممن تقاعسوا عن نصرته.

تولىٰ هرقل بعد بضع سنين إنشاء جيش جديد ودولة جديدة من أنقاض الجيش القديم والدولة القديمة، ولما تم له ذلك هزم قادة أبرويز وهاجم بلاد الفرس من حيث لم يحتسبوا وأطفأ نارها المقدسة، ردا علىٰ أخذ كسرىٰ الصليب المقدس لدىٰ هرقل، وكلما أرسل كسرىٰ له جيشا هزمه هرقل الذي طارده إلىٰ أن خلعه قواد جيشه، وعادت مصر تحت حكم الرومان وانتقم الرومان من المصريين الذين ساعدوا أبرويز وقتلت الآلاف منهم، وعاد الاضطهاد من جديد، إلىٰ أن جاء الفتح الإسلامي لمصر، وأخلصت مصر لدين الله كعادتها، ونبذت كل دعاوىٰ التطرف حتىٰ الآن.

٢ـ الحبشة - النجاشى

النجاشي أصحمة بن الأبجر ملك الحبشة هوسليل ملوك أكسيوم وهم سلالة الإمبراطور" منليك" وهو إبن ملكة سبأ التى قال عنها السيد المسيح:إن ملكة اليمن اتت من أقاصى الأرض لترى حكمة سليمان وهوذا أعظم من سليمان ههنا، وفى ترجمة التفسير التطبيقى للكتاب المقدس يقول: وستقوم مملكة الجنوب يوم الدينونة مع هذا الجيل وتدينه لأنها جاءت من أقصى الأرض لتسمع حكمة سليمان وها هنا أعظم من سليمان (متى١٢ :٤٢)، وتقول قصة الإمبراطور" منليك " إن سليمان الحكيم تزوج بملكة الجنوب هذه وأنجب منها هذا الإمبراطور، " منليك " أما الجنوب هنا فيقصد به أفريقيا وأول معلومات أكيدة عن مملكة أكسيوم ترجع إلى منتصف القرن الأول الميلادى حين كانت أكسيوم عاصمة غنية وإحتفظت بقداستها القديمة حتى إن ملوك الحبشة منذ ذلك الوقت حتى القرن التاسع عشر كانوا يذهبون إليها، وهناك تقام لهم إحتفالات التتويج

أول مبشر بالمسيحية لأثيوبيا:

وترى دائرة المعارف الكتابية أن أول من دخل إلى الحبشة مبشراً بالمسيحية هو فرومنتيوس، حوالى عام ٣٣٠ م، حيث أنه، وحسب الروايات القديمة، عندما كان ميروب الصورى راجعاً من الهند مع إبنى أخته، وقع في الآسر وقتل، وأخذ الولدان إلى ملك الحبشة وقد هلك أحدهما، أما فرومنتيوس الولد الآخر الذي نجا فقد نجح في هداية قسما كبيرا من الشعب الحبشي إلى المسيحية، فرسمه أثناسيوس البابا مطرانا لأثيوبيا، وصار بهذا أول مطران لأثيوبيا وسمى أبو سلامة أى السلام وقد سماه الأحباش كاساتى برهان أى كاشف النور (الآتي بالبرهان)، لأنه كشف لهم نور المسيح.

فى كتاب الأقباط تأليف ملاك لوقا يصف المؤلف قصة أول مطران الحبشة في أسلوب أدبى جميل وتحت عنوان "أنت هو الرجل" ويقول:

في عهد البابا أثناسيوس (٣٢٨-٣٧٣م)، وبعد موت الملك عينوا فرومنتيوس فذهب إلى الإسكندرية متوسلا إلى البابا لكى يرسم أسقفاً لأثيوبيا تكريماً لمكان عاش فيه وبشر فيه، وكان جواب البابا أثناسيوس (أنت هو الرجل لأنه من يكون أصلح منك لهذه المهمة) وبعد موافقه الأساقفة المجتمعين رسم فرومنتيوس أول أسقف إسكندرى على أثيوبيا، وبعد هذا إنطلق الأسقف عائداً إلى أثيوبيا حاملا بركة الإنجيل وأسس كرسيه في أكسيوم

وخدم هناك خدمة ناجحة، وتعيد له الكنيسة القبطية في يوم ١٨ من شهر كيهك كل عام، وقد ذكرت هذه القصة عند المؤرخ سقراط وعند كثيرين وتذكر عند الحديث عن البابا أثناسيوس الذى لقب بالرسولى أى خليفة الرسل.

الحبشة تنشر المسيحية في اليمن

احتلت الأحباش اليمن لاول مره سنة ٣٤٠م، مستغلين التنافس بين قبيلتي همدان وحمير، واستمر احتلالهم الى سنة ٣٧٨م ونشرت المسيحية بها ثم استقلت اليمن إلى أن عاد الحكم لقبيلة حمير ولما قاد ذو نواس الحميري وهو من قد ورث ملك (تُبّع) بعد اعتناقه اليهودية حملة منكرة على المسيحيين من أهل نجران وحاول صرفهم عن المسيحية قسراً ولما أبوا، خد لهم الأخدود وألقاهم في النيران، وهذا الذي أشار إلية القرآن الكريم في سورة البروج بقوله تعالى (قتل أصحاب الأخدود) وكان من جراء تلك المذبحة البشعة نقمة النصرانية الناشطة فقام الأحباش، بغزواليمن، واحتلوها للمرة الثانيه، بقيادة أرياط سنة ٥٢٥م ، وظل أرياط حاكماً من قبل ملك الحبشة حتى اغتاله أبرهة- أحد قواد جيشة - وحكم بدله بعد أن استرضى ملك الحبشة وأبرهة هذا هو الذي جند الجنود لهدم الكعبة وعرف هو وجنودة بأصحاب الفيل عام ٥٧٠ ميلادية.

خاتمة الجزء الأول

استعرض الجزء الأول من هذا الكتاب في إطلالة سريعة، بعض أنبياء الله عليهم السلام والذين ألقي الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ عاتقهم قيادة النهج الإيماني الرباني وحرصت علىٰ أن ينتهي هذا الجزء عند عام الفيل (٥٧٠ ميلادية)، اللهم إلا النذر اليسير الذي وجدت فيه ضرورة لاستمرار السياق أن أتجاوزهذا العام الميلادي المحدد، إلا أنني وبعد الانتهاء مما كتبت، وجدت أن تسلسل السياق قد شابه النقص فيما يتعلق بقضايا لاتزال تشغل العالم المسيحي والإسلامي علىٰ السواء، وإن كان موضوع صلب المسيح عليه الصلاة والسلام قد تم تفنيد إثبات استحالة حدوث ذلك الحدث، إلا أن قضايا البنوة لله المفتراة علىٰ المسيح وعقيدة التثليث، والربوبية لم تكن قد نوقشت، وبناء عليه آثرت إضافتها، واضافة مبحثين آخرين ألا وهما إساءات اليهود للمسيح عليه السلام فيما يتعلق بولادته، ثم أنهيت بما قد يكون تفسيرا لآية تتحدث كون المسيح آية في ولادته وأمه آية في حملها به وأيضا وربما آيتين في ذهابه وأمه عليه الصلاة والسلام إلىٰ ربوة ذات قرار مكين، معتقدا أنني قد وفيت مرحلة ما قبل رسول الله محمد صلىٰ الله عليه وسلم، أما لماذا بدأت كتابي بهذه البداية، فلم يكن إلا لغرض وضع القارئ أمام حقائق التطور الإيماني علىٰ ظهر هذا الكوكب منذ الألف الثانية قبل ميلاد السيد المسيح وحتىٰ مولد رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، وبعدها إلي عهد الدين الخاتم.

أوجزت وكان لابد لي من الإيجاز، فتشعب قضايا هذه المرحلة فنحن نستعرض أموراً قضيناها سويا علىٰ صفحات هذا الجزء من الكتاب وهي أقل بكثير مما ينتظرنا في الجزء الثاني الذي سوف يستعرض بإذن الله مولد الرسول صلىٰ الله عليه وسلم حتىٰ الهجرة أما الجزء الثالث الذىٰ اتمنىٰ من الله أن يمد عمري لإنجازه فيستعرض المدينة الفاضلة التىٰ أنشاها رسول الله في يثرب حتىٰ فتح مكة، ولئن طمعت في كرم الله فيمدفي عمري لإنجاز الجزء الرابع للمرحلة من بعد فتح مكة حتىٰ وفاته صلىٰ الله عليه وسلم، والغاية البعيدة المرجوه من وراء ذلك هي محاولة إدراك الحقائق الإيمانية الكبرىٰ دون مبالغة، فلكي يصل العقل الإنساني إلىٰ إدراك التوحيد لا بد له وأن يمر بخطوات لا سبيل إلىٰ اجتيازها دون عثرات وأخطاء مدركة، وغير مدركة.

و العثرات يغفرها الله إذ ما استغفرها المتعثر، وهي اللمم.

إن الأخطاء المدركة هي الأخطاء التى يقترفها العقل وهو مدرك بدءا من رفض تصديق الرسالة، مرورا بممارسة الإيمان بطريقة خاطئة والاجتراء على التاريخ وانتهاءا بعصيان الأوامر والنواهي، وإن كانت التوبة تمحوها، والإستغفار أيضا.

أما الأخطاء الغير مدركة، فهي أن يكون المرء مؤمنا، وربما شديد الإيمان، إلا أنه قد أعمل عقله فيما لا ينبغي له أن يعمله، كرفض علم الغيب مثلا، ويحسب أنه على صواب، أو الوهم بأنه قد بلغ العلم كله، فموسى عليه السلام قد حسب أن علم الناسوت الذي علمه الله له هوالعلم كله، فأراد له الله جلت قدرته أن يدرك حقيقة وجود علم الغيب وهو جزء من علم اللاهوت الذي لا ينبغي له أن يعلمه، وإنما المطلوب حتى من الأنبياء هو التسليم به فحسب، فالتقى بالخضر، فأدرك في آخر الأمر أن عليه ألا يتجاوز ما علمه الله له، أما قارون، الذي اعتقد أنه لئن رُدَ إلى الله، لوجد خيراً مما لديه منقلبـاً، وجادل في الحق فلم يمتثل بعدما حِذر، فكان له عقابه.

صحيح أنني أدعو إلى إعمال العقل لاكتمال الإيمان-كعديد غيري ممن يدعون إلى ذلك -ولكن للبشر حدود في إعمال العقل، إن كانوا يعقلون، فالإيمان بالغيب هو بداية الإيمان وشرطه كما نرى في أول سورة البقرة، فالإيمان إذاً يبدأ بالغيب ويكتمل بالعقل.

يأمرنا الله وينهانا بافعل ولا تفعل، وهي أوامر على بساطتها يخطئ العقل المؤمن في الإلتزام بها أحيانا، وقد كان أول من وقع فيها هو آدم عليه السلام رغم إيمانه، فهل هو نسيان الإنسان أم هو التطلع الإنساني؟، والمرجح عندي أنه هو التطلع، فالأمر ليس مقصورا على الإنسان المؤمن وحده، بل هو خطأ يشاركه فيه إبليس أيضا، وأبليس – الشيطان الرجيم– يخاف الله، وهو مؤمن أيضا به، لكنه متطلع إلى مكانة تفوق ما أقره له الله بل وقد كان من الجن المعتمد عليهم، فاقترف عدة أخطاء، الأولى كانت في اعتراضه على أمر الله بإفعل، والثانية كانت الجدل فيما أمره الله وأيضا كان الغرور على اعتبار اعتقاده بسموه عن الإنسان في طبيعة ما خلقه الله عليه، والثالثة كانت في استغلال عقله وقدراته في تحدى إرادة الله، فصار هذا المخلوق عدواً للإنسان وآية في العصيان فيكيد له كيدا ضعيفا، ويصير مع الشيطان مروِجا للكفر، وسببا له.

وآدم عليه السلام كان للوهلة الأولى مميزاً، فقد بدأ حياته في الجنة وما أدرانا ما الجنة، فعلاوة على ماحظي به من رعاية إلهية، يطلب رفيقا، فيخلق الله له منه رفيقة، يعلمه

الله العليم الأسماء كلها ويأمر الجن والملائكة بالسجود له، ولما أخطأ، وندم، تلقىٰ كلمات من الله وتاب الله عليه وعاقبه بالنزول من السماء بما فيها من سمو ونعيم الجنة، إلىٰ كبد الدنيا بما فيها من مشقة ودناءه، ويجعله خليفة له في الأرض.إلا أن آدم عليه السلام لم يحظ بالتجارب المهيأة لأبنائه من بعده، فقد كان أول البشر، والبشر خطاؤن وخير الخطائين التوابون، ومن هنا تعلمنا أن الطبيعة البشرية مجبولة علىٰ ارتكاب الأخطاء، وتعلمنا الطريقة المثلىٰ لعفو الله عنا وعن أخطائنا، وإن كان خير الخطائين التوابون، فحتىٰ غيرهم جعل الله فيهم خيراً ما.

صحيح أن ابناء آدم عليه السلام ليسوا مميزين كآدم، وهم من البشر مثله عليه السلام، إلا أن تجارب أجدادهم ومناهج قدواتهم من الأنبياء والرسل عليهم السلام، هي نبراسهم وطريق هدايتهم، ومنهجهم الإيماني الذي عليهم أن يقتفوه، ويسيروا عليه.

وليس من البشر من هو معصوم فالعصمة لله وحده، حتىٰ الأنبياء - وهم من البشر- كما ذكرنا من قبل، فإن كانت لهم عصمة فهي عصمة في التبليغ فحسب، لا تتعدىٰ ذلك، سواء قبل الرسالة أو بعدها، فرسول الله موسىٰ قد قتل قبل الرسالة، فعلم أن قد ظلم نفسه وتاب الله عليه، ونبي الله يونس بعد الرسالة، ذهب مغاضبا وهو مليم، فغضب الله عليه، ولما علم أنه كان من الظالمين واستغفر، تاب الله عليه، والأمثلة لا منتهية في هذا المضمار.

لقد انحازآدم عيه السلام للعقل والضمير بعد أن تلقىٰ كلمات من ربه فتاب عليه عقب خطيئته، وآمن من آمن بالأنبياء من بعده لانحيازهم للعقل والضمير، وقد كان رقي إيمانهم متعلق بالعقل والضمير.

أرسل الله جل وعلا إبراهيم فانحاز المؤمنون به للعقل والضمير بعدما رأوا إبراهيم عليه السلام يُلقىٰ في النار فلا تمسه فكانت معجزات الله لتقريب هذا الإنحياز، وانفردوا عن العالمين بهذا الإنحياز، ولما انحاز بنو إسرائيل لموسىٰ عليه السلام، انحاز أغلبهم لقائد من عشيرتهم، وقد احتاجوا للآيات التسع التي أمد الله بها موسىٰ عليه السلام، وقليل كانوا مؤمنين، ولما آتاهم عيسىٰ عليه السلام، انتظروا منه أن يفري ما فرىٰ يوسف عليه السلام لأجدادهم في رغد العيش، أوموسىٰ بقهرالفرعون، لكن عيسىٰ عليه السلام كان يعرض عليهم أن يكونوا معه في ملكوت السماء، فانحازوا لغرائزهم وللملكوت الأرضي ولما لم ينالوا منه إلا القليل، أعرض أغلبهم، وقليل كانوا به مؤمنين.

أضحت المشكلة لدى البشر في الزمان الذي أرسل الله فيه الأنبياء والرسل- لتقبل القضية الإيمانية- متعلقة بطلب الآيات طلباً، كشرط للإيمان، بل وتحديد شكل المعجزة التي بها يقبلون الإيمان عن طريقها، وكأن رسول الله على خشبة مسرح يسعدهم بما يأت به من آيات وليس كنبي ورسول أُرسل ليطاع، وكأنهم أطفال يشترطون التدليل حتى يؤمنوا، وهنا خرج بنو إسرائيل من المطلوب منهم.

تقتضي تربية الطفل كثيرالحذر والتدليل، فلا يؤمر بل يسيس فيدله مربوه على مصلحته بالتوجيه والتدليل، عبر الحنان للإعتماد وحده على ذاته، فيكبر ويتعلم أن يُفطم وهو أمرعسير على الرضيع، ويتعلم أن يسير على قدميه بدلاً من الحبو وهو أيضا عسير إذ يحتاج إلى توازنٍ لم يكن يمارسه وأن يقضي حاجتة وحده ويقوم وحده بالإستبراء من حدثه وتزداد جرعة التدليل والإغراء بشتى الوسائل سواء كانت بالحلوى أو النزهات والمكافآت والتشجيع ويرسله مربوه إلى فصول الدرس والتعليم برعاية وتدليل زائد بما سبق ذكره من وسائل إغراء ورعاية وما أن يبلغ أشدة يصبح لزاما عليه أن يتعلم ما هو أكبر وأهم ولا يغريه التدليل فعنده منه الكثيرولم يعد يرضيه ولم يعد يستسغ الحلوى ويتلهف عليها أما النزهات فهو قادرعلى التنزه منفرداً، ولا يغريه ما سبق بعدما ينضج ومن ثم يخاطب بعدها بالعقل والضمير في مرحلة النضج بالنذير والتبشير.

ولقد احتاجت الطفولة البشرية والإيمانية إلى كل هذا بطريقة أوبأخرى في مراحلها الأولى، ثم احتاجت إلى العقل والضمير بعدما نضجت، وأصبحت البشرية تدرك أن الإيمان يخاطب في الإنسان الروح والوجدان عبر العقل والضمير، أما الفسق فيجتذب الإنسان بالإحتياجات من الرغبات عبر الغرائز، فينسحب هذا على البشرية في طفولتها الحضارية ونضجها الحضاري، ولقد أتم الله رسالات مرحلة الطفولة الحضارية أما مرحلة النضج الحضاري فقد احتاجت إلى قدوة بشرية وخاتم الأنبياء،

(وَمَا تَفَرَّقُوٓا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا ٱلْكِتَٰبَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ) [الشورى١٤]

محمد قدوة العالمين، هو من أوكله الله بهذه المهمة، يخاطب العقل والوجدان فلا يمده الله بخوارق لا يملك البشر مثلها، كعصا موسى ولا بقدرة على إحياء الموتى أوحديث إلى الطير وتسخير للجن وغيرها من الخوارق، ويجب أن يزول الشك، وحتى

ينمحي الشك فليس لديه إلا بيان القرآن، وطبيعة بشرية وأخلاقية فريدة، أهلته أن يستحوذ علىٰ صفات جعلت منه قدوة للعالمين.

مدحت رضا ماهر

فهرس التواريخ والأحداث

- بناء الأهرامات زمن سنوسرت ٢٩٠٠ ق م
- بناء أمنحتب الثاني مدينة اليبوسيين (القدس – أورشليم) ٢٠٦٥ ق م
- استيلاء قبائل الحيثيين (الهكسوس)علىٰ الحكم في مصر بعد ضعف الاسرة الثانية حتىٰ نهاية حكم الأسرة الرابعة عشر ١٧٢٥ ق م
- مولد نبي الله ورسوله إبراهيم عليه السلام في مدينة أور جنوب شرق نهر الفرات عام ١٧٥٠ ق م
- مولد نبي الله إسماعيل في فلسطين عام ١٦٧٠ ق م
- استيطان هاجر وإسماعيل مكة عام ١٦٥٧ ق م واستيطان قبيله جرهم ١٦٥٦ق م
- مولد نبي الله إسحق بفلسطين (أرض كنعان) عام ١٦٥٧ ق م
- مولد نبي الله يعقوب بفلسطين (أرض كنعان) عام ١٦٣٧ ق م
- مولد نبي الله يوسف بفلسطين (أرض كنعان) عام ١٦١٠ ق م
- قبيلة خزاعة تستوطن مكة عام ١٦٠٠ ق م
- إقامة جرهم في مكة سبعة عشر قرناً تقريباً وحكمهم علىٰ مكة زهاء ستة عشر قرناً من ١٥٩٠ قم حتىٰ عام ٤٠ م
- أحمس من الأسرة الثامنة عشر يطرد الهكسوس من مصر ويطاردهم حتىٰ بلاد الشام ويتجه لطرد لنوبيين من الجنوب عام ١٥٧٠ ق م
- استيلاء تحتموس الثالث علىٰ هرمجدو في موقعة قادش مع الهكسوس وأسر أبناء ملوكهم لتعليمهم الحضارة بمصر وأول معاهدة سلام في التاريخ عام ١٤٤٨ ق م
- مولد رسول الله موسىٰ عليه الصلاة والسلام بمصر عام ١٢٥٠ ق م
- خروج موسىٰ عليه الصلاة والسلام مع اليهود من مصر وفترة التيه في سيناء من عام ١٢١٣ ـ ١١٧٣ ق م
- يوشع بن نون يدخل رام الله بأرض كنعان عام ١١٧٠ ق م
- عهد القضاة لبني إسرائيل من عام ١١٧٥ ـ ١٠٥٠ ق م
- قيام الإمبراطورية الآشورية عام ١٠٥٢ ق م
- غزو قبائل الفلستين من جزيرة كريت لأرض كنعان عام ١٠٦٠ ق م

- عهد ملوك بني إسرائيل
  - نبي الله طالوت عليه السلام (١٠٥٠ ـ ١٠٣٥ ق م)
  - نبي الله داوود عليه السلام (١٠٣٥ ـ ١٠١٥ ق م)
  - نبي الله سليمان عليه السلام (١٠١٥ـ ٩٣٥ ق م)
- إسلام بلقيس ملكة سبأ علىٰ يد نبي الله سليمان عام ٩٧٠ ق م
- عهد الإنقسام
  - قيام يربعام بن سليمان بمملكة إسرائيل بالجنوب في شكيم (نابلس) (٩٣٤ ـ ٦٠٨ ق م)
  - قيام رحبعام بن سليمان بالانفصال بيهوذا بالشمال في أورشليم (القدس) (٩٣٤ ـ ٦٠٨ ق م)
- عهد السبي الآشوري
  - آسر حادون (سرجون الثاني) ملك الآشوريين يغزو يهوذا بالشمال ويأسر هوشع بن آيلة ملك يهوذا والشعب إلىٰ آشور ثم يحتل إسرائيل ويسبي شعبها لآشور ويغزو مصر عام ٧٢١ ق م
- فرعون مصر (بسماتيك) يحررمصر من الآشوريين عام ٦٦٤ ق م
- نخاو فرعون مصر وإبن بسماتيك يطارد الآشوريين ويحتل يهوذا وإسرائيل عام ٦٠٨ ق م
- قيام الإمبراطورية البابلية عام ٦٥٠ ق م
- غزو نبوخذ نصر البابلي للمرة الاولىٰ للجزيرة العربية عام ٥٩٥ ق م
- انهيار الإمبراطورية الآشورية بالغزو البابلي لها عام ٥٨٦ ق م علىٰ يد بختنصر (نبوخذ نصر)
- عهد السبي البابلي لليهود
  - علىٰ يد بختنصر (نبوخذ نصر) وقيامه بسبي اليهود في بابل وهدم هيكل سليمان عام ٥٧٦ ق م واحتلاله لمصر
- غزو نبوخذ نصر البابلي للجزيرة العربية للمرة الثانية ٥٨٧ ق م وبرمياه النبي يذهب بمعد (من نسل إسماعيل) للشام خوفا علىٰ نسل النبوة من نبوخذ نصر.
- قيام الإمبراطورية الفارسية علىٰ يد قورش في القرن السادس قبل الميلاد

- احتلال (قورش) ملك الفرس لكل الإمبراطورية البابلية دون قتال ما بين عامي (٥٣٨-٥٤٠ ق م) والسماح للشعوب المأسورة بالعودة إلىٰ بلادها
- قيام قمبيز بن قورش بالهجوم علىٰ مصر عام ٥٢٥ ق م فيصبح قمبيز أول ملك (بعد تحتمس الثالث قبل ذلك بألف عام) ملكا علىٰ منطقة واقعة بين النيل والفرات،
- تمكن اليهود من إقناع دارا الأول (داريوس الأول) ببناء معبد أورشليم بعدما هدمة بختنصر البابلي علىٰ أن تتحملها خزانة عبر الفرات.
- الملك (أحشويروش)الفارسي يأمرببناء مدينة أورشليم وتعيين مردخاىٰ واليا علىٰ يهوذا في ٤٥٥ ق م (التزوير الثاني لتوراة)
- سقوط الإمبراطورية الفارسية علىٰ يد الإمبراطورية الإغريقية وملكها الإسكندر الأكبر المقدوني الذي سيطرعلىٰ معظم أرجاء العالم بما فيها فارس ومصر (٣٣٢ ق م) بعد هزيمة داريوس الثالث (دارا الثالث)
- وفاة الاسكندر الأكبر بعد فتوحات وصلت للهند وقيام جنده باقتسام العالم بينهم فكانت سوريا بما فيها يهوذا وبابل (العراق) من نصيب سلوقس، أما مصر فكانت من نصيب بطليموس (التي دفن فيها)
- قيام (بطليموس الثاني) ببناء مكتبة الأسكندرية في ٢٥٠ ق م والأمر بترجمة التوراة إلىٰ اليونانية وقيام الكاهن الأكبر بكتابة بالنص السبعيني للتوراة
- قيام الدولة الرومانية (٢٧٥ ق م – ٣٤ م) علىٰ حساب الفينيقيين
- في عام ١٩٠ ق م استيلاء الملك السلوقىٰ أنتاخيوس علىٰ فلسطين من البطالسة والهجوم علىٰ معبد القدس - لاحتياجه للمال لتمويل حروبه مع الدولة الرومانية والأمرباعتبار معبد أورشليم معبدا يونانيا لجميع الشعوب ووضع أصناما داخله المعبد ومنع الختان والأمر بأن يضحي بالخنازيربالمعبد وثورة اليهود
- ثورة اليهود الاولىٰ بقيادة (ماتياس الهاسمونىٰ) سنة ١٦٨ ق م ضد سلوقس الرابع
- في عهد بومبي (٦٣ ق م) استيلاء روما علىٰ بلاد البطالمة والسلوقيين، واعتبار البحر المتوسط إلي بحيرة رومانية بعد هزيمة كليوباترا في عهد يوليوس قيصر عام ٤٤ ق م وضم بلاد الغال وأرسىٰ النظام الإمبراطوري الوراثي

- توغل الرومان في أوروبا في عهد أوكتافيوس سنة ٢٧ ق م حتىٰ وصلوا إلىٰ جنوب بريطانيا
- مولد رسول الله المسيح عيسىٰ بن مريم عليه الصلاة والسلام في عهد أرخيليوس وأوكتافيوس
- ثورة اليهود الثانية عام ٤ م
- ثور اليهود الثالثة (٦٦م) بقيادة يهوذا الجليلي فأخمدها لرومان وقتلوا يهوذا
- قامت توابع للثورة بقيادة (مناحيم بن يهوذا الجليلي) فاستولوا علىٰ قلعة ماسادا الرومانية وعلىٰ السلاح فيها فأرسل نيرون٦٠,٠٠٠ جندي وعلىٰ رأسهم فاسباستيان عام ٦٧ ميلادية فهزمهم وقتل معظمهم
- انتقام العبيد من اليهود المتواجدين في روما فحرقوا مدينة روما عام ٦٨
- دخول المسيحية مصر عن طريق مرقس حواري رسول الله عيسىٰ ٧٠م
- تدمير الرومان للمعبد (٧٠ م)علىٰ يد طيتس (تايتوس)، عقابا من الدولة الرومانية
- قيام تراجان (٩٨-١١٧ م) بإصلاحات كبيرة وانتصاره علىٰ برابرة الشمال وخلافه هادريان له (١١٧-١٣٨ م) بنفس الإصلاحات
- استمرارالفرس في حكم بلادهم مجزأة ستة قرون حتىٰ عام ٢٣٠ ميلادية بما عرف بملوك الطوائف
- إعلان باباك إبن ساسان كاهن أصطخر نفسه ملكا عليها عام ٢٢٠ م - ٢٢٢ م
- تولىٰ شهبور إبن باباك (٢٢٢-٢٢٤م) الحكم وبعده ابنه أردشير (٢٢٤- ٢٤١ م) وتوحيد بلاد الفرس وأعلان نفسه ملك الملوك وإعادة العقيدة الزرادشتية إلىٰ مكانتها وأعلانه أنه سينتقم بالثأر لدارا الثاني من ورثة الإسكندر فاستولىٰ علىٰ العراق ونهرجيحون (٢٣٠ م)
- إعلان شهبورإبن أردشير عام (٢٤١-٢٧٢م) إمبراطورالفرس الحرب علىٰ اليونان والرومان في البحر المتوسط وأسر الإمبراطور الروماني فيليريان عام ٢٦٠م.

- ما بين عامي ٢٧٢- ٣٠٢ م لم يحكم الفرس ملوكا أكفاء إلىٰ أن جاء هرمز الثاني (٣٠٢- ٣٠٩ م) الذي شيد المشروعات في أرجاء البلاد وعاشت الدولة في زمن البناء والسلم
- عصرالشهداء في مصر وسوريا في عهد الإمبراطورالروماني (دقلديانوس) والذي حكم الإمبراطورية من عام ٢٨٤-٣٠٥ م بعد إنتشارالمسيحية في سوريا ومصر
- اعتناق قسطنطين (٣٢٤-٣٧٥ م) للمسيحية ونقل مقر حكمه من روما إلىٰ بيزنطة (القسطنطينية)
- دخول المسيحية للحبشة بتبشير مصري ٣٣٠ م
- احتلال الحبشة لليمن عام ٣٤٠ ميلادية للتبشير بالمسيحية وحمايتها بعد نجاح التبشير المصرىٰ بها الذي استمرت حوالي ٤٠ سنة
- شهبور الثاني (٣٠٩- ٣٧٩ م) ملك الفرس يهزم ويقتل يوليانوس الروماني عام ٣٦٠ م يغزو شرقي الجزيرة العربية والحدود الرومانية ٤٠ سنة وبلوغ دولة الفرس أوج مجدها.
- نجاح دخول المسيحية لليمن عام ٣٧٨ م بتبشير مصري
- انقسام الدولة الرومانية سنة ٣٩٥ ميلادية إلىٰ قسمين الدولة الرومانية الغربية في روما وديانتها المسيحية الكاثوليكية والدولة الرومانية الشرقية (بيزنطة) وعاصمتها القسطنطينية وديانتها المسيحية الأورثوذكسية
- انتصار الملك بهرام الخامس الساساني (٤٢٠ – ٤٣٨ م) علىٰ الهون بعد غزوهم نهري سيحون وجيحون
- خزاعة تحكم مكة من عام ٤٠ م إلىٰ ٤٤٠ م
- وقوع الثلمات في سد مأرب، حتىٰ وقع السيل العظيم في سنة ٤٥٠م او ٤٥١م مما أدىٰ لخراب العمران وتشتت الشعوب وهجرتها من اليمن للشمال
- في عهد فيروز شاه (٤٥٩ – ٤٨٤ م) انتصرالهون عليه وقتلوه ولماجاء الملك كفادة الأول أو قباذ بن فيروز (٤٨٨- ٥٣١ م) قتل مزدك وأتباعه وتوجه إلىٰ الهون البيض وقتلهم بعدما استتب له الأمر
- قيام مملكة تبع باليمن ٤٥١م ـ ٥٢٥ م

- ذو النواس الحميريا لذي اعتنق اليهودية يقتل المسيحيين في نجران (أصحاب الأخدود) ٥٢٣ م
- احتلال الحبشة لليمن للمرة الثانية بقيادة أرياط ٥٢٥ لحماية المسيحيين
- انقلاب أبرهة علىٰ أرياط في حكم اليمن ٥٣٠ م - ٥٧٠ م ووقوع حادث الفيل
- مولد رسول الله محمد صلىٰ الله عليه وسلم وفي عهد كسرىٰ الأول إمبراطور الفرس في عام الفيل عام ٥٧٠ م وجستنيان قيصر الروم
- احتلال الفرس لليمن بعد استنجاد اليمانيون بالفرس ونالوا الأستقلال في سنة ٥٧٥م بقيادة معد يكرب بن سيف ذي يزن الحميري
- كسرىٰ الأول أنو شروان (٥٣١ – ٥٧٩ م) يقتل جميع أبنائه ما عدا واحدا منهم ووقع مع الإمبراطورالروماني الشرقي عام ٥٣٢ م جستنيان صلحا ونقده عام ٥٣٩م ثم زحف علىٰ سوريا عام ٥٤٣ وأدىٰ له جستنيان الجزية علىٰ أن تقف الحرب خمسين عاما
- جستيان يخرق الهدنة مع الفرس عام ٥٧٢ م ويهزم كسرىٰ الأول عام ٥٧٨ م
- هرمز الرابع (٥٧٩ – ٥٨٩ م) يتولىٰ الحكم فيخلعه قائد الجيش عام ٥٨٩ م ويعلن نفسه وصيا علىٰ كسرىٰ أبرويز الثاني إبن هرمز
- الإمبراطور البيزنطي موريس يساعد كسرىٰ أبرويز الثاني إبن هرمز (٥٩٦- ٦٢٨ م)علىٰ تولي الحكم علىٰ أسنة الرماح البيزنطية مقابل التنازل عن أرمينيا عام ٥٩٦ م،
- اليمن ولاية فارسية من عام ٦١٥ حتىٰ ٦٣٠ م وبعدها الفتح الإسلامي لليمن

المراجع العربية والإسلامية والأجنبية

- القرآن الكريم
- التوراة
- التلمود
- الإناجيل الأربعة
- إنجيل برنابا
- الله (كتاب في نشأة العقيدة الإلهية) ـ لعباس محمود العقاد
- قصة العقائد لسليمان مظهر
- إبراهيم أبو الأنبياء لعباس محمود العقاد
- سلسلة مقارنة الأديان للدكتور أحمد شلبي
- إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة لإبكار السقاف
- (تاريخ اليهود) الجزء الأول والثاني للكاتب أحمد عثمان
- التلمود شريعة بنىٰ إسرائيل – أحمد صبري
- الصهيونية في المجال الدولي للدكتور عبد المعز نصر
- تاريخ الشعب العبري لـ (ريناتش)
- قصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار
- الأسلام والنصرانية للشيخ محمد عبده
- حياة المسيح لعباس محمود العقاد
- المسيح عيسىٰ بن مريم لعبد الحميد جودة السحار
- سلسلة مقارنة الأديان للدكتور أحمد شلبي
- قصة الحضارة ـ لول ديورانت
- A SHORT HISTORY OF THE WORLD
- AlfredE.Grarvie:Encyclopaedia of Relegions and Ethics volume 5
- Outline of History Volume 3 للكاتب ويلز
- محاضرات تاريخ الأمم ـ للخضري
- سقوط روما وانحطاطها ـ إدوارد جيبون
- الأصنام لابن الكلبي

- كتب الحديث: سنن النسائي – وأبي داوود ـ وابن ماجة ـ شرح صحيح مسلم لأبو زكريا النووي ـ صحيح البخاري ـ صحيح مسلم ـ الأحاديث الصحيحة المجلد الأول والثاني لناصر الدين الألباني ـ موطأ الإمام مالك ـ جامع الترمذي
- تفاسير:الطبري، وابن كثير، الجلالين فتح القدير، الدر المنثور، زاد المسير، السمط الثمين
- أسباب النزول لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النياسبوري وبهامشه الناسخ والمنسوخ
- لباب النقول في أسباب النزول للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي
- الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس عن رواية أبي بكر بن علىٰ الأدفوي النحوي
- زاد المعاد في هدىٰ خير العباد لشمس الدين المشقي (ابن القيم الجوزي)
- سيرة بن هشام لأبي محمد عبد الملك بن هشام
- المغازي للواقدي
- فجر الإسلام لأحمد أمين
- موسوعة آل النبي
- أعلام النساء
- معدن الأعمال
- مشكاة المصابيح
- تاريخ الطبري
- الأمانة والسياسة
- في الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين
- رياض الصالحين للإمام أبي زكريا يحيىٰ بن شرف النووي الدمشقي
- من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار (الجزء الأول والثاني)
- مباحث في علوم القرآن لمناع القطان
- عبقرية محمد لعباس محمود العقاد
- عبقرية الصديق لعباس محمود العقاد
- عبقرية عمر لعباس محمود العقاد

- عثمان بن عفان لعباس محمود العقاد
- عبقرية الإمام لعباس محمود العقاد
- فاطمة الزهراء والفاطميون لعباس محمود العقاد
- معاوية بن أبي سفيان لعباس محمود العقاد
- المرأة في القرآن لعباس محمود العقاد
- رجال ونساء أنزل الله فيهم قرآنا (المجلد من الأول للثالث) للدكتور عبد الرحمن عميرة
- الروض الأنف لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي
- معالم في الطريق ـ لسيد قطب
- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـ لسيد قطب
- تفهيم القرآن لأبي الأعلىٰ المودودي
- جامع الترمذي لأبي عيسىٰ محمد بن عيسىٰ الترمذي
- فتح الباري، فقه السيرة للغزالي، سنن أبو داوود، طبقات بن سعد
- الشفاء بتعريف حقوق المصطفىٰ ـ للقاضي عياض
- إحياء علوم الدين للغزالي
- طبقات بن سعد
- حياة محمد – لمحمد حسين هيكل باشا
- الرحيق المختوم للشيخ صفي الرحمن المباركفوري
- محمد صلىٰ الله عليه وسلم لمحمد رضا
- هذا الحبيب محمد يا محب ـ لأبي بكر الجزائري
- الرسول في بيته لعبد الوهاب حمودة
- الحكم وقضية تكفير المسلم لسالم علي البهنساوي
- ولاة مصر لمحمد يوسف الكندي
- علىٰ هامش السيرة للدكتور طه حسين
- الوعد الحق للدكتور طه حسين
- مختصر سيرة الرسول ـ لمحمد بن عبد الوهاب التميمي
- كتاب مصر وحضارات العالم القديم

- قلب جزيرة العرب
- السمهوديٰ / وفاء الوفاء
- تفهيم القرآن
- بشارة المصطفىٰ
- تفسير سورة النور لأبي الأعلىٰ المودودي
- رسول أكرم ي سياسي زند كي ـ لدكتور حميد الله (النسخة العربية)
- تفهيم القرآن
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب
- تلقيح فهوم أهل الأثر
- تاج العروس للتميمي
- نهاية الإرب للنويري
- تاريخ الإسلام للنجيب آبادي
- مناقب الأنصار
- مجلدات الموسوعة المصرية (تاريخ مصر القديم وآثارها)
- أصول الشعائر السامية الأولىٰ لـ (هوك)
- أور الكلدانيين لـ (وولي)